

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

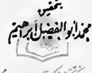
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم



الجزء التاسع

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

[ذكر أطراف مما شجر بين علي وعثمان في أثناء خلافته]

واعلم أن هذا الكتاب يستدعي منا أن نذكر أطرافاً مما شجر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته ؛ إذ كان هذا الكلام الذي شرحناه من ذلك النمط[1] ؛ والشيء يذكر بنظيره ؛ وعادتنا في هذا الشرح أن نذكر الشيء مع ما يناسبه ويقتضي ذكره .

قال أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب «أخبار السقيفة» : حدثني محمد بن منصور الرمادي ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زياد بن جَبَل ، عن أبي كعب الحارثي[2] ـ وهو ذو الإداوة[3] ، قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وإنما سمي ذا الإداوة لأنه قال : إني خرجتُ في طلب إبل ضوالّ ، فتزودتُ لبناً في إداوة ، ثم قلت في نفسي : ما أنصفتُ ربي ! فأين الوضوء ؟ فأرقتُ اللبن وملأتها ماء ، فقلت : هذا وضوء وشراب ، وطفقت أبغي إبلي ، فلما أردتُ الوضوء اصطببتُ من الإداوة ماء فتوضأت ، ثم أردتُ الشرب ، فلما اصطببتُها ؛ إذا لبن فشربت ؛ فمكثت بذلك ثلاثاً : فقالت

---

(١) انظر الجزء الثامن ص ٢٥٢ إلى ٢٦٢ في أخبار أبي ذر الغفاري وإخراجه إلى الربذة وموقف عثمان وعلي منه .

(٢) أبو كعب الحارثي ، أورده ابن حجر في الإصابة ٤ : ١٦٥ ؛ ونقل خبره ، عن معمر في جامعه .

(٣) الإداوة ، بالكسر : إناء صغير من جلد .

له أسماء النصرانية : يا أبا كعب ، أحقيناً كان أم حليباً[1] ؟ قال : إنك لبطالة ! كان يعصم من الجوع ويروى من الظمأ ، أما إنى حدثت بهذا نفراً من قومى ؛ منهم علىّ بن الحارث سيّد بنى قنان ؛ فلم يصدقنى ، وقال : ما أظن الذى تقول كما قلت ! فقلت : الله أعلمُ بذلك . ورجعت إلى منزلى ، فبتّ ليلتى تلك ، فإذا به صلاةَ الصبح على بابى ، فخرجت إليه ، فقلت : رحمك الله ! لم تعنيت ؟ ألا أرسلتَ إلىّ فآتيك ، فإنى لأحقّ بذلك منك قال : مانمت الليلة إلا أتانى آتٍ فقال : أنت الذى تكذّب مَنْ يحدّث بما أنعم الله عليه ! قال أبو كعب : ثم خرجت حتى أتيت المدينة ، فأتيت عثمانَ بن عفّان وهو الخليفة يومئذ فسألتهُ عن شىء من أمر دينى ، وقلت : ياأميرَ المؤمنين ، إنى رجلٌ من أهل اليمن من بنى الحارث بن كعب ، وإنى أريدُ أن أسألك فأمُر حاجبَك ألا يحجُبَنى ، فقال : يا وثّاب ، إذا جاءك هذا الحارثىّ فأذَنْ له . قال : فكنت إذا جئت ، فقرعت الباب ، قال : مَنْ ذا ؟ فقلت : الحارثىّ . فيقول : ادخل ، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس ، وحوله نفرٌ سكوت لا يتكلمون ، كأنّ على رءوسهم الطير ، فسلّمت ثم جلست ، فلم أسأله عن شىء لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله ، فبينا أنا كذلك إذْ جاء نفرٌ ، فقالوا : إنه أبَى أن يجىء . قال : فغضب وقال : أبى أن يجىء ! اذهبوا فجيئوا به ؛ فإنْ أبَى فجرّوه جرّاً !

قال : فمكثت قليلاً ، فجاءوا ومعهم رجل آدم طُوال أصلع ، فى مقدّم رأسه شعرات ، وفى قفاه شعرات ، فقلت : مَنْ هذا ؟ قالوا : عمّار بن ياسر ، فقال له عثمان : أنتَ الذى تأتيك رسلُنا فتأبَى أن تجىء ! قال : فكلّمه بشىء لم أدرِ ماهو ، ثم خرج . فما زالوا

---

(١) الحقين : اللبن الذى قد حقن فى السقاء ليخرج زبدته . والحليب : اللبن المحلوب الذى لم يتغير طعمه

ينفضّون من عنده حتى ما بَقِيَ غيرى فقام ، فقلت : والله لا أسألُ عن هـذا الأمر أحـداً أقول حدّثنى فلان حتى أدرى ما يصنع . فتبعتُه حتّى دخل المسجد ، فإذا عمّار جالس إلى سارية ، وحوله نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون ، فقال عثمان : يا وثّاب علىّ بالشُّرَط ، فجاءوا ، فقال : فرّقوا بين هؤلاء ، ففرّقوا بينهم .

ثم أقيمت الصلاة ، فتقدّم عثمان فصلّى بهم ، فلما كبّر قالت امرأة من حُجْرتها : يأيّها الناس . ثم تكلّمت ، وذكرت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وما بعثه الله به ، ثم قالت : تركتم أمر الله ، وخالفتم عهده . . . ونحو هـذا ، ثم صمتتْ وتكلّمت امرأة أخرى بمثل ذلك ، فإذا هما عائشة وحفصة .

قال : فسلّم عثمان ، ثم أقبل على الناس ، وقال : إنّ هاتين لَفتّانتان ، يحلّ لى سبُّهما ، وأنا بأصلهما عالم .

فقال له سعد بن أبى وقّاص : أتقولُ هذا لحبائب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : وفيمَ أنت ! وما هاهنا ، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه ، فانسلّ سعد .

فخرج من المسجد ، فاتبعه عثمان ، فلقىَ عليّاً عليه السلام بباب المسجد ، فقال له عليه السلام : أين تريد ؟ قال : أريد هذا الذى كذا وكذا ــ يعنى سعداً يشتمه ــ فقال له علىّ عليه السلام : أيّها الرجل ، دعْ عنك هذا . قال : فلم يزلْ بينهما كلام ، حتى غضبا ، فقال عثمان : ألستَ الّذى خلّفك رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم تبُوكَ ! فقال علىّ : ألستَ الفارّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد !

قال : ثم حَجَز الناس بينهما . قال : ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الكوفة ، فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرّ ، ونشبوا فى الفتنة ، وردّوا سعيدَ بن العاص فلم يَدَعُوه يدخل إليهم . فلمّا رأيتُ ذلك رجعتُ حتى أتيت بلادَ قومى .

* * *

وروى الزُّبير بن بَكَّار في كتاب «الموفَّقيات» عن عمّه، عن عيسى بن دواد، عن رجاله، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: لما بنى عثمان دارَه بالمدينة، أكثرَ النّاس عليه في ذلك فبلغه، فخطبَنا في يوم جمعة؛ ثم صلّى بنا، ثم عاد إلى المِنْبر، فحمِدَالله وأثنى عليه، وصلّى على رسوله، ثم قال: أمّا بعدُ؛ فإنّ النعمة إذا حدثَتْ حدث لها حُسّاد حَسْبَها، وأعداء قَدْرَها؛ وإنّ الله لم يحدِثْ لنا نعما ليَحْدُثُ لها حساد عليها، ومنافسون فيها، ولكنّه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه، وضمّ القاصية إليه، فأتانا عن أناس منكم أنّهم يقولون: أخذ فيئنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا، يمشون خَمَرًا[1]، وينطقون سِرًّا؛ كأنّا غُيَّب عنهم، وكأنّهم يهابون مواجهتنا؛ معرفةً منهم بدُحوض حجّتهم؛ فإذ غابوا عنّا يرُوح بعضهم إلى بعض بذكرنا. وقد وجدوا على ذلك أعوانا من نظرائهم، ومؤازرين من شبابهم، فبعدًا بعدًا! ورغما رغما. ثم أنشد بيتين كأنه يومئ فيهما إلى عليّ عليه السلام:

توقّد بنارٍ أينما كُنتَ واشتعلْ ... فلستَ ترى مما تعالج شافيـــا

تشطُّ فيقضي الأمرَ دونك أهلُه ... وشيكاً، ولا تُدعَى إذا كنت نائيا

مالي ولفيئكم وأخذ مالكم. ألستُ من أكثر قريش مالاً، وأظهرهم من الله نعمة. ألم أكنْ على ذلك قبل الإسلام وبعده. وهبُوني بنيتُ منزلًا من بيت المال؛ أليس هو لي ولكم. ألم أقِمْ أموركم، وأني من وراء حاجاتكم! فما تفقدون من حقوقكم شيئا، فلِمَ لا أصنع في الفضل ما أحببت؛ فلِمَ كنتُ إماماً إذًا. ألا وإنّ من أعجب العجب، أنّه بلغني عنكم أنكم تقولون: لنفعلنّ به ولنفعلنّ. فبِمَنْ تفعلون، لله آباؤكم. أبنَقَد البقاع، أم بفقع القاع! ألست أحراكم إن دعا أن يُجاب؛ وأقمنَكم إن أمرَ أنْ يُطاع.

---

(١) في اللسان: «هو يدب له الضراء، ويمشي له الخمر»، يقال لمن ختل صاحبه.

لهنّى عَلَى بقائى فيكم بعد أصحابى ، وحياتى فيكم بعد أترابى ! يا ليتنى تقدّمت قبل هذا ، لكنّى لا أحبُّ خلاف ما أحبه الله لى عزّ وجلّ ! إذا شئتم فإن الصادق المصدّق محمدا صلى الله عليه وسلم قد حدّثنى بما هو كائن من أمرى وأمركم ، وهذا بدء ذلك وأوّله ، فكيف الهرب مما حتّم وقدّر ! أما إنّه عليه السلام قد بشّرنى فى آخر حديثه بالجنّة دونكم، إذا شئتمْ فلا أفلح من ندِم !

قال : ثم همّ بالنزول فبصُر بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعه عمّار بن ياسر رضى الله عنه ، وناسٌ من أهل هواه يتناجون ؛ فقال : إيهاً إيهاً ! أسراراً لا جهاراً ! أما والذى نفسى بيده ما أحنق عَلَى جِرّة ، ولا أوتَى من ضعف مِرّة ! ولولا النظر لى ولكم والرّفق بى وبكم ، لعاجلتكم ؛ فقد اغتررتم ، وأقلتم من أنفسكم .

ثم رفع يديه يدعو ويقول : اللهمّ قد تعلم حُبّى للعافية فألبسنيها ، وإيثارى للسلامة فآتنيها .

قال : فتفرّق القوم عن علىّ عليه السلام ، وقام عدىّ بن الخيار ؛ فقال : أتمّ الله عليك يا أميرَ المؤمنين النعمة ، وزادك فى الكرامة ، والله لأن تُحْسَد أفضلُ من أن تَحسُد ؛ ولأن تُنافَس أجلّ من أن تنافِس ! أنت والله فى حَسَبِنا الصميم ، ومنصبنا الكريم ؛ إن دَعَوتَ أُجِبت ؛ وإن أمرت أُطعت ، فقل نفعل ، وادعُ نُجِبْ ؛ جُعِلتِ الخِيَرة والشّورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختارُوا لهم ولغيرهم ، وإنهم ليرون مكانك ، ويعرفون مكان غيرك ؛ فاختاروك منيبين طائعين ، غير مكرهين ولا مجبّرين ، ما غيّرت ولا فارقت ، ولا بدّلت ولا خالفت ؛ فعلامَ تقدمون عليك وهذا رأيهم فيك ! أنت والله كما قال الأول :

اذهب ، إليك فما للحسو د إلّا طلابُك تحت العثار

حكمْتَ فما جُرْتَ في خَلّةٍ فحكمُك بالحق بادى المنار
فإن يسبّعوك فسِرًّا وقَدْ جَهَرْتَ بسيفك كلَّ الجهار (١)

* * *

قال : ونزل عثمان فأتى منزله ، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس ، فلما أخذوا مجالسهم، أقبل على ابن عباس ، فقال : مالى ولكم يابن عباس ! ما أغراكم بى ، وأولعكم بتعقب أمرى ! أتنقمون علىَّ أمرَ العامة ! أتيتُ من وراء حقوقهم ، أم أمركم ! فقد جعلتُهم يتمنّون منزلتكم ! لا والله لكن الحسد والبغى وتثوير الشرّ وإحياء الفتن! والله لقد ألقى النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ ذلك ، وأخبرنى به عن أهله واحداً واحداً ، والله ما كَذَبت ولا أنا بمكذوب .

فقال ابن عباس: على رِسْلِك يا أمير المؤمنين ، فوالله ما عهدتك جَهراً بسرك ، ولا مظهراً مافى نفسك ، فما الذى هيّجك وثوّرك إنا لم يولعنا بك أمر، ولم نتعقب أمرك بشىء، أتيتَ بالكذب ، وتُسَوَّف عليك بالباطل . والله مانقمنا عليك لنا ولا للعامة، قد أوتيتَ من وراء حقوقنا وحقوقهم ، وقضيتَ ما يلزمك لنا ولهم ، فأما الحسد والبغى وتثوير الفتن ، وإحياء الشرّ فمتى رضيتْ به عِتْرة النبىّ وأهل بيته ! وكيف وهم منه وإليه! على دين الله يثوّرون الشرّ، أم على الله يجبون الفتن ، كلا ليس البغى ولا الحسد من طباعهم . فاتَّئِدْ يا أميرَ المؤمنين وأبصِرْ أمرك ، وأمسك عليك! فإن حالتك الأولى خير من حالتك الأخرى ! لعمرى أن كنتَ لأثيراً عند رسول الله، وأن كان ليفضى إليك بسره مايطويه عن غيرك ،ولا كَذَبت ولا أنت بمكذوب؛ أخْسَأ (٢) الشيطان عنك ولا يركبك ، واغلب غضبَك ولا يغلبك ،فما دعاك إلى هذا الأمر الذى كان منك !

قال : دعانى إليه ابنُ عمّك علىّ بن أبى طالب ، فقال ابن عباس : وعسَى أن يكذِبَ مبلِّغُك ! قال عثمان : إنه ثقة ، قال ابن عباس : إنه ليس بثقةٍ مَنْ بلّغ وأغرى . قال عثمان : يا بن عباس ، آلله إنك ما تعلم من علىّ ما شكوتُ منه ؟ قال : اللهم لا ، إلا أن يقول كما يقول الناس ، وينقِم كما ينقمون ؛ فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم ؟ فقال عثمان : إنما آفتى من أعظم الداء الذى ينصب نفسه لرأس الأمر ، وهو علىّ ابن عمك ، وهذا والله كلّه من نكده وشؤمه . قال ابن عباس : مهلاً ، استثن يا أمير المؤمنين ، قلْ : إن شاء الله ، فقال : إن شاء الله . ثم قال : إنى أنشدك يابن عباس الإسلام والرَّحِم فقد والله غلبت وابتليت بكم ، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دونى فحملتموه عنى ، وكنت أحدَ أعوانكم عليه ، إذاً والله لوجدتمونى لكم خيراً مما وجدتكم لى ، ولقد علمتُ أنّ الأمر لكم ، ولكنّ قومَكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم ، فو الله ما أدرى أدفعوه عنكم أم دفعوكم عنه ؟

قال ابن عباس : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإنا ننشدك اللهَ والإسلامَ والرَّحِم ، مثل ما نشدتنا ، أن تطمع فينا وفيك عدوًّا ، وتشمت بنا وبك حسوداً ؛ إنّ أمرك إليك ما كان قولاً ؛ فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا فى يدك ، وإنا والله لنخالفنّ إن خولفنا ، ولننازعنّ إن نوزعنا ؛ وما تمنيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس ، ويعيب كما عابوا ! فأما صرف قومنا عنا الأمر فمن حسدٍ قد والله عرفته ، وبغى قد والله علمته ، فاللهُ بيننا وبين قومنا ! وأما قولك : إنك لا تدرى أدفعوه عنا أم دفعونا عنه ! فلعمرى إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلا إلى فضلنا ، ولا قدراً إلى قدرنا ، وإنا لأهلُ الفضل وأهل القدر ، وما فَضَل فاضلٌ إلا بفضلنا ، ولا سبَق سابق إلا بسبقنا ؛ ولولا هدينا ما اهتدى أحد ، ولا أبصرُوا من عمًى ، ولا قصدوا من جَوْر .

فقال عثمان : حتى متى يابن عباس، يأتينى عنكم ما يأتينى ! هبونى كنتُ بعيداً ، أما كان لى من الحق عليكم أن أراقب وأن أناظر ! بلى وربّ الكعبة ، ولكنّ الفرقة

سهمّات لكم القول فيّ ، وتقدّمت بكم إلى الإسراع إليّ . والله المستعان .

قال ابنُ عباس : مهلا ، حتى ألقى عليّاً ثم أحول إليك على قَدْر ما رأى . قال عثمان : افعل فقد فعلت ، وطالما طلبت فلا أطلب[1] ، ولا أجاب ولا أعتب .

قال ابن عباس : فخرجت فلقيتُ عليّاً ، وإذا به من الغضب والتلظّى أضعاف ما بعثمان ، فأردتُ تسكينه فامتنع ، فأتيتُ منزلى وأغلقت بابى ، واعتزلتهما .

فبلغ ذلك عثمان ، فأرسل إليّ ، فأتيته وقد هدأ غضبُه ، فنظر إليّ ثم ضحك ، وقال : يابن عباس ، ما أبطأ بكَ عنّا ! إن تركك العَوْد إلينا لدليلٌ على مارأيت عند صاحبك ، وعرفت من حاله ، فالله بيننا وبينه ! خُذْ بنا فى غير ذلك .

قال ابن عباس : فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن عليّ شىء ، فأردتُ التكذيب عنه يقول : ولا يوم الجمعة حين أبطأتَ عنّا وتركتَ العوْد إلينا ! فلا أدرى كيف أردّ عليه .

* * *

وروى الزُّبيرُ بن بكار أيضا فى الموفّقيات ، عن ابن عباس رحمه الله ، قال : خرجتُ من منزلى سَحَراً أسابق إلى المسجد ، وأطلب الفضيلة ، فسمعت خلْفى حِسّاً وكلاماً ، فتسمّعتهُ فإذا حِسُّ عثمان وهو يدعو ولا يرى أن أحداً يسمعه ، ويقول : اللهمّ قد تعلم نيّتى فأعنّى عليهم ، وتعلم الذين ابتليتُ بهم من ذَوِى رَحِمى وقرابتى ، فأصلحْنى لهم ، وأصلحهم لى .

قال : فقصّرْتُ من خطوتى وأسرع فى مشيته ، فالتقينا فسلّم ، فرددت عليه ، فقال : إنى خرجت ليلتنا هذه أطلب الفَضْل والمسابقة إلى المسجد ، فقلت : إنه أخرجنى ما أخرجك ، فقال : والله لئن سابقتَ إلى الخير ، إنّك لمن سابقين مباركين ، وإنى لأحبُّكم وأتقرب إلى الله بحبّكم ، فقلت : يرحمك الله يا أميرَ المؤمنين ! إنّا لنحبُّك ونعرف سابقتك وسنّك وقرابتك وصهرك . قال : يابن عباس ، فما لى ولابن عمّك وابن خالى ! قلت : أىّ بنى عمومتى وبنى أخوالك ؟ قال : اللهم اغفر ! أتسأل مسألة الجاهل !

(١) أطلب فلان فلانا ، أجابه إلى طلبه .

قلت: إن بنى عم من بنى خؤولتك كثير، فأيهم تعنى؟ قال: أعنى عليًّا لا غيره، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم منه إلا خيراً، ولا أعرف له إلا حسناً. قال: والله بالحرى أن يستر دونك ما يظهره لغيرك، ويقبض عنك ما ينبسط به إلى سواك.

قال: ورُمينا بعمار بن ياسر، فسلَّم، فرددت عليه سلامه، ثم قال: مَنْ معك؟ قلت: أمير المؤمنين عثمان، قال: نعم، وسلَّم بكنيته، ولم يسلِّم عليه بالخلافة، فردّ عليه، ثم قال عمار: ما الذى كنتم فيه، فقد سمعت ذَرْواً[1] منه؟ قلت: هو ما سمعت، فقال عمار: رُبَّ مظلوم غافل، وظالم متجاهل! قال عثمان: أما إنك من شُنَّائنا وأتباعهم، وايمُ الله، إنّ اليدَ عليك لمنبسطة، وإنّ السبيل إليك لَسهلة، ولولا إيثار العافية؛ ولمّ الشَّعث لزجرتُك زجرةً تكفى ما مضى، وتمنع ما بقى.

فقال عمار: والله ما أعتذر من حبى عليًّا، وما اليدُ بمنبسطة، ولا السبيلُ بسهلة؛ إنى لازم حجّة، ومقيم على سنّة، وأما إيثارك العافية ولمّ الشعث، فلازم ذلك. وأما زجرى فأمسك عنه، فقد كفاك معلمى تعليمى. فقال عثمان: أما والله إنك ما علمتُ من أعوان الشرّ الحاضّين عليه، الخذلة عند الخير، والمثبطين عنه. فقال عمار: مهلا يا عثمان، فقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يصفنى بغير ذلك، قال عثمان: ومتى؟ قال: يوم دخلتُ عليه منصرفَهُ عن الجمعة، وليس عنده غيرك، وقد ألقى ثيابه، وقعد فى فُضُلِه[2]، فقبّلتُ صدره ونحره ووجهه، فقال: «يا عمار، إنك لتحبّنا وإنّا لنحبك، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبطين عن الشرّ»، فقال عثمان: أجل ولكنك غيّرت وبدّلت، قال: فرفع عمار يده يدعو، وقال: أمِّنْ يابنَ عباس، اللهمّ مَنْ غيّر فغيّر به! ثلاث مرات.

قال: ودخلنا المسجدَ، فأهوى عمار إلى مصلّاه، ومضيتُ مع عثمان إلى القبلة،

---

(١) الذرو: الطرف من القول.

(٢) الفضل: الثوب يلبسه الرجل فى بيته.

فدخل المحراب ، وقال : نابَتْ عليّ إذا انصرفنا ، فلما رآني عمّار وحدي أتاني ، فقال : أما رأيتَ ما بلغ بي آنفا ؟ قلت : أما والله لقد أصبتَ به وأُصيب بك ، وإن له لسنّه وفضلَه وقرابته ، قال : إنّ له لذلك ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه . وانصرف .

وصلّى عثمان ، وانصرفت معه يتوكّأ عليّ ، فقال : هل سمعتَ ما قال عمّار ؟ قلت : نعم ، فسرّني ذلك وساءني ، أمّا مساءته إيّاي فما بلغ بك ، وأمّا مسرّته لي فحلمك واحتمالُك . فقال : إن عليًّا فارقني منذ أيام على المقاربة ، وإن عمّارا آتيه فقائل له وقائل ؛ فابدُره إليه ، فإنك أوثق عنده منه وأصدق قولًا ، فألق الأمرَ إليه على وجهه ، فقلت : نعم .

وانصرفت أريد عليًّا عليه السلام في المسجد ، فإذا هو خارج منه ، فلمّا رآني تفجّع لي من فوْت الصّلاة ، وقال : ما أدركتَها ؟ قلت : بلى ؛ ولكنّي خرجت مع أمير المؤمنين ، ثم اقتصصتُ عليه القصّة ، فقال : أما والله يا بنَ عباس ، إنه ليقرف قَرْحةً ، ليحورَنّ عليه ألمها[1] فقلت : إن له سنّه وسابقته ، وقرابته وصهره ، قال : إنّ ذلك له ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه .

قال : ثم رهقنا[2] عمّار ، فبشّ به عليّ ، وتبسّم في وجهه ، وسأله ، فقال عمّار : يابن عباس ، هل ألقيت إليه ما كنّا فيه ؟ قلت : نعم ؛ قال : أما والله إذاً لقد قلتَ بلسان عثمان ، ونطقت بهواه ! قلتُ : ماعدوتُ الحقّ جهدي ؛ ولا ذلك من فعلي ؛ وإنك لتعلم أيّ الحظّين أحبّ إليّ ، وأيّ الحقّين أوجبُ عليّ !

قال : فظنّ عليّ أنّ عند عمار غيرَ ما ألقيتُ إليه ، فأخذ بيده وترك يدي ، فعلمت أنه يكره مكاني ، فتخلّفت عنهما ، وانشعب بنا الطريق ، فسلكاه ولم يدعُني ، فانطلقتُ إلى منزلي ، فإذا رسول عثمان يدعوني ، فأتيتُه ، فأجد ببابه مرْوان وسعيد بن العاص ،

---

(١) يقال : قرف القرحة ، أي قشرها بعد يبسها ؛ وليحورن : ليرجعن .

(٢) رهقنا : غشينا .

في رجال من بني أمية ، فأذن لي والطلق ، وقربني وأدنى مجلسي ، ثم قال : ماصنعت؟ فأخبرته بالخبر على وجهه وماقال الرجل ، وقلت له ـ وكتمته قوله : « إنه ليعرف قرحة ليحورن عليه ألمها » ـ إبقاء عليه ، وإجلالاً له ؛ وذكرتُ مجيء عمار ، وبش علي له ، وظني على أن قبله غير ما ألقيت عليه ، وسلوكهما حيث سلكا . قال : وفعلا ؟ قلت : نعم. فاستقبل القبلة ، ثم قال : اللهم رب السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم؛أصلح لي عليًّا ، وأصلحني له ! أمِنْ يابن عباس ، فأمنت. ثم تحدثنا طويلا،وفارقته وأتيت منزلي .

* * *

وروى الزبير بن بكار أيضا في الكتاب المذكور ، عن عبد الله بن عباس ، قال : ماسمعتُ من أبي شيئاً قط في أمر عثمان يلومه فيه ولا يعذره ، ولا سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على مالا يوافقه ؛ فإنا عنده ليلة ونحن نتعشى ، إذ قيل : هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب،فقال : ائذنوا له،فدخل فأوسع له على فراشه،وأصاب من العشاء معه ، فلما رُفع قام مَنْ كان هناك ، وثبت أنا . فحمد عثمان الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ياخالُ ، فإني قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك علي؛ سبني ، وشهر أمري ، وقطع رحمي ، وطعن في ديني ؛ وإني أعوذ بالله منكم يابني عبد المطلب ! إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه ، فقد تركتموه في يدي ، مَن فعل ذلك بكم ،وأنا أقربُ إليكم رحما منه ! وما لمت منكم أحداً إلا عليًّا ، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه ، فتركته لله والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه .

قال ابن عباس : فحمد أبي الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يابن أختي،فإن كنتَ لا تحمد عليًّا لنفسك فإني لا أحمدك لعلي ، وما عليٌّ وحده قال فيك ، بل غيره ؛ فلو أنك

اتهمت نفسك للناس، اتّهم الناس أنفسهم لك؛ ولو أنك نزلتَ بما رُقيت وارتقوا بما نَزلوا، فأخذتَ منهم وأخذوا منك ، ما كان بذلك بأس . قال عثمان : فذلك إليك ياخال ، وأنت بيني وبينهم . قال : أفأذكر لهم ذلك عنك ؟ قال : نعم ، وانصرف ؛ فما لبِثنا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رَجع بالباب ، قال أبي : ائذنوا له ، فدخل فقام قائماً ، ولم يجلس ، وقال : لا تعجل ياخال حتى أوذنك ، فنظرنا فإذا مروان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول ، فأقبل عليّ أبي ، وقال : يابنيّ ، ما إلى هذا من أمره شيء ، ثم قال : يابنيّ ، املك عليك لسانك حتى ترى مالابدّ منه ؛ ثم رفع يديه ، فقال : اللهمّ اسبق بي مالا خير لي في إدراكه . فما مرت جمعة حتى مات رحمه الله .

***

وروى أبو العباس المبرد في « الكامل » عن قنبر مولى عليّ عليه السلام قال: دخلت مع عليّ على عثمان ، فأحبَّا الخلوة ، فأومأ إليّ عليّ عليه السلام بالتنحّي ، فتنحّيت غير بعيد ، فجعل عثمان يعاتبه وعليّ مطرق ، فأقبل عليه عثمان ، وقال : مالك لاتقول ؟ قال : إن قلتُ لم أقل إلا ماتكره ، وليس لك عندي إلا ماتحب .

قال أبو العباس : تأويلُ ذلك : إن قلتُ اعتددت عليك بمثل ما اعتددتَ به عليّ ، فلذَعك عتابي ، وعقدي ألّا أفعل ــ وإن كنت عاتبا ــ إلا ماتحبّ [1] .

وعندي فيه تأويل آخر ؛ وهو: أني إن قلت واعتذرت فأيّ شيء حسّنته من الأعذار لم يكن ذلك عندك مصدَّقا ، ولم يكن إلا مكروها غير مقبول ؛ والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندي في باطني وما أطوي عليه جوانحي إلّا ماتحبّ، وإن كنتَ لاتقبل المعاذير التي أذكرها ، بل تكرهها وتنبو نفسك عنها .

***

(١) الكامل ١ : ١٣

وروى الواقدى فى كتاب " الشورى " عن ابن عباس رحمه الله ، قال : شهدت عِتاب عثمان لعلىّ عليه السلام يوماً ، فقال له فى بعض ما قاله : نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً ! فلعهدى بك وأنت تطيع عتيقا وابن الخطاب طاعتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولستُ بدون واحد منهما ، وأنا أمسّ بك رَحِماً ، وأقرب إليك صهرا ، فإن كنتَ تزعم أن هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فقد رأيناك حين تُوفّى نازعتَ ثم أقررت ، فإن كانا لم يركبا من الأمر جَدَداً ، فكيف أذعنت لهما بالبَيْعة ، وبَخَعْتَ بالطاعة ! وإن كانا أحسنا فيما وليا ، ولم أقصر عنهما فى دينى وحسبى وقرابتى ، فكن لى كما كنت لهما .

فقال علىّ عليه السلام : أما الفرقة ، فمعاذ الله أن أفتح لها بابا ، وأسهل إليها سبيلا ، ولكنى أنهاك عما ينهاك الله ورسوله عنه ، وأهديك إلى رشدك ، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذا ما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ، فأنت أعلم بذلك والمسلمون ، ومالى ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين ! فأما ألا يكون حقى بل المسلمون فيه شرعٌ فقد أصاب السهم الثُّغْرة[1] ، وأما أن يكون حقى دونهم فقد تركتُه لهم ، طبت به نفسا ، ونفضت يدى عنه استصلاحا . وأما التسوية بينك وبينهما ، فلستَ كأحدهما ، إنهما وليا هذا الأمر ، فظلفا[2] أنفسهما وأهلهما عنه ، وعُمْتَ فيه وقومك عَوْم السابح فى اللُّجة ، فارجع إلى الله أبا عمرو ، وانظر هل بقى من عُمرك إلا كظِمْء الحمار[3] ! فحتى متى وإلى متى ! ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم ! والله لو ظَلَمَ عاملٌ من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركا بينه وبينك .

قال ابن عباس : فقال عثمان : لك العتبَى ، وأفعل وأعزِلُ من عمالى كلَّ مَنْ تكرهه

---

(١) الثغرة : نقرة النحر بين الترقوتين . (٢) ظلفا أنفسهما ، أى كفا .

(٣) يقال : ما بقى منه من ظِمْء الحمار ؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير ؛ لأنه ليس شىء أقصر ظمأ من الحمار ، والكلام على المثل .

ويكرهه المسلمون ؟ ثم افترقا . فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك ، وقال : يجترئ عليك الناس ، فلا نعزل أحدا منهم !

* * *

وروى الزبير بن بكار أيضاً في كتابه ، عن رجال أسندَ بعضهم عن بعض ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال : أرسل إليّ عثمان في الهاجرة[1] ، فتقنّعت بثوبي ، وأتيته ، فدخلت عليه وهو على سريره ، وفي يده قضيب ، وبين يديه مال دَثْر[2] : صُبْرتان من ورِق وذهب ، فقال : دونك خُذ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتني . فقلت : وصلتك رَحِم ! إن كان هذا المال ورثته ، أو أعطاكه معطٍ ، أو اكتسبته من تجارة ؛ كنتُ أحدَ رجلين : إما آخذ وأشكر ، أو أوفّر وأجْهَد ، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل ، فوالله مالك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه . فقال : أبيتَ والله إلا ما أبيتَ . ثم قام إليّ بالقضيب فضربني ، والله ما أردّ يده ، حتى قضى حاجته ، فتقنّعت بثوبي ، ورجعت إلى منزلي ، وقلت : الله بيني وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيتك عن منكر !

* * *

وروى الزبير بن بكّار ، عن الزهري ، قال : لما أُتِيَ عمرُ بجوهر كسرى ، وضع في المسجد ، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر ، فقال لخازن بيت المال : وَيْحك ! أرِحْني من هذا ، واقسِمه بين المسلمين ، فإن نفسي تحدّثني أنه سيكون في هذا بلاء وفتنة بين الناس ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ قسمته بين المسلمين لم يسعهم ، وليس أحد يشتريه لأن ثمنه عظيم ، ولكن ندعه إلى قابل ، فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمالٍ فيشتريه منهم من يشتريه . قال : ارفعه فأدخله بيتَ المال .

وقُتِل عمر وهو بحاله ، فأخذه عثمان لما ولِّي الخلافة فحلّى به بناته .

---

(١) الهاجرة : نصف النهار في القيظ . (٢) الدثر : المال الكثير .

قال الزبير : فقال الزهري : كلٌّ قد أحسن ؛ عمر حين حرّم نفسَه وأقاربه ، وعثمان حين وصل أقاربَه .

* * *

قال الزّبير . وحدّثنا محمد بن حرب ، قال : حدّثنا سفيان بن عُيَينة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، قال : جاء رجل إلى عليّ عليه السلام يستشفع به إلى عثمان ، فقال : حمّال الخطايا ! لا والله لا أعود إليه أبداً . فآيسه منه .

* * *

وروى الزبير أيضا ، عن شداد بن عثمان ، قال : سمعت عوف بن مالك في أيام عمر ، يقول : ياطاعون خذني ، فقلنا له : لم تقول هذا ! وقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ المؤمن لا يزيدُه طول العمر إلا خيراً » ، قال : إني أخاف ستًّا : خلافةَ بني أمية ، وإمارة السّفهاء من أحداثهم ، والرَّشوة في الحكم ، وسفْكَ الدم الحرام ، وكثرة الشُّرَط ، ونَشْأً ينشأ ، يتخذون القرآن مزامير .

* * *

وروى الزّبير عن أبي غسّان ، عن عمر بن زياد ، عن الأسود بن قيس ، عن عبيد بن حارثة ، قال : سمعت عثمان وهو يخطب ، فأكبّ الناس حوله ، فقال : اجلسوا يا أعداء الله ! فصاح به طلحة : إنهم ليسوا بأعداء الله ؛ لكنهم عبادُه ، وقد قرءوا كتابه .

* * *

وروى الزّبير ، عن سفيان بن عيينة ، عن إسرائيل عن الحسن ، قال : شهدتُ المسجد يوم جمعة ، فخرج عثمان ، فقام رجل ، فقال : أنشد كتاب الله ! فقال عثمان : اجلس : أما لكتاب الله ناشدٌ غيرك ! فجلس ، ثم قام آخر فقال مثل مقالته ، فقال : اجلس ، فأبى

أن يجلس ، فبعث إلى الشُّرَط ليُجلسوه ، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه ، قال : ثم ترامَوْا بالبطحاء ؛ حتى يقول القائل : ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء .

فنزل عثمان ، فدخل دارَه ولم يصلِّ الجمعة .

***

[فصل فيما شجر بين عثمان وابن عباس من الكلام بحضرة عليّ]

وروى الزُّبير أيضاً في " الموفقيات " عن ابن عباس رحمه الله ، قال : صلّيت العصر يوماً ، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفّان في أيام خلافته في بعض أزقّة المدينة وحده ، فأتيته إجلالاً وتوقيراً لمكانه ، فقال لي : هل رأيتَ علياً ؟ قلت : خلّفته في المسجد ، فإن لم يكن الآن فيه فهو في منزله ؛ قال : أما منزله فليس فيه ناءيه[1] لنا في المسجد . فوجّهنا إلى المسجد ، وإذا عليٌّ عليه السلام يخرج منه ؛ قال ابن عباس : وقد كنت أمس ذلك اليوم عند عليّ ، فذكر عثمان وتجرّمه عليه ، وقال : أما والله يا بن عباس ، إن من دوائه انقطع كلامه ، وترك لقائه . فقلت له : يرحمك الله ! كيف لك بهذا ! فإن تركته ثم أرسل إليك فما أنت صانع ؟ قال : أعتلّ ؛ وأعتلّ ؛ فمن يقسرني[2] ! قال : لا أحد .

قال ابن عباس : فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد ، ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان ، فنظر إليَّ عثمان ، وقال : يابن عباس ، أما ترى ابنَ خالنا يكره لقاءنا ! فقلت : ولِمَ وحقّك ألزم ، وهو بالفضل أعلم ! فلما تقاربا رماه عثمان بالسلام ، فردّ عليه ، فقال عثمان : إنْ تدخلْ فإيّاك أردنا ، وإن تمضِ فإيّاك طلبنا . فقال عليٌّ : أيّ ذلك أحببتَ ؟ قال : تدخل ، فدخلا وأخذ عثمان بيده ، فأهوى به إلى القِبْلة ، فقصّر عنها ، وجلس قُبالتها ، فجلس عثمان إلى جانبه ، فنكصتُ عنهما ، فدعَوَاني جميعاً ، فأتيتهما ، فحمِد عثمان اللهَ ، وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : أما بعد يا بنيَّ خاليَّ وابنيْ

---

(١) ناءيه : اطلبه .

(٢) كذا في ا ، وفي ب : « يعسرني » .

عنّى ؛ فإذْ جمعتكما فى النداء فسأجمعكما فى الشكاية ،عن رضاى على أحدكما، ووجْدى على الآخر . إنى أستعذركما من أنفسكما ، وأسألكما فيئتكما، وأستوهبكما رجعتكما؛ فوالله لو غالبنى الناس ماانتصرت إلا بكما ، ولو تهضّمونى ماتعزّزت إلّا بعزّكما . ولقدطال هذا الأمرُ بيننا حتى تخوّفت أن يجوزَ قدرَه ، ويعظُم الخطر فيه ؛ ولقد هاجنى العدوّ عليكما، وأغرانى بكما ؛ فمنعنى اللهُ والرحِم مما أراد ، وقد حلوّنا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى جانب قبره ؛ وقد أحببتُ أنْ تظهِرا لى رأيكما فىّ ، وما تنطويان لى عليه وتصدُقا؛ فإنّ الصدق أنجى وأسلم ؛ وأستغفر الله لى ولكما .

قال ابن عباس : فأطرق علىّ عليه السلام، وأطرقت معه طويلا ؛ أمّا أنا فأجللتُهُ أنْ أتكلّمَ قبله ، وأمّا هو فأراد أن أجيب عنّى وعنه . ثم قلت له : أتتكلم أم أتكلم عنك ؟ قال : بل تكلم عنّى وعنك . فحمدت الله وأثنيت عليه ، وصلّيت على رسوله، ثم قلت : أمّا بعد يا بنَ عمّنا وعمّتنا ، فقد سمعنا كلامك لنا ، وخلطك فى الشكاية بيننا على رضـ[illegible] زعمتَ ـ عن أحدنا ووجْدك على الآخر ، وسنفعل فى ذلك، فنذمّك ونحمَدك، اقتداء منك بفعلك فينا ؛ فإنّا نذمّ مثلَ تهمتك إيانا على ما اتّهمتنا عليه بلا ثقة إلّاظنًّا ؛ ونحمَد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتك، ثم نستعذرك من نفسك استعذارك إيانا من أنفسنا ، ونستوهبك فيئتك استيهابك إيانا فيئتنا ونسألك رجعتك مسألتك إيانا رجعتنا؛ فإنا معاً أيّما حمِدت وذممت منا ، كمثلك فى أمر نفسك ؛ ليس بيننا فرق ولا اختلاف ؛ بل كلانا شريك صاحبه فى رأيه وقوله ؛ فوالله ماتعلمنا غير معذرين فيما بيننا وبينك ، ولا تعرِفنا غيرَ قانتين عليك ، ولا تجدُنا غيرَ راجعين إليك ؛ فنحنُ نسألك من نفسك مثل ماسألتنا من أنفسنا . وأمّا قولك :لو غالبنى الناسُ ما انتصرتُ إلاّ بكما ،أوتهضّمونى ماتعززت إلّا بعزّكما ، فأين بنا وبك عن ذلك ، ونحن وأنت كما قال أخو كنانة :

بدا بجُحْرٌ مارام نال ، وإن يُرَمْ   يخُضْ دونه غمراً من الغرّ رائمهْ
لنا ولهم منّا ومنهم على العِدّا   مراتب عزّ مصعدات سلالمهْ

وأما قولك في تهييج العدوّ وإياك علينا ، وإغرائه لك بنا ، فوالله ما أتاك العدوّ من ذلك شيئاً إلا وقد أتانا بأعظمَ منه ؛ فمنعنا مما أرادَ ما منعك من مراقبة الله والرحِم، وما أبقيت أنت ونحن إلاّ على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا ؛ ولقد لعَمْري طال بنا وبك هذا الأمر حتى تخوّفنا منه على أنفسنا ، وراقبنا منه ما راقبت .

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك ، وما نطوِى عليه لك ، فإنّا نخبرك أنَ ذلك إلى ماتحبّ ؛ لا يعلم واحدٌ منامن صاحبه إلاذلك ، ولا يقبل منه غيرَه ، وكلانا ضامنٌ على صاحبه ذلك وكفيلٌ به ، وقد برّأتَ أحدَنا وزكّيته ، وأنطقت الآخر وأسكته ، وليس السقيمُ مِنّا مما كرهت بأنطقَ من البرىء فيما ذكرت ، ولا البرىءُ منا مما سخِطتَ بأظهرَ من السقيم فيما وصفت ؛ فإمّا جمعتَنا في الرضا، وإما جمعتنا في السخط ؛ لنجازيَك بمثل ما تفعل بنا في ذلك ؛ مكايلة الصاع بالصاع ؛ فقد أعلمناك رأينا ، وأظهرنا لك ذاتَ أنفسنا، وصدّقناك ؛ والصدق كما ذكرت أنجى وأسلم ، فأجِبْ إلى مادعوتَ إليه ، وأجْلِلْ عن النقض والغدْرِ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره ، واصدق تنجُ وتَسلم ، ونستغفر الله لنا ولك .

قال ابنُ عباس : فنظر إلى عليّ عليه السلام نظرَ هيْبة ، وقال : دعْهُ حتّى يبلغ رضاه فيما هو فيه ، فوالله لو ظهرت له قلوبُنا ؛ وبدت له سرائرنا ، حتى رآها بعينه كما يسمع الخبرَ عنها بأذنه ،مازال متجرّماً منتقماً ، والله ما أنا ملقًى على وَضَمة[1] ،وإني لمانع ماوراء ظهري ؛ وإن هذا الكلام لمخالفةٌ منه وسوء عشرة .

فقال عثمان : مهلاً أبا حسن ؛ فوالله إنّك لتعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفَني

(١) الوضم في الأصل : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم ؛ وفي المثل : « تركهم لحماً على وضم » ، أي أوقع بهم فأوجعهم .

بخير ذلك يوم يقول وأنت عنده : « إنّ من أصحابي لقوماً سالمين لهم،وإن عثمان لمنهم؛إنّه لأحسنُهم بهم ظناً ، وأنصحهم لهم حباً » . فقال عليٌّ عليه السلام : فتصدّقْ قوله صلى الله عليه وسلم بفعالك ، وخالفْ ماأنت الآن عليه؛فقد قيل لك ماسمعت،وهو كافٍ إن قبلتَ.

قال عثمان: فتثق ياأبا الحسن؟ قال:نعم أثق ولا أظنك إلا فاعلا ، قال عثمان:قدوثقت وأنت ممن لا يُخفِرُ صاحبه ، ولا يكذب لقبله .

قال ابن عباس : فأخذتُ بأيديهما ؛ حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا،ونهضت عنهما؛ فتشاورا وتآمرا وتذاكرا،ثم افترقا؛فوالله مامرّت ثالثة حتى لقيني كلٌ واحدٍ منهما،يذكر من صاحبه مالا تبركُ عليه الإبل . فعلمتُ أن لا سبيل إلى صلحهما بعدها .

• • •

وروى أحمد بن عبدالعزيز الجوهريّ في كتاب " أخبار السقيفة " عن محمد بن قيس الأسدي،عن المعروف بن سويد؛قال : كنت بالمدينة أيام بويع عثمان،فرأيت رجلا في المسجد جالسا ، وهو يُصَفّق(1) بإحدى يديه على الأخرى،والناس حوله،ويقول : واعجباً من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت،معدن الفضل، ونجوم الأرض ، ونور البلاد والله إنّ فيهم لرجلاً مارأيت رجلا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى منه بالحق ، ولا أقضى بالعدل،ولا آمرَ بالمعروف،ولاأنهى عن المنكر،فسألت عنه فقيل:هذا المقداد؛ فتقدّمت إليه ، وقلت:أصلحك الله ! مَن الرجل الذى تذكر؟فقال : ابن عمّ نبيك رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب !

قال:فلبثتُ ماشاءالله ثم إني لقيت أباذرّ رحمه الله،فحدّثته ماقال المقداد،فقال : صدق؛ قلتُ : فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم ! قال:أبى ذلك قومهم ، قلت : فما يمنعكم أن تُعينُوهم ! قال : مه لا تقلْ هذا ، إياكم والفرقة والاختلاف !

(1) صفق : ضرب .

قال : فسكتُّ عنه ، ثمّ كان من الأمر بعدُ ما كان .

* * *

وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ فى الكتاب الذى أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان، أنّ عليًا اشتكى ، فعاده عثمان من شكايته ؛ فقال علىّ عليه السلام :

وعائدةٍ تعودُ لغـــير وُدٍّ   تودّ لو أنّ ذا دَنفٍ يموتُ

فقال عثمان : والله ماأدرى أحياتُك أحبّ إلىّ أم موتك ! إن مِتّ هاضنى فقدُك ، وإن حييت فتنتنى حياتك ، لا أعدم مابقيتَ طاعنا يتّخذك ردِيئة يلجأ إليها .

فقال علىّ عليه السلام : ماالذى جعلنى ردِيئةً للطاعنين العائبين ! إنّما سوء ظنّك بى أحلنى من قلبك هذا المحلّ،فإن كنتَ تخاف جانبى فلك علىّ عهدُ الله وميثاقه أن لا بأس عليك منى ، مابلّ بحرٌ صوفةً [1] ، وإنى لك لراعٍ ، وإنى عنك لحامٍ ؛ ولكن لا ينفعنى ذلك عندك . وأما قولك : « إن فقدى يهيضك » ، فكلاّ أن تُهاض لفقدى،ما بقى لك الوليد ومروان .

فقام عثمان فخرج .

وقد روى أنّ عثمان هو الذى أنشد هذا البيت؛ وقد كان اشتكى،فعاده علىّ عليه السلام فقال عثمان :

وعائدةٍ تعودُ بغير نُصْحٍ   تودّ لو أنّ ذا دَنفٍ يموتُ

* * *

وروى أبو سعد الآبى [2] فى كتابه عن ابن عباس ، قال : وقع بين عثمان وعلىّ

---

(١) من قولهم فى المثل : لا آتيك ما بل بحر صوفة

(٢) هو أبو سعد زين الكفاة منصور بن الحسين الآبى ؛ وزير مجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة ابن بويه ، صاحب كتاب نثر الدرر فى المحاضرات

عليه السلام كلام، فقال عثمان: ما أصنع، إن كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين، كأن وجوههم شُنوف الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم!

وروى المذكور أيضاً أن عثمان لما نقم الناس عليه ما نقموا، قام متوكئاً على مَرْوان فخطب الناس؛ فقال: إنّ لكل أمة آفة، ولكل نعمة عاهة، وإنّ آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النعمة، قوم عيّابون طعّانون، يظهرُون لكم ما تحبّون، ويسرّون ما تكرهون؛ طَغَام مثل النعام، يتّبعُون أوّل ناعق، ولقد نقموا عليّ ما نقموا على عمر مثله، فقمعهم ووقمهم[1] وإني لأقربُ ناصرا، وأعز نفرا، فمالي لا أفعلُ في فضول[2] الأموال ما أشاء!

وروى المذكور أيضاً أنّ عليا عليه السلام اشتكى، فعاده عثمان، فقال: ما أراك أصبحت إلا ثقيلا! قال: أجل، قال: والله ما أدري أموتُك أحبّ إليّ أم حياتُك! إني لأحبُّ موتك، وأكره أن أعيش بعدك، فلو شئت جعلت لنا من نفسك مخرجا، إمّا صديقاً مسالما وإما عدوًّا معالنا، وإنك لكما قال أخو إياد[3]:

جَرَّتْ لما بيننا حبلُ الشَّمُوسِ فلا ... بأساً مبيناً نرى منها ولا طَمَعا

فقال عليّ عليه السلام: ليس لك عندي ما تخاف، وإن أجبتك لم أُجبك إلّا بما تكرهه.

* * *

وكتب عثمان إلى عليّ عليه السلام حين أحيط به، أما بعد: فقد جاوزَ الماءُ الزُّبى، وبلغ الحزامُ الطُّبْيَيْن، وتجاوز الأمر فيّ قدْرَه، فطمع فيّ من لا يدفعُ عن نفسه.

(١) وقمهم: أذلهم.

(٢) فضول الأموال: الزائدة عن الحاجة.

(٣) هو لقيط بن يعمر الإيادي. من قصيدة يحذر بها قومه غزو كسرى إياهم؛ وأولها:

يَادَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الْجَرَعَا ... هَاجَتْ لِيَ الْهَمَّ وَالأَحْزَانَ وَالْوَجَعَا

في مختارات ابن الشجري ١ — ٦.

فإنْ كُنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ وإلَّا فأدركني ولمَّا أُمزَّقِ[1]

* * *

وروى الزُّبير خبر العيادة على وجه آخر قال : مرض عليّ عليه السلام ، فعاده عثمان ومعه مَرْوان بن الحكم ، فجعل عثمان يسأل عليًا عن حاله ، وعليّ ساكتٌ لا يجيبه ، فقال عثمان : لقد أصبحتَ يا أبا الحسن مني بمنزلة الولد العاقّ لأبيه ! إن عاش عقّه ، وإن مات فجعه ؛ فلو جعلتَ لنا من أمرك فَرَجًا ، إما عدوًا أو صديقًا ؛ ولم تجعلنا بين السماء والماء ، أما والله لأنا خيرٌ لك من فلان وفلان ، وإن قُتِلتُ لا تُجد مثلي ، فقال مروان : أما والله لا يُرام ما وراءنا حتى تَتَواصل سيوفُنا ، وتقطع أرحامنا .

فالتفت إليه عثمان ، وقال : اسكتْ لا سكتّ ! وما يُدخلك فيما بيننا !

* * *

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ عن زيد بن أرقم ؛ قال : سمعتُ عثمان وهو يقول لعليّ عليه السلام : أنكرتَ عليّ استعمالَ معاوية وأنت تعلم أن عُمَر استعمله ! قال عليٌّ عليه السلام : نشدتُك الله ! ألا تعلم أنّ معاويةَ كان أطوعَ لعمر من يَرْفا غلامه ! إنّ عمرَ كان إذا استعمل عاملا وطىء على صِماخه ؛ وإنّ القومَ ركبوك وغلبوك ، واستبدُّوا بالأمر دونك . فسكت عثمان .

* * *

[أسباب المنافسة بين عليّ وعثمان]

قلت : حدثني جعفر بن مكي الحاجب رحمه الله ، قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجّاب ــ وقد رأيت أنا محمداً هذا ، وكانت لي به معرفة غير مستحكمة ، وكان ظريفاً

(١) البيت للممزق العبدي ، والمثل في الكامل ١ : ١٧

أديبا ، وقد اشتغل بالرياضيات من الفلسفة ، ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه — قال جعفر : سألتُ عمّا عنده في أمر عليّ وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النَّسب بين عبد شمس وبين بني هاشم ، وقد كان حرب بن أمية نافر عبدَ المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان يحسُد محمداً صلى الله عليه وآله وحاربَه ، ولم تزل القبيلتان متباغضتين وإن جمعتهما المنافية . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج عليا بابنته ، وزوج عثمان بابنته الأخرى ، وكان اختصاص رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة أكثر من اختصاصه لابنته الأخرى ، وللثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى ، واختصاصه أيضا لعليّ وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إيّاه لنفسه ، أكثرَ وأعظمَ من اختصاصه لعثمان فنفّس عثمان ذلك عليه ، فتباعد ما بين قلبيهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختين من مُباغضة أومشاجرة أوكلام ينقُل من إحداهما إلى الأخرى ، فيتكدّر قلبُها على أختها ، ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعلين أيضا ، كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار ؛ وقد قيل : ماقُطع من الأخوين كالزوجتين . ثم اتفق أن علياً عليه السلام قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فتأكّد الشنآن ، وإذا استوحش الإنسانُ من صاحبه استوحش صاحبُه منه . ثم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصبأ إلى عليّ جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ، ولا حضر في دار فاطمة مع مَنْ حضر من المتخلفين عن البيعة ، وكانت في نفس عليّ عليه السلام أمورٌ من الخلافة لم يمكنه إظهارُها في أيام أبي بكر وعمر ، لقوّة عمر وشدته ، وانبساط يده ولسانه ؛ فلما قتل عمر وجعل الأمر شورى بين الستة ، وعدل عبد الرحمن بها عن عليّ إلى عثمان ، لم يملك عليٌّ نفسَه ، فأظهر ما كان كامناً ، وأبدى ما كان مستورا ؛ ولم يزل الأمر يتزايد بينهما ، حتى شرف وتفاقم ؛ ومع ذلك فلم يكن عليّ عليه السلام لينكر من أمره إلا منكرا ، ولا ينهاه إلا كما تقتضي الشريعة نهيه عنه ؛ وكان عثمان مستضعفا في نفسه ، رِخْواً قليل الحزم ، واهيَ العُقدة ، وسلّم عنانه إلى

مروان يصرّفه كيف شاء ؛ الخلافة له فى المعنى ولعثمان فى الاسم . فلما انتقض على عثمان أمرُه ، استصرخ عليًّا ولاذ به ، وألقى زمام أمره إليه ، فدافع عنه حيث لا ينفع الدِّفاع ، وذبّ عنه حين لا يغنى الذّبّ ، فقد كان الأمرُ فسد فساداً لا يُرجى صلاحه .

قال جعفر : فقلت له : أتقول إنّ عليًّا وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجده من خلافة أبى بكر وعمر ؟ فقال : كيف يكون ذلك ؟ وهو فرع لهما ، ولولا هما لم يصل إلى الخلافة ، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ، ولا يخطر له ببال ! ولكن ها هنا أمر يقتضى فى عثمان زيادة المنافسة ، وهو اجتماعهما فى النسب ، وكونهما من بنى عبد مناف ، والإنسانُ ينافس ابن عمّه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد ، ويهون عليه من الأبعد ما لا يهون عليه من الأقرب .

قال جعفر : فقلت له : أفتقول : لو أن عثمان خلع ولم يقتل ؛ أكان الأمرُ يستقيم لعليّ عليه السلام إذا بويع بعد خلعه ؟ فقال : لا ، وكيف يتوهم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حيّ مخلوع أكثر من انتقاضها عليه بعد قتله ، لأنه موجود يُرجى ويتوقع عَوْده ، فإن كان محبوساً عَظُمَ البلاء والخطب ، وهتف الناس باسمه فى كلّ يوم ، بل فى كلّ ساعة ، وإن كان مُخلًّى سِرْبُه ، وممكَّنا من نفسه ، وغير محول بينه وبين اختياره ، لجأ إلى بعض الأطراف ، وذكر أنه مظلوم غُصِبت خلافته ، وقهر على خلع نفسه ، فكان اجتماع الناس عليه أعظمَ ، والفتنة به أشدّ وأغلظ .

قال جعفر : فقلت له : فما تقول فى هذا الاختلاف الواقع فى أمر الإمامة من مبدأ الحال ، وما الذى نظنّه أصله ومنبعه ؟ فقال : لا أعلم لهذا أصلا إلا أمرين : أحدهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهمل أمر الإمامة فلم يصرّح فيه بأحد بعينه ، وإنما كان هناك رَمْزٌ وإيماء ، وكناية وتعريض ، لو أراد صاحبه أن يحتج به وقت الاختلاف وحالَ المنازعة

لم يقم منه صورة حجّة تُغني ، ولا دلالة تصب ونكفي ؛ ولذلك لم يحتج عليٌّ عليه السلام يوم السقيفة بما وردفيه ، لأنه لم يكن نصًّا جليا يقطع العذر ويوجب الحجة ؛ وعادة الملوك إذا تمهّد مُلكهم ، وأرادوا العقد لولد من أولادهم ، أو ثقة من ثقاتهم ، أن يصرحوا بذكره ، ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر ، وبين فواصل الخطب ، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم ، والأقطار النائية منهم ؛ ومن كان منهم ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ، ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك ؛ بحيث تزول الشبهة في أمره ، ويسقط الارتياب بحاله ؛ فليس أمر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصبح في مظنة الاشتباه واللبس ؛ ولعله كان لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك عذر لا نعلمه نحن ؛ إمّا خشية من فساد الأمر، أو إرجاف المنافقين ، وقولهم : إنها ليست بنبوة وإنما هي مُلك به أوصى لذريته وسلالته ؛ ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحًا للقيام بالأمر لصغر السن ، جعله لأبيهم ؛ ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنته ولأولادها منها من بعده .

وأمّا ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : إن الله تعالى علم أن المكلفين يكونون عَلَى ترك الأمر مهملًا غير معيّن أقرب إلى فعل الواجب وتجنّب القبيح . قال : ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم في مرضه أنه يموت في ذلك المرض ، وكان يرجو البقاء فيمهّد للإمامة قاعدة واضحة . ومما يدل عَلَى ذلك أنه لما نوزع في إحضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلّون بعده ، غضب وقال : اخرجوا عني ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرّفهم رشدهم ، ويهديهم إلى مصالحهم ، بل أرجأ الأمر إرجاء من يرتقب الإفاقة ، وينتظر العافية .

قال : فبتلك الأقوال المجمجة ، والكنايات المحتملة ، والرموز المشتبهة، مثل حديث

خَصَفَ النعل ، ومنزلة هارون من موسى ، ومَنْ كنت مولاه ، وهذا يعسوب الدين ، ولا فتى إلّا عليّ ، وأحبّ خلقك إليك ... وماجرى هذا المجرى ، مما لا يفصل الأمر ، ويقطع العذر ويُسكت الخصم ، ويُفحم المنازع ؛ وثَبَت الأنصار فادّعتها ، ووثب بنوهاشم فادّعوها ، وقال أبو بكر : بايعوا عمرَ أو أبا عبيدة ، وقال العبّاس لعلىّ : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم ممن رَغَّب به الدّهرفيما بعد ؛ ولم يكن موجودا حينئذ : إنّ الأمر كان للعباس لأنّه العمّ الوارث ، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقّه ؛ فهذا أحدهما .

وأما السبب الثانى للاختلاف ، فهو جَعْل عمرَ الأمر شورى فى الستّة ، ولم ينصّ على واحد بعينه ؛ إمّا منهم أو من غيرهم ؛ فبقىَ فى نفس كلّ واحد منهم أنه قد رُشّح للخلافة وأهِّل للملك والسلطنة ؛ فلم يزل ذلك فى نفوسهم وأذهانهم مصوّراً بين أعينهم ، مرتسماً فى خيالاتهم ، منازعة إليه نفوسهم ، طامحة نحوه عيونهم ؛ حتى كان من الشقاق بين على وعثمان ما كان ، وحتى أفضى الأمرُ إلى قتل عثمان . وكان أعظم الأسباب فى قتله طلحة ؛ وكان لا يشكّ أنّ الأمر له من بعده ؛ لوجوه ؛ منها سابقته ، ومنها أنه ابن عمّ لأبى بكر ، وكان لأبى بكر فى نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة ، أعظم منها الآن . ومنها أنه كان سَمْحاً جوادا ، وقدكان نازع عمر فى حياة أبى بكر ، وأحبّ أن يفوض أبو بكر الأمرَ إليه من بعده ؛ فما زال يفتل فى الذّروة والغارب فى أمر عثمان ، وينكّر له القلوب ، ويكدّر عليه النفوس ، ويغرى أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به . وساعده الزّبير ؛ وكان أيضا يرجو الأمرَ لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما الأمرَ بدون رجاء علىّ ، بل رجاؤهما كان أقوى ؛ لأنّ عليا دحضه الأوّلان ، وأسقطاه ، وكسرا ناموسه بين الناس ؛ فصار نسياً منسيّا ، ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه التى كانت فى أيام النبوّة وفضله ، ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلا من عُرْض المسلمين ؛ ولم يبق له مما يمتّ به إلّا أنه ابن عمّ الرسول ، وزوج ابنته ، وأبو سِبْطَيْه ، ونُسِىَ ماوراء ذلك كله ؛ واتفق له من بُغْض

قريش وانحرافها مالم يتّفق لأحد ؛ وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحبّ طلحة والزُّبير ، لأنّ الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودةً فيهما ، وكانا يتألّفان قريشا فى أواخر أيام عثمان ؛ ويعدانهم بالعطاء والإفضال ؛ وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوّة لا بالفعل ؛ لأن عمر نصّ عليهما وارتضاهما للخلافة ، وعمر متّبع القول ومرضىّ الفعال ، موفّق مؤيّد مطاع ، نافذ الحكم فى حياته وبعد وفاته ؛ فلما قتِل عثمان ، أرادها طلحة ، وحرّص عليها ، فلولا الأشتر وقوم معه من شُجعان العرب جعلوها فى علىّ لم تصل إليه أبداً ، فلما فاتت طلحة والزبير ، فتقا ذلك الفتق العظيم عَلَى علىّ ، وأخرجا أمّ المؤمنين معهما ، وقصدا العراق ، وأثارا الفتنة ؛ وكان من حرب الجمل ماقد علم وعرف ، ثم كانت حرب الجمل مقدّمةً وتمهيدا لحرب صِفّين ؛ فإنّ معاوية لم يكن ليفعل مافعل ، لولا طمعُه بماجرى فى البصرة ، ثم أوهم أهلَ الشام أنّ عليًّا قد فسق بمحاربة أم المؤمنين ، ومحاربة المسلمين ، وأنه قتل طلحة والزبير ، وهما من أهل الجنة ، ومَنْ يقتل مؤمنا من أهل الجنّة فهو من أهل النار ، فهل كان الفساد المتولد فى صِفّين إلا فرعا للفساد الكائن يوم الجمل ! ثم نشأ مِن فساد صِفّين وضلال معاوية كلّ ماجرى من الفساد والقبيح فى أيام بنى أمية ، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاًمن فروع يوم الدار ، لأن عبد الله كان يقول : إنّ عثمان لما أيقن بالقتل نصّ علىّ بالخلافة ؛ ولى بذلك شهود ، ومنهم مروان بن الحكم أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعاً عَلَى أصل ، وغصنا من شجرة ، وجَذْوة من ضِرام ! هكذا يدور بعضه عَلَى بعض ، وكله من الشورى فى الستة .

قال : وأَعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له : إنك استعملت يزيد بن أبى سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلانا من المؤلّفة قلوبهم من الطُّلَقاء وأبناء الطلقاء ، وتركت أنْ تستعمل عليًّا والعباس والزبير وطلحة ! فقال : أمّا علىّ فأنبَهُ من ذلك ، وأما هؤلاء النفر

من قريش ، فإنى أخاف أن ينتشروا فى البلاد ، فيُكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأمرهم لئلا يطمعوا فى الملك ، ويدّعيه كلّ واحدٍ منهم لنفسه ، كيف لم يخَفْ من جعلهم ستة متساوين فى الشورى ، مرشّحين للخلافة ! وهل شىء أقربُ إلى الفساد من هذا ! وقد روى أنّ الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان ؛ فسرّ بذلك ، فلما غابا عن عينه بكى ، فقال له الفضل بن الربيع : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، وهذا مقامُ جَذَل لا مقام حُزْن ؟ فقال : أما رأيتَ لعبهما ومودّة بينهما ؟ أما والله ليتبدلَنّ ذلك بغضاً وشَنَفاً[1] وليختلسنّ كلّ واحد منهما نَفْس صاحبه عن قريب ، فإن الملك عقيم . وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما عَلَى ترتيب ، هذا بعد هذا ؛ فكيف مَنْ لم يرتّبوا فى الخلافة ، بل جعلوا فيها كأسنان المشط !

فقلت أنا لجعفر : هذا كلّه تحكيه عن محمد بن سليمان ، فما تقول أنت ؟ فقال :

إذَا قالتْ حَـــــذامِ فَصدِّقُوها   فإنّ القَوْلَ ما قالتْ حذامِ[2]

---

(١) الشنف : المكره .

(٢) قبله :

فلولا المُزْعِجاتُ مِنَ اللّيَالِى   لمَا تَرَكَ القَطَا طِيبَ المَنَـــامِ

نسبهما صاحب اللسان (فى رقش) لجيم بن صعب .

(١٣٦)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً ، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلّٰهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَايْمُ اللّٰهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ، حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً .

الشَّـرْحُ :

الفَلْتة : الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة ؛ وفى الكلام تعريض ببيعة أبى بكر ؛ وقد تقدّم لنا فى معنى قول عمر : « كانت بيعة أبى بكر فَلْتة وقى الله شرّها » كلام .

والخزامة : حلقة من شعر تُجعَل فى أنف البعير ، ويُجعل الزمام فيها .

وأعينونى على أنفسكم : خذوها بالعدل ، واقمعوها عن اتّباع الهوى ، واردَعُوها بعقولكم عن المسالك التى تُرْدِيها وتوبِقها ، فإنكم إذا فعلتم ذلك أعنتمونى عليها ؛ لأنى أعظكم وآمركم بالمعروف ، وأنهاكم عن المنكر ؛ فإذا كبحتُم أنفسكم بلجام العقل الداعى إلى ما أدعو إليه ؛ فقد أعنتمونى عليها .

فإن قلت : ما معنى قوله : « أريدكم لله وتريدوننى لأنفسكم » ؟

قلت : لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصرة دين الله والقيام بحدوده وحقوقه ؛ ولا يريدهم لحظّ نفسه ، وأمّا هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب ، والأسباب الموصّلة إلى منافع الدنيا .

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه ؛ فأمّا الخواص منهم فإنّهم كانوا يريدونه للأمر الذى يريدهم له من إقامة شرائع الدين وإحياء معالمه .



(١٣٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام فى شأن طلحة والزبير :

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ؛ فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ[1] عَلَيَّ.

وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ. وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ؛ لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ.

* * *

الشرح :

النِّصْفُ : الإنصاف، قال الفرزدق :

ولـــكنّ نِصْفاً لو سببتُ وسبّني بنو عبدِ شمسٍ مِنْ قُرَيشٍ وَهَاشِمِ[2]

وهو على حذف المضاف؛ أى ذا نِصف، أى حكَمًا منصفا عادلا يحكم بينى وبينهم.

والطَّلِبة : بكسر اللام : ما طلبتَه من شىء. ولبَسْت على فلان الأمر، ولُبِس عليه الأمر، كلاهما بالتخفيف.

---

(١) مخطوطة النهج بتشديد الباء. (٢) اللسان ١١ : ٢٤٦.

والحمأ : الطين الأسود ، قال سبحانه : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[1].

وحُمَة العقرب : سمها ، أى فى هذه الفئة الباغية الضلالُ والفساد والضرر ؛ وإذا أرادت العربُ أن تعبّر عن الضلال والفساد قالت : الحَمْء ، مثل الحمأة بالتاء ؛ ومن أمثالهم : « ثَأْطَةٌ مُدَّتْ بماء »[2] ؛ يُضرب الرجل يشتدّ مُوقه وجهله ؛ والثَّأْطة : الحمأة ، وإذا أصابها الماء ازدادت فسادا ورطوبة .

ويروَى فيها : « الحما » بألف مقصورة . وهو كناية عن الزُّبير ، لأن كل ما كان بسبب الرجل فهم الأحماء ؛ واحدهم « حما » مثل قفا وأقفاء ، وما كان بسبب المرأة فهم الأختان ؛ فأما الأصهار فيجمع الجهتين جمعا . وكان الزُّبير ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وآله أعلمَ عليًّا بأنّ فئة من المسلمين تبغى عليه أيّام خلافته ، فيها بعضُ زوجاته وبعض أحمائه ، فكنّى عليٌّ عليه السلام عن الزّوجة بالحُمَة وهى سمّ العقرب ، ويروى : « والحَمْء » يضرب مثلا لغير الطيّب ولغير الصافى ؛ وظهر أنّ الحَمْء الذى أخبر النبى صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزّبير ابنُ عمته . وفى الحما أربع لغات : حَمًا مثل قفا ، وحَمْء مثل كَمْء ، وحَمُو مثل « أبو » ، وحم مثل أب .

قوله عليه السلام : « والشّبهة المغدِفة » أى الخفيّة ، وأصله المرأة تُغْدِف وجهها بقناعها ، أى تستره . ويروى : « المُغدِفة »[3] بكسر الدال ، من أغدف الليل ، أى أظلم .

وزاح الباطل ، أى بَعُد وذهب ، وأزاحه غيره .

وعن نصابه : عن مركزه ومقرّه ، ومنه قول بعض المحدَثين :

قد رجــــع الحقُّ إلى نصابه ... وأنت من دون الورى أولَى بِهِ

والشَّغْب ، بالتسكين : تهييج الشرّ ، شَغَب الجند بالفتح شَغْبا ، وقد جاء بالتحريك فى لغة ضعيفة ، وماضيها شغِب ، بالكسر .

(١) سورة الحجر ٢٦ .

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ١ : ١٥٣ .

(٣) هى رواية مخطوطة النهج .

ولأفرطن لهم حوضاً ، أى لأملأن ، يقال : أفرطتُ المزادة أى ملأتها ، وغدير مفرّط ، أى ملآن .

والماتح ، بنقطتين من فوق : المستقى من فوقُ ، وبالياء : مالئُ الدلاء من تحت .

والعَبّ : الشرب بلا مصّ كما تشرب الدابّة : وفى الحديث : « الكُباد من العبّ »[1] .

والحِسْى : ماء كامنٌ فى رمل يحفر عنه ويستخرَج ، وجمعه أحساء .

• • •

يقول عليه السلام : والله ما أنكروا علىّ أمراً هو منكَر فى الحقيقة ، وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم ؛ وحملهم على ذلك الحسد وحبّ الاستئثار بالدنيا والتفضيل فى العطاء ؛ وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يراه ولا يستجيزه فى الدين . قال : ولا جعلوا بينى وبينهم نِصْفاً ، يعنى وسيطاً يحكم وينصف ، بل خرجوا عن الطاعة بغتة ؛ وإنهم ليطلبون حقا تركوه ، أى يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة .

قال : ودماً هم سفكوه ؛ يعنى دم عثمان ؛ وكان طلحة من أشدّ الناس تحريضاً عليه ، وكان الزّبير دونه فى ذلك .

روى أنّ عثمان قال : ويلى على ابن الحضرميّة — يعنى طلحة — أعطيتُه كذا وكذا بُهاراً[2] ذهبا ؛ وهو يروم دمى يحرّض على نفسى ؛ اللّهم لا تمتّعه به ولقّه عواقب بغيه[3] .

وروى الناس الذين صنّفوا فى واقعة الدّار أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنّعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس ، يرمى الدار بالسهام . ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ٣ . والكباد : وجع الكبد .
(٢) البهار : الحمل ، قيل : هو الأثاثة وطل بالفعلة .
(٣) انظر النهاية ١ : ١٠١ .

حصروه الدخول من باب الدار ، حملهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار، فأصعدهم إلى سطحها، وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه .

ورووا أيضاً أن الزبير كان يقول : اقتلوه فقد بدل دينكم . فقالوا : إن ابنك يحامي عنه بالباب، فقال : ما أكره أن يقتل عثمان ولو بُدِئ بابني ؛ إن عثمان لجيفة على الصراط غداً .

وقال مروان بن الحكم يوم الجمل : والله لا أترك ثأري وأنا أراه ، ولأقتلن طلحة بعثمان ؛ فإنه قتله . ثم رماه بسهم فأصاب مأبضه[1] ، فنزف الدم حتى مات .

ثم قال عليه السلام : إن كنت شريكهم في دم عثمان ؛ فإن لهم نصيبهم منه ، فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه ، وإن كانوا وَلُوه دوني ، فهم المطلوبون إذن به لا غيرهم .

وإنما لم يذكر القسم الثالث ، وهو أن يكون هو عليه السلام وليه دونهم ؛ لأنه لم يقل به قائل ، فإن الناس كانوا على قولين في ذلك : أحدهما أن علياً وطلحة والزبير مسّتهم لطخ من عثمان ؛ لا بمعنى أنهم باشروا قتله ؛ بل بمعنى الإغراء والتحريض ؛ وثانيهما أن علياً عليه السلام بريء من ذلك ، وأن طلحة والزبير غير بريئين منه .

ثم قال : وإن أول عدلهم لَلْحُكم على أنفسهم ؛ يقول : إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيعة ، وقالوا : إنما خرجنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإظهار العدل وإحياء الحق وإماتة الباطل ، وأول العدل أن يحكموا على أنفسهم ؛ فإنه يجب على الإنسان أن يقضي على نفسه ثم على غيره ، وإذا كان دم عثمان قبلهم ، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم .

---

(١) المأبض : مابثنيت عليه الفخذ .

قال : وإن معى لبصيرتى ، أى عقلى :مالَبَسْتُ على الناس أمرهم ولا لُبِس الأمر علىّ، أى لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بل أوضحه لى وعرّفنيه .

ثم قال : وإنها للفئة الباغية ؛ لام التعريف فى « الفئة » تشعر بأنّ نصاً قد كان عنده: أنه ستخرج عليه فئة باغية ، ولم يعيِّن له وقتها ولا كلّ صفاتها ، بل بعض علاماتها ، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلامات موجودة فيهم؛ قال : وإنّها الفئة الباغية ،أى وإنّ هذه الفئة ، أى الفئة التى وُعِدت بخروجها علىّ ، ولولا هذا لقال : « وإنها لفئة باغية » ، على التنكير .

ثم ذكر بعض العلامات ، فقال : إنّ الأمر لواضح ، كلّ هذا يؤكّد به عند نفسه وعند غيره أنّ هذه الجماعة هى تلك الفئة الموعود بخروجها ، وقد ذهب الباطلُ وزاحَ[1]، وخرس لسانه بعد شَغْبه .

ثم أقسم ليملأنّ لهم حوضا هو ماتحه ، وهذه كناية عن الحرب والهيجاء ومايتعقبها من القتل والهلاك. لا يصدرون عنه بِرِىّ ، أى ليس كهذه الحياض الحقيقية التى إذا وَرَدَها الظمآن صَدَر عن رِىّ وقع غليله ، بل لا يصدُرون عنه إلا وهم جَزَرُ السيوف، ولايعبُّون بعده فى حِسْى لأنهم هلكوا ، فلا يشربون بعده البارد العذب .

وكان عمرو بن الليث الصفّار أمير خراسان أنفذ جيشا لمحاربة إسماعيل بن أحمد السامانى ، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث ، فغضب وأنّبَ القوّاد بكلام غليظ ، فقال له بعضهم : أيها الأمير ، إنه قد طُبِخَ لك مِرْجَلٌ عظيم ، وإنما نلنا منه نُهمة[2] يسيرة والباقى مذخور لك ، فلام تتركه ! اذهب إليهم فكُلْه. فسكت عمرو ابن الليث عنه ولم يجب .

---

(١) زاح الأمر : ذهب .
(٢) النهمة : الجزء اليسير .

ومرادنا من هذه المشابهة والمناسبة بين الكتابين .

• • •

الأصل :

منه :

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، تَقُولُونَ : الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا ، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا .

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي ، وَنَكَثَا بَيْعَتِي ، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ . فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا ، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا ، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ وَرَدَّا الْعَافِيَةَ .

• • •

الشرح :

العُوذ : النوق الحديثات النتاج ، الواحدة عائذ ، مثل حائل وحُول ، وقد يقال ذلك للخيل والظباء ، ويجمع أيضاً على «عُوذان» مثل راع ورُعيان ، وهذه عائذة بيّنة العُؤوذ ، وذلك إذا ولدت عن قريب ، وهي في عيادها ، أي بحِدْثان نتاجها[1] .

والمطافيل : جمع مُطفِل ، وهي التي زال عنها اسمُ العِياذ ومعها طِفلُها ، وقد تسمى المطافيل عُوذاً إلى أن يبعد العهد بالنّتاج مجازاً ؛ وعلى هذا الوجه قال أمير المؤمنين : « إقبال العوذ المطافيل » ، وإلا فالاسمان معاً لا يجتمعان حقيقة ، وإذا زال الأول ثبت الثاني .

قوله : « وألّبا الناس عليّ » أي حرّضا ، يقال : حسود مؤلِّب .

---

(١) في اللسان : « ويقال : هي عائذة بيّنة العؤوذ ، إذا ولدت عشرة أيام أو خمسة عشر ، ثم هي مطفل » .

واستثبتُهما ، بالثاء المعجمة بثلاث : طلبت منهما أن يَثُوبا أى يرجعا ، ومنّى المنزل مَثابة لأن أهله يتصرفون فى أمورهم ثم يثوبون إليه ، ويروى : « ولقد اسْتَعْتَبْتُهما » ، أى طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما فى نقض البيعة .

واستأنيت بهما ، من الأناة والانتظار .

والوِقاع ، بكسر الواو : مصدر واقعتهم فى الحرب وِقاعا ، مثل نازلتهم نِزالا ، وقاتلتهم قِتالا .

وغمَط فلان النعمة ، إذا حَقَرها وأزرى بها غمْطا ، ويجوز « غمِط » النعمة بالكسر والمصدر غيرُ محرّك ويقال : إن الكسر أفصح من الفتح .

يقول عليه السلام : إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النُّوق إلى أولادها ، تسألونى البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتكم . ثم دعا عليّ على طلحة والزبير بعد أنْ وصفهما بالقطيعة والنكث والتأليب عليه ، وأن يَحُلّ الله تعالى ما عقدا ، وألاّ يحكم لهما ما أبرما ، وأن يريَهما المساءة فيما أمّلا وعملا .

فأما الوصف لهما بما وصفهما به ، فقد صدق عليه السلام فيه ، وأمّا دعاؤه فاستجيب له ، والمساءة التى دعابها هى مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة ، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان رسوله بالجنّة ، وإنما استوجباها بالتوبة التى ينقلها أصحابنا رحمهم الله فى كتبهم عنهما ، ولولاها لكانا من الهالكين .

(١٣٨)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام يومىء فيها إلى ذكر الملاحم :

يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى ، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى ، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ ، إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ .

* * *



الشـرح :

هذ إشارة إلى إمام يخلقــه الله تعالى فى آخر الزمان ، وهو الموعود به فى الأخبار والآثار ، ومعنى « يعطف الهوى » يقهره ويُثْنيه عن جانب الإيثار والإرادة ، عاملا عمَل الهدى ، فيجعل الهدى قاهراً له ، وظاهرا عليه .

وكذلك قوله : « ويعطف الرأى على القرآن » ، أى يقهر حــكم الرأى والقياس والعمل بغَلَبة الظنّ عاملا عمل القرآن .

وقوله : « إذا عطفوا الهدى » و « إذا عطفوا القرآن » إشارة إلى الفِرَق الخالفين لهذا الإمام ، المشاقّين له ، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى ، ولا يحــكمون بالقرآن بل بالرأى .

* * *

الأصـلُ :

منها :

حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ ؛ بَادِياً نَوَاجِذُهَا ، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا ، حُلْواً رَضَاعُهَا ، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا .

أَلَا وَفِي غَدٍ ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

الشَّـرْحُ :

الساق : الشدة، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[1] .

والنواجذ : أقصى الأضراس ، والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتها ، كما أن غاية الضحك أن تبدُو النواجذ .

قوله : « مملوءةً أخلافها » ، والأخلاف للناقة حلمات الضرع ، واحدها خِلف .

وكذلك وقوله : « حلوا رضاعها ، علقما عاقبتها » قد أخذه الشاعر ، فقال :

الحربُ أوّلَ ما تكون فتيّةً ... تسعى بزينتها لكلّ جهولِ[2]

حتى إذا اشتعلتْ وشبّ ضِرامُها ... عادتْ عجوزاً غير ذات حليلِ

شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت ... مكروهـــةً للشمّ والتقبيل

(١) سورة القلم ٤٢ .

(٢) تنسب إلى امرئ القيس ، وهي في ديوانه ٣٥٣ ، من زيادات نسخة ابن النحاس .

(٣) الديوان : « حتى إذا استعرت » .

وهو الرَّضاع بالفتح، والماضي رضِع بالكسر، مثل سمِع سماعا، وأهل نجد يقولون: « رَضَع » بالفتح « يرضِع » بالكسر رَضْعا، مثل ضرب يضرب ضربا، وأنشدوا:

وَذَمُّوا لنا الدنيا وهم يَرْضِعُونها أفاويقَ حتى مايدِرُّ لها ثُعْلُ[1]

بكسر الضاد.

[فصل في الاعتراض وإيراد مُثُل منه]

وقوله: « ألا وفى غد » تمامه « يأخذ الوالى » وبين الكلام جملة اعتراضية، وهى قوله: « وسيأتى غدٌ بما لا نعرفون » والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه؛ ومثل ذلك فى القرآن كثير، نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾[2]، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجواب المتلقَّى به قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾، وقد اعترض بينهما قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، واعترض بين هذا الاعتراض قوله ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾، لأنه لو حذفته لبقي الكلام على إفادته، وهو قوله: « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ »، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم، وتأكيد إجلاله فى النفوس؛ ولا سيما بقوله: ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[3]، فقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ اعتراض، والمراد التنزيه. وكذلك قوله: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾، فـ« لَقَدْ عَلِمْتُمْ » اعتراض، والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة. وكذلك قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

(١) اللسان ٩: ٤٨٤، ونسبه إلى ابن همام السلولى.

(٢) سورة الواقعة ٧٥ — ٧٧.

(٣) سورة النحل ٥٧.

مُقْتَرٍ ﴾[1] فاعترض بين « إذا » وجوابها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم ؛ فجعل الجواب اعتراضا .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ـ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ـ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[2] فاعترض بقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ بين ﴿ وصينا ﴾ وبين الموصّى به ؛ وفائدة ذلك إذ كارُ الولَد بما كابدتْه أمه من المشقة في حمله وفصاله .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[3] فقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، والمراد أن يقرر في أنفس السامعين أنه لا ينفع البشرَ كتمانُهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره .

ومن الاعتراض في الشعر قول جرير :

وَلَقَدْ أرانى ـ والجديدُ إلى بِلًى ـ   في موكبٍ بيضِ الوجوهِ كرامِ[4]

فقوله : « والجديد إلى بِلًى » اعتراض ، والمراد تعزيته نفسه عمّا مضى من تلك اللذات .

وكذلك قول كُثَيِّر :

لو أنّ الباخلين ـ وأنتِ منهم ـ   رأوكِ تعلّموا منكِ المِطالا[5]

فقوله : « وأنتِ منهم » اعتراض ؛ وفائدته ألّا تظن أنها ليست باخلة .

---

(١) سورة النحل ١٠١ .
(٢) سورة لقمان ١٤ .
(٣) سورة البقرة ٧٣ ، ٧٤ .
(٤) ديوانه ٥٥٦ ، والرواية فيه : « في فتية طرف الحديث كرام » .
(٥) ديوانه ٢ : ١٥١ .

ومن ذلك قول الشاعر [1] :

فلو سألتْ سَرَاةَ الحيِّ سلمى على أنْ قد تلوّن بي زمانى [2]
لخبّرها ذَوُو أحسابِ قومى وأعدائى فكلٌّ قد بلانى
بِذَبِّىَ الذمَّ عن حَسَبِى ومالى وزَبُّوناتِ أَشْوَسَ تَيِّحانِ [3]
وأنى لاأزالُ أخا حُروبٍ إذا لم أجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جانى

فقوله :

* على أنْ قد تلوّن بى زمانى *

اعتراض،وفائدته الإخبار عن أنّ السن قد أخذت منه وتغيّرت بطول العمر أوصافُه.

ومن ذلك قول أبى تمام :

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وجهى فى صحيفته رَدَّ الصِقالِ بَهـــاءَ الصَّارمِ الخذِمِ [4]
وما أُبالى ـ وخَيْرُ القولِ أصدقُه ـ حقنتَ لى ماءَ وجهى أم حقنت دمى

فقوله : «وخَيْرُ القولِ أصدقُه» اعتراض،وفائدته إثبات صدقه فى دعواه أنه لايبالى أيهما حقن .

فأما قول أبى تمام أيضا :

وإنّ الغِنَى لى إنْ لحظتَ مطالبى من الشِّعر ـ إلا فى مديحك ـ أطوعُ [5]

فإنّ الاعتراض فيه هو قوله : «إلا فى مديحك» وليس قوله : «إنْ لحظتَ مطالبى» اعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصلىّ [6]،لأنّ فائدة البيت معلّقة عليه، لأنه لايريد أنّ الغنى

---

(١) لسوار بن المضرب السعدى . ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ١ : ١٣٠ .

(٢) سراة القوم : خيارهم .

(٣) زبونات ، من الزبن ، وهو الدفع . والتيحان : العريض القدام .

(٤) ديوانه ٣ : ٢١٨ . والخذم : السريع القطع .

(٥) ديوانه ٢ : ٣٢٣ .

(٦) المثل السائر ٢ : ١٨٨ .

لى على كل حال أطوع من الشّعر ، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد مختل ! بل مراده أنّ التمني لى بشرط أن تلحظ مطالبى من الشعر أطوعُ لى ؛ إلاّ فى مديحك ، فإنّ الشعر فى مديحك أطوع لى منه ، وإذا كانت الفائدة معلّقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضا .
وكذلك وَهم ابن الأثير[1] أيضا فى قول امرئ القيس :

فــلو أنّ ما أسْعَى لأدنى معيشةٍ ... كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المــالِ[2]
ولـكنّما أسْعَى لمجـــدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يدركُ المجـدَ المؤثّلَ أمثالى

فقال : إن قوله : « ولم أطلبْ » اعتراض ؛ وليس بصحيح ، لأنّ فائدة البيت مرتبطة به : وتقديره : لو سعيتُ لأن آكلَ وأشرب لكفانى القليل ، ولم أطلب الملْكَ ؛ فكيف يكون قوله : ولم أطلب الملْكَ اعتراضا ، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلة تردُ لتحسين وتكملة ، وليست فائدة أصلية !

وقد يأتى الاعتراض ولا فائدة فيه ؛ وهو غير مستحسَن ، نحو قول النابغة :

يقولُ رجـــالٌ يجهلونَ خليقَتِى ... لعلّ زياداً ـ لا أبالكَ ـ غافلُ[3]

فقوله : « لا أبالك » ، اعتراض لا معنى تحته ها هنا ، ومثله قول زهير :

سئِمْتُ تـكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يعشْ ... ثمانينَ حَوْلاً ـ لا أبا لكَ ـ يسأمِ[4]

فإن جاءت « لا أبالك » لمعنى يليق بالموضع فهى اعتراض جيد ، نحو قول أبى تمام :

* عِتَابُكِ عَنّى ـ لا أبَالَكِ ـ وَاقْصِدِى *

فإنه أراد زجرها وذمّها لما أسرفت فى عتابه .

---

(١) المثل السائر ٢ : ١٨٦ . (٢) ديوانه ٣٩ .
ديوانه ٦١ . (٤) ديوانه ٢٩ .

وقد يأتي الاعتراض على غاية من القبح والاستهجان ، وهو على سبيل التقديم والتأخير ، نحو قول الشاعر :

فَقَدْ والشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَــاءٌ بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ فَصِيحُ[1]

تقديره : : فقد بَيَّنَ لي صُرَدٌ بصيح بوشك فراقهم ، والشك عناء ، فلأجل قوله : « والشك عناء » بين « قد » والفعل الماضي ؛ وهو « بَيَّن » عدّ اعتراضا مستهجنًا .

وأمثال هذا للعرب كثير .

قوله عليه السلام : « يأخذ الوالي من غيرها عُمّالها على مساوئ أعمالها » كلام منقطع عما قبله ، وقد كان تقدم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمْرة ، فذكر عليه السلام أنّ الواليَ — يعني الإمام الذي يخلقه الله تعالى في آخر الزمان — يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء أعمالهم . وعلى ها هنا متعلقة بـ « يأخذ » التي هي بمعنى « يؤاخذ » من قولك : أخذته بذنبه ، وآخذته ، والهمز أفصح .

والأفاليذ : جمع أفلاذ ، وأفلاذ جمع فِلَذ ، وهي القطعة من الكبد ، وهذا كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم بالأمر ، وقد جاء ذكر ذلك في خبر مرفوع في لفظة : « وقاءت له الأرض أفلاذ كبدها » ، وقد فسر قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[2] بذلك في بعض التفاسير .

والمقاليد : المفاتيح .

* * *

الأصـلُ

منها :

كأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّءُوسِ . قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ .

(١) المثل السائر ٢ : ١٩١ . (٢) سورة الزلزلة ٢ .

وَاللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا .

فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ .

***

الشرح :

هذا إخبار عن عبد الملك بن مَرْوان وظهوره بالشام ومُلْكه بعد ذلك العراق ، وماقتَل من العرب فيها أيامَ عبدالرحمان بن الأشعث ، وقتله أيام مصعب بن الزبير .

ونعق الرعي نعقه ، بالعين المهملة ، ونَعَق الغراب بالغين المعجمة . وفحص براياته هاهنا : مفعول محذوف تقديره : وفحص الناس براياته ، أي نحّاهم وقلبهم يمينا وشمالا .

وكوفان : اسم الكوفة . وضواحيها : ماقرب منها من القرى . والضَّروس : الناقة السيئة الخلُق تعضّ حالبها ، قال بشر بن أبي حازم :

عَطَفْنَا لهُمْ عَطْفَ الضَّروسِ مِنَ الملاَ   بشَهْبَاءَ لا يمشي الضَّراءَ رقيبُهَــــا [1]

وقوله : « وفرش الأرض بالرءوس » : غطاها بها كما يغطّى المكان بالفراش .

وفغرت فاغرتُه : كأنه يقول : فتح فاه ؛ والكلام استعارة ، وفَغَر « فَعَلَ » يتعدّى ولا يتعدّى . وثقُلتْ في الأرض وطأته ، كناية عن الجوْر والظلم .

بعيد الجولة : استعارة أيضا ؛ والمعنى أنّ تطواف خيوله وجيوشه في البلاد ، أو جَوَلان رجاله في الحرب على الأقران طويل جدًّا لا يتعقبه السكون إلا نادرا .

وبعيد منصوب على الحال ، وإضافته غير محضة .

---

(١) اللسان ٩ : ٤٢٤ ، ديوانه ١٥

وعوازب أحلامها : ماذهب من عقولها ، عزَبَ عنه الرأى ، أى بعُد .

وبسّق لكم طرقه ، أى يسهل . والعقِب ، بكسر القاف : مؤخر القدم ، وهى مؤنثة .

فإن قلت: فإنّ قوله : «حتى تؤوب» يدلّ على أن غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها ، وعبدالملك مات فى ملكه ولم يزُل الملك عنه بأوبَة أحلام العرب إليها فإنّ فائدة « حتى » إلى ؛ وهى موضوعة للغاية .

قلت : إن مُلكَ أولاده مُلكه أيضا،ومازال الملك عن بنى مَرْوان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها ، والعرب ههنا : بنو العباس ومن اتّبعهم من العرب أيام ظهور الدولة، كقحطبة بن شبيب الطائى وابنيه: حُميد والحسن، وكبنى رزيق ، بتقديم الراء المهملة، الذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبى، وعِدادهم فى خُزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بنى العباس . وقد قيل إن أبا مسلم أيضا عرَبىّ أصله ، وكلّ هؤلاء وآباؤهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين فى دولة بنى أمية،لم ينهض منهم ناهض،ولا وثب إلى الملك واثب ، إلى أن أراد الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عَزَبَ عنهم من إبائهم وحميّتهم، فغاروا للدّين والمسلمين من جَوْر بنى مروان وظلمهم،وقاموا بالأمر،وأزالوا تلك الدولة التى كرهها الله تعالى ، وأذِنَ فى انتقالها .

ثم أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتابَ والسنة ، والعهد القريب الذى عليه باقى النبوّة-يعنى عهده وأيامه عليه السلام .وكأنّه خاف من أن يكون بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبار ستنقضى إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها ، كالأمر لهم باتباع ولاة الدولة الجديدة فى كلّ ماتفعله،فاستظهرَ عليهم بهذه الوصية،وقال لهم: إذا ابتذلت الدولة ، فالزموا الكتاب والسنّة ، والعهد الذى فارقتُكم عليه .

(١٣٩)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام فى وقت الشورى :

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ ؛ فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي. عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ ، تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ .



الشرح :

هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى بعد وفاة عمر .

[من أخبار يوم الشورى وتولية عثمان]

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدم مافيه كفاية ؛ ونحن نذكر هاهنا مالم نذكره هناك ، وهو من رواية أبي عوانة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي في كتاب " الشورى " ، و " مقتل عثمان " ، وقد رواه أيضا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في زيادات كتاب «السقيفة» ، قال :

لما طُعِن عمرُ جَعَل الأمرَ شورى بين ستة نفر : عليّ بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن مالك ؛ وكان

طلحة يومئذ بالشام ، وقال عمر : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض وهو عن هؤلاء راض ؛ فهم أحقُّ بهذا الأمر من غيرهم ، وأوصى صُهَيب بن سنان ، مولى عبد الله بن جُدْعان ـ ويقال : إنّ أصلَه من حيّ من ربيعة بن نزار ، يقال لهم عَنَزة ـ فأمره أن يصلّيّ بالناس حتى يرضَى هؤلاء القومُ رجلاً منهم ، وكان عمر لا يشك أنّ هذا الأمر صائر إلى أحد الرجُلين : علىّ وعثمان ، وقال : إنْ قدم طلحة فهو معهم ، وإلّا فلْتختَر الخمسة واحداً منها . ورووى أن عمر قبيل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى ، وقال : الأمر فى هؤلاء الأربعة ، ودعُوا سعداً على حاله أميرا بين يَدَي الإمام . ثم قال : ولوكان أبوعبيدة ابن الجرّاح حيّاً لما تخالجنى فيه الشكوك ، فإن اجتمع ثلاثة على واحد ، فكونوا مع الثلاثة ، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذى فيه عبد الرحمن .

وقال لأبى طلحة الأنصارىّ : يأبا طلحة ، فو الله لطالما أعزّ الله بكم الدين ونصر بكم الإسلام ؛ اختر من المسلمين خمسين رجلا ، فاستحثّ هؤلاء القوم فى كلّ يوم مرّة ، فاستحثّوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمّة رجلاً منهم .

ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار ـ فأعلمهم ما أوصَى به ، وكتب فى وصيّته أن يولّىَ الإمام سعدَ بن مالك الكوفة ، وأبا موسى الأشعرىّ ، لأنه كان عزل سعداً عن سخْطَة ؛ فأحبّ أن يطلب ذلك إلى مَنْ يقوم بالأمر من بعده استرضاء لسعد .

قال الشعبىّ : حدثنى من لا أتّهمه من الأنصار ـ وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ : هو سهل بن سعد الأنصارىّ ـ قال : مشيت وراء علىّ بن أبى طالب حيثُ انصرف من عند عمر ، والعباس بن عبد المطلب يمشى فى جانبه ، فسمعتُه يقول للعباس : ذهبتْ منّا والله! فقال : كيف علمت ؟ قال : ألا تسمعه يقول : كونوا فى الجانب الذى فيه عبد الرحمن ، لأنّه ابنُ عمّه ، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره ، فإذا اجتمع هؤلاء ! فلوأنّ الرجلين

الباقيين كانا معى لم يثنيا عنّى شيئا ، مع أنى لست أرجو إلا أحدهما ، ومع ذلك فقد أحبّ عمر أن يعلمنا أنّ لعبد الرحمن عنده فضلا علينا . لعمرُ الله ماجعل الله ذلك لهم علينا ، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرنّه ما أتى إلينا قديما،ولأعلمته سوء رأيه فينا ، وما أتى إلينا حديثا ؟ ولئن ماتَ — وليموتنّ — ليجتمعنّ هؤلاء القوم على أن يصرفوا هذا الأمر عنا؛ولئن فعلوها — وليفعلنّ — ليرونني حيث يكرهون؛والله مابى رغبة فى السلطان ، ولا حبّ الدنيا ؛ ولكن لإظهار العدل ، والقيام بالكتاب والسنّة .

قال : ثم التفتَ فرآنى وراءه ، فعرفت أنه قد ساءه ذلك ، فقلت : لا تُرَعْ أباحسن! لا والله لا يسمع أحدٌ الذى سمعتُ منك فى الدنيا ما اصطحبنا فيها ؛ فوالله ماسمعه منّى مخلوق حتى قبض الله عليًا إلى رحمته .

قال عوانة : فحدثنا إسماعيل ، قال : حدثنى الشعبىّ ، قال : فلما مات عمر ، وأدرج فى أكفانه ، ثم وضع ليصلَّى عليه ، تقدّم علىّ بن أبى طالب ، فقام عند رأسه ، وتقدّم عثمان فقام عند رجليه ، فقال علىّ عليه السلام : هكذا ينبغى أن تكون الصلاة ، فقال عثمان : بل هكذا ، فقال عبد الرحمن : ما أسرع ما اختلفتم ! ياصُهيب ، صلّ عَلَى عمر كما رضىَ أن تصلّىَ بهم المكتوبة ، فتقدّم صُهيب فصلّى عَلَى عمر .

قال الشعبىّ : وأدخل أهل الشورى دارا،فأقبلوا يتجادلون عليها ، وكلّهم بها ضنين، وعليها حريص ؛ إمّا لدنيا وإمّا لآخرة ، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن : مَنْ رجلٌ منكم يخرجُ نفسه عن هذا الأمر،ويختار لهذه الأمة رجلا منكم،فإنّى طيّبةٌ نفسى أن أخرُجَ منها، وأختار لكم ؟ قالوا : قد رضينا ؛ إلا علىّ بن أبى طالب فإنه اتّهمه وقال : أنظر وأرى . فأقبل أبو طلحة عليه ، وقال : ياأبا الحسن ، ارضَ برأى عبد الرحمن ، كانَ الأمر لك أو لغيرك ، فقال على : أعطنى ياعبدالرحمن موثقاً من الله لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى،

ولا تميلُ إلى صِهْرٍ ولا ذى قرابة ، ولا تعملْ إلّا لله ، ولا تألو هذه الأمّة أن تختارَ لها خيرَها .

قال : فحلفَ له عبدالرحمن بالله الذى لا إله إلا هو،لأجتهدنَّ لنفسى ولكم وللأمة، ولا أميلُ إلى هوًى ولا إلى صهر ولا ذِى قرابة .

قال : فخرج عبدُالرحمن ، فمكث ثلاثة أيام يشاور الناس ، ثم رجع واجتمع الناس، وكثروا عَلَى الباب لا يشكّون أنه يبايع علىّ بن أبى طالب ، وكان هَوَى قريش كافة ماعدا بنى هاشم فى عثمان ، وهَوَى طائفة من الأنصار مع على وهوى طائفة أخرى مع عثمان ؛ وهى أقلّ الطائفتين ، وطائفة لا يبالُون : أيّهما بُويع .

قال : فأقبل المقداد بن عمرو ؛ والناس مجتمعون،فقال : أيّها الناسُ ؛ اسمعوا ماأقول، أنا المقداد بن عمرو ؛ إنّكم إن بايعتم عليًا سمعنا وأطعنا ، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا ؛ فقام عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى ، فنادى : أيّها الناس ، إنّكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا،وإن بايعتم عليًّا سمعنا وعصينا.فقال له المقداد : ياعدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ كتابه ، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون ! فقال له عبد الله : يابنَ الحليف العسيف [1] ، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول فى أمر قريش !

فقال عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح : أيّها الملأ؛إن أردتم ألّا تختلف قريش فبايعوا عثمان ؛ فقال عمّار بن ياسر:إن أردتم ألّا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليًا! ثم أقبل عَلَى عبدالله بن سعد بن أبى سرح،فقال:يافاسق يابن الفاسق ، أأنت ممّن يستنصحه المسلمون ، أو يستشيرونه فى أمورهم ! وارتفعت الأصوات،ونادى منادٍ لايُدْرَى مَنْ هوا — فقريش تزعم أنّه رجل من بنى مخزوم،والأنصار تزعم أنّه رجل طُوال آدم مشرف عَلَى الناس — لا يعرفه أحد منهم : ياعبد الرحمن ، افرُغ من أمرك ، وامضِ عَلَى مافى نفسك فإنه الصواب .

(١) العسيف : المستهان به .

قال الشعبي : فأقبل عبد الرحمن عَلَى عليّ بن أبي طالب ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه ، وأشدّ ما أخذ الله على النبيّين من عهد وميثاق : إن بايعتك لتعمَلنّ بكتاب الله وسنّة رسوله ، وسيرة أبي بكر وعمر ! فقال عليّ عليه السلام : طاقتي ومبلغ علمي وجهد رأيي ؛ والناس يسمعون .

فأقبل عَلَى عثمان ، فقال له مثل ذلك ، فقال : نعم لا أزولُ عنه ولا أدعُ شيئاً منه .

ثم أقبل عَلَى عليّ فقال له ذلك ثلاث مرات ، ولعثمان ثلاث مرات ، في كلّ ذلك يجيب عليّ مثل ما كان أجاب به ، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به .

فقال : ابسُط يدك ياعثمان ، فبسط يده فبايعه ، وقام القوم فخرجوا ؛ وقد بايعوا إلّا عليّ بن أبي طالب ، فإنه لم يبايع .

قال : فخرج عثمان عَلَى الناس ووجهه متهلّل ، وخرج عليّ وهو كاسف البال مظلم ؛ وهو يقول:يابنَ عوف،ليس هذا بأوّل يومٍ تظاهرتم علينا،من دفعنا عن حقّنا والاستئثار علينا ! وإنها لسنّة علينا ، وطريقة تركتموها .

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان : أما والله لو بُويع غيرك لما بايعناه ؛ فقال عبدالرحمن بن عوف : كذبتَ ؛ والله لو بويع غيره لبايعتَه؛ وما أنت وذاك يابن الدبّاغة ! والله لو وليها غيره لقلتَ له مثل ماقلت الآن ، تقرّبا إليه وطمعا في الدنيا ، فاذهب لا أبا لك ! .

فقال المغيرة : لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعتُك ماتكره . ومضيا .

قال الشعبيّ : فلما دخل عثمان رَحْله دخل إليه بنو أميّة حتى امتلأت بهم الدار ، ثم أغلقوها عليهم ، فقال أبو سفيان بن حرْب : أعندكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، قال : يابني أميّة،تلقّفوها تلقّف الكرة؛فوالّذي يحلف به أبو سفيان مامن عذاب ولاحساب، ولا جنّة ولا نار ، ولا بعث ولا قيامة !

قال : فانتهره عثمان ، وساءه بما قال ، وأمر بإخراجه .

قال الشعبي : فدخل عبدُ الرحمن بن عوف على عُثمان ، فقال له : ماصنعت ! فوالله ماوفِّقت حيث تدخل رحلك قبل أنْ تصعد المنبر ، فتحمد الله وتثني عليه وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعِدُ الناس خيراً .

قال : فخرج عثمان ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هذا مقام لم نكن نقومه ، ولم نعدّ له من الكلام الذى يقام به فى مثله ، وسأهيئُ ذلك إن شاء الله ، ولن آلو أمّةَ محمد خيرا ، والله المستعان .

ثم نزل .

•••

قال عوانة : فحدثنى يزيد بن جرير ، عن الشعبي ، عن شقيق بن مسلمة ، أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب ، لما انصرف إلى رحله قال لبني أبيه : يابني عبدالمطّلب ، إنَّ قومَكم عادوكم بعد وفاة النبيّ كعداوتهم النبيّ فى حياته ، وإن يطِعْ قومُكم لا تؤمَّروا أبداً ؛ ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلا بالسيف .

قال : وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، داخلٌ إليهم ، قد سمع الكلام كلَّه فدخل ، وقال : ياأبا الحسن ، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض؟ فقال : اسكت ويحك ! فوالله لولا أبوك وما ركب منّي قديما وحديثا ، ما نازعني ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف . فقام عبد الله فخرج .

قال : وأكثَر النّاس فى أمر الهرمزان وعبيدالله بن عمر ، وقتله إياه ، وبلغ ماقال فيه عليّ بن أبي طالب فقام عثمان فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنّه كان من قضاء الله أنّ عُبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان ، وهو رجل من

المسلمين ، وليس له وارثٌ إلا الله والمسلمون ؛ وأنا إمامكم وقد عفوت ، أفتعفُون عن عبيد الله ابن خليفتكم بالأمس ؟ قالوا : نعم ، فعفاعنه ، فلما بلغ ذلك عليًّا تضاحك ، وقال: سبحان الله لقد بدأ بهاعثمان ! أيعفُو عن حق امرىءٍ ليس بواليه ! تالله إنّ هذا لهو العجَب ! قالوا : فكان ذلك أوّل مابدا من عثمان مما نقم عليه .

قال الشعبيّ : وخرج المقداد من الغد ، فلقيَ عبدالرحمن بن عوف، فأخذ بيده ، وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجهَ الله ، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإن كنت إنّما أردت الدنيا فأكثر الله مالك . فقال عبد الرحمن : اسمعْ ، رحمك الله ، اسمع ! قال: لاأسمع والله ؛ وجذب يده من يده ، ومضى حتى دخل على عليّ عليه السلام ، فقال : قم فقاتل حتى نقاتلَ معك ، قال عليّ : فبمن أقاتل رحمك الله ! وأقبلَ عمّار بن ياسر ينادي:

يا ناعيَ الإسلام قم فانْعَهُ قد مات عرفٌ وبدا نُكْرُ

أما والله لو أنّ لي أعواناً لقاتلتهم ، والله لئن قاتلهم واحدٌ لأكونَنّ له ثانياً. فقال عليّ : ياأبا اليقظان ؛ والله لاأجدُ عليهم أعواناً ، ولاأحبّ أن أعرّضكم لما لا تطيقون . وبقي عليه السلام في داره ، وعنده نفر من أهل بيته ؛ وليس يدخل إليه أحد مخافة عثمان .

قال الشعبيّ : واجتمع أهلُ الشورى على أن تكونَ كلمتُهم واحدة على مَنْ لم يبايع، فقاموا إلى عليّ ، فقالوا : قم فبايع عثمان ، قال: فإنْ لم أفعل ، قالوا : نجاهدُك ، قال : فمشى إلى عثمان حتى بايعه ؛ وهو يقول : صدق الله ورسوله . فلما بايع أتاه عبدُ الرحمن بن عوف ، فاعتذر إليه ؛ وقال : إن عثمان أعطانا يده ويمينه ، ولم تفعل أنت ، فأحببتُ أن أتوثق للمسلمين ، فجعلتُها فيه ، فقال : إيهاً عنك ! إنما آثرته بها لتنالها بعده ، دقّ الله بينكما عطرَ مَنْشِم [1] .

---

(١) منشم : امرأة عطارة من خزاعة ؛ تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ؛ فضرب ذلك مثلا لشدة الأمر .

قال الشعبيّ : وقدم طلحة من الشام بعد مابويع عثمان ، فقيل له : رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك ؟فقال : والله لوبايعتم شرّكم لرضيتُ ، فكيف وقدبايعتم خيرَكم ؟ قال :ثم عدًا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه ، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه .

قال الشعبي :فأمّا مايذكرهُ الناس من المناشدة، وقول عليّ عليه السلام لأهل الشورى: أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم كذا ؟ فإنه لم يكن يوم البيعة ، وإنما كان بعد ذلك بقليل ؛ دخل عليٌّ عليه السلام على عثمان وعنده جماعة من الناس ،منهم أهلُ الشورى ، وقد كان بلغه عنهم هَناتٌ وقوارصُ ، فقال لهم :أفيكم أفيكم؟ كلّ ذلك يقولون لا، قال :لكني أخبركم عن أنفسكم؛ أمّا أنت ياعثمان ففررت يوم حُنين، وتوليت يوم التقى الجمعان ، وأمّا أنت ياطلحة فقلت : إنْ مات محمد لتركضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا ،وأمّا أنتَ ياعبد الرحمن ، فصاحب قراريط ، وأما أنت ياسعد فتدقّ عن أن تذكر .

قال : ثم خرج فقال عثمان : أما كان فيكم أحدٌ يردّ عليه ! قالوا ؛ ومامنعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين ! وتفرّقوا .

* * *

قال عوانة : قال إسماعيل : قال الشعبيّ : فحدثني عبد الرحمن بن جندَب ، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزديّ ، قال: كنت جالساً بالمدينة حيث بويع عثمان ، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو ؛ فسمعته يقول : والله مارأيت مثلَ ماأتى إلى أهل هذا البيت ،وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً ، فقال : وماأنت وذاك يامقداد ! قال المقداد: إني والله أحبّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ،وإني لأعجب من قريش وتطاوُلهم على النّاس بفضل رسول الله ، ثمّ انتزاعهم سلطانه من أهله . قال عبدالرحمن : أمَا والله لقد أجهدتُ نفسي

لكم . قال المقداد : أما والله لقد تركتَ رجلاً من الذين يأمرون بالحق وبه يعدلون ! أما والله لو أنّ لى على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالى إياهم ببدر وأُحُد . فقال عبد الرحمن : ثكلتك أمّك ! لا يسمعنّ هذا الكلامَ الناس ، فإنى أخاف أن تكون صاحب فتنة وفُرقة .

قال المقداد : إنّ مَنْ دعا إلى الحقّ وأهله وولاة الأمر لايكون صاحب فتنة ؛ ولكنْ مَنْ أقحم الناس فى الباطل ، وآثر الهوى على الحق ، فذاك صاحب الفتنة والفُرْقة .

قال : فتربّد وجهُ عبد الرحمن ، ثم قال : لو أعلم أنك إيّاىَ تعنى لكان لى ولك شأن .

قال المقداد : إيّاى تهدّد يابنَ أمّ عبد الرحمن ! ثمّ قام من عبد الرحمن ، فانصرف .

قال جندب بن عبد الله : فاتّبعتُه ، وقلت له : يا عبد الله ، أنا مِنْ أعوانك ، فقال : رحمك الله ! إنّ هذا الأمر لا يغنى فيه الرجلان ولا الثلاثة ! قال : فدخلت من فورى ذلك عَلَى علىّ عليه السلام ، فلما جلست إليه ، قلت : يا أبا الحسن ، والله ما أصاب قومُك بصرف هذا الأمر عنك ، فقال : صبرٌ جميل والله المستعان .

فقلت : والله إنك لصبور ! قال : فإنْ لم أصبِرْ فماذا أصنع ؟ قلت : إنى جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف ، فقالا كذا وكذا ، ثم قام المقداد فاتّبعته ، فقلت له كذا ، فقال لى كذا . فقال علىّ عليه السلام : لقد صدّق المقداد ، فما أصنع ؟ فقلت : تقومُ فى الناس فتدعوهم إلى نفسك ، وتخبرهم أنك أولى بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتسألهم النصر على هؤلاء المظاهرين عليك ، فإن أجابك عشرة من مائة شَدَدْتَ بهم على الباقين ، فإن دانوا لك فذاك ، وإلّا قاتلتهم وكنت أوْلَى بالعذر ؛ قُتِلتَ أو بقيت ، وكنت أعْلَى عند الله حجّة .

فقال : أترجو يا جندب أن يبايعنى من كلّ عشرة واحد ؟ قلت أرجو ذلك ، قال : لكنى لا أرجو ذلك ، لا والله ولا من المائة واحد ، وسأخبرك ؛ إنّ الناس إنما ينظرون

إلى قريش فيقولون : هم قوم محمد وقبيلُه . وأما قريش بينها فتقول : إنّ آل محمد يرون لهم على الناس بنبوّته فضلا ، ويروْن أنهم أولياء هذا الأمر دون قريش ، ودون غيرهم من الناس ، وهم إن وَلُوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبداً ؛ ومتى كان فى غيرهم تداولتْه قريش بينها ؛ لا والله لا يدفعُ الناسُ إلينا هذا الأمر طائعين أبداً !

فقلت : جعلت فداك يا بن عمّ رسول الله ! لقد صدعْتَ قلبي بهذا القول ، أفلا أرْجع إلى المصر ، فأوذِنُ الناس بمقالتك ، وأدعو النّاس إليك ؟ فقال : يا جندب ليس هذا زمان ذاك .

قال : فانصرفتُ إلى العراق ، فكنت أذكر فضل علىّ على الناس فلا أعدم رجلا يقول لى ما أكره ، وأحسن ما أسمعه قول مَنْ يقول : دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك ؛ فأقول : إنّ هذا مما ينفعني وينفعك ، فيقوم عنّى ويدَعني .

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى : حتى رُفِع ذلك من قولى إلى الوليد ابن عُقْبة ، أيام ولينا فبعث إلىّ فحبسنى حتى كُلِّم فىّ ، فخلّى سبيلي .

وروى الجوهرىّ ، قال : نادى عمّار بن ياسر ذلك اليوم : يا معشرَ المسلمين ، إنا قد كُنّا ، وما كنّا نستطيع الكلام ، قلّة وذلّة ، فأعزّنا الله بدينه ، وأكرمنا برسوله ، فالحمد لله ربّ العالمين . يا معشرَ قريش ، إلى متى تصرفون هذا الأمْرَ عن أهل بيت نبيكم ؟ تحوّلونه ها هنا مرّة ، وها هنا مرّة ! ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه فى غيركم ، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله !

فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة : يابن سميّة ، لقد عَدَوْتَ طوْرك وماعرفتَ قدرك ؛ ما أنت وما رأت قريش لأنفسها ! إنك لستَ فى شيء من أمرها وإمارتها ، فتنحّ عنها .

وتكلّمت قريش بأجمعها ، فصاحوا بعمار وانتهروه ؛ فقال : الحمد لله رب العالمين ؛ ما زال أعوانُ الحقّ أذلاء ! ثم قام فانصرف .

(١٤٠)

الأصـل :

ومن كلام له عليه السلام فى النهى عن غيبة الناس :

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ . أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ .

وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ ، لَجُرْأَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ .

يَا عَبْدَ اللَّهِ ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ . فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ غَيْرُهُ بِهِ .

* * *

الشـرح :

ليس فى هذا الفصل من غريب اللغة ما نشرح .

[أقوال مأثورة فى ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين]

ونحن نذكر مما وردَ فى الغيبة لُمَعاً ناءمة عَلَى عادتنا فى ذكر الشىء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه .

وقد ورد فى الكتاب العزيز ذمّ الغيبة . قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تحاسَدُوا ولا تباغضوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وروى جابر وأبو سعيد عنه صلى الله عليه وآله : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشدّ من الزِّنا ، إنّ الرجلَ يزنى فيتوبُ الله عليه ، وإنّ صاحبَ الغيبة لا يُغفَرُ له حتى يغفر له صاحبُه » .

وروى أنس عنه صلى الله عليه وآله : « مررت ليلة أُسرىَ بى ، فرأيت قوما يخمشون وجوهَهم بأظافيرهم ، فسألت جبريل عنهم ، فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس » .

وفى حديث سَلْمان ، قلت : يا رسول الله ، علِّمْنى خيراً ينفعنى الله به ، قال : « لا تحقِرَنّ من المعروف شيئاً ، ولو أفرغت من دلوك فى إناء المستقى ، والقَ أخاك ببِشْرٍ حسَن ، ولا تغتابنّه إذا أدبر » .

وفى حديث البَرَاء بن عازب : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمعَ العواتقَ فى بيوتهنّ ، فقال : « ألا لا تغتابُوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتِهم ، فإنّه مَنْ يتتبع عورةَ أخيه تتبّع الله عورته ، ومَنْ يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » .

---

(١) سورة الحجرات ١٢ .

وفى حديث أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال فى يوم صوم : « إنّ فلانة وفلانة كانتا تأكلان اليوم شحْمَ امرأةٍ مسلمة ــ يعنى الغيبة ــ فرْها فليتقيآ ، فقامت كلّ واحدة منهما عَلَقة دم »[1] .

وفى الصّحاح المجمع عليها أنّه عليه السلام مرَّ بقبر بن جديدين ،فقال : « إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان بكبير ؛ أمّا أحدُهما : فكان يغتاب الناس ، وأمّا الآخر فكان لا يتنزّه من البوْل » ؛ ودعا بجريدة رطْبة فكسرها اثنتين ــ أو قال : دعا بجريدتين ــ ثم غرسهما فى القبرين ــ وقال : « أما إنه سيُهون من عذابهما ما داما رطبتيْن » .

وفى حديث ابن عباس أنّ راجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً ، وهو يمشى عليه السلام ، وهما يمشيان معه ، فمرّ على جيفة ، فقال : « انهشا منها » ، فقالا : يارسول الله، أو ننهش الجيفة ! فقال : « ما أصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه » .

وفى حديث أبى هريرة : « مَنْ أكل لحم أخيه حيا قُرِّب إليه لحمه فى الآخرة ،فقيل له : كله ميتا كما أكلته حيًّا ، فيأكله ويضجّ ويكلح » .

وروى أن رَجُلين كانا عند باب المسجد ، فمرّ بهما رجل كان مخنثًا ، فترك ذلك ، فقالا : لقد بقىّ عنده منه شىء ، فأقيمت الصلاة ، فصلّيا مع الناس ، وذلك يجول فى أنفسهما فأتيا عطاء بن أبى رباح ، فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم .

وعن مجاهد : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، الهُمَزة : الطعّان فى الناس ، واللُّمَزة : النمّام .

وعن الحسن : والله لَلْغيبة أسرعُ فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد .

---

(١) العلقة : القطعة من الدم .

بعضهم : أدركنا السَّلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الـكفّ عن أعراض الناس .

ابن عباس : إذا أردتَ أن تذكُرَ عيوبَ صاحبك ، فاذكُر عيوبك . وهذا مشتقٌ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

أبو هريرة : يبصر أحدُكم القذَى في عين أخيه ، ولا يبصرُ الجذعَ في عين نفسه ! وهذا كالأول .

الحسن : يابن آدم ، إنّك إن قضيتَ حقيقة الإيمان فلا تَعِب النّاس بعيب هو فيك حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك ؛ فإذا فعلتَ ذلك كان شغلك في خاصة نفسك. وأحبّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا .

ويروى أنّ المسيح عليه السلام مَرّ على جيفة كلب ، فقال بعضُ التلامذة : ما أشدّ نتنه ! فقال المسيح : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه نهاهم عن غيبة الـكلب ونبّههم إلى أنه لا ينبغي أن يُذكر من كلّ شيء إلا أحسنه .

وسمع علىّ بن الحسين عليه السلام رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إنّ لـكلّ شيء إداماً، وإدام كلاب الناس الغيبة .

وفي خطبة حجة الوداع : « أيها الناس ، إنّ دماءكم وأموالـكم وأعراضـكم عليكم حرام كحُرْمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . إنّ الله حرّم الغِيبة كما حرّم المال والدم » .

عمر : ما يمنعكم إذا رأيتم مَنْ يخرق أعراض الناس أن تعرّبوا عليه ؟ أيْ تقبّحُوا! قالوا : نخاف سفهه وشرّه ، قال : ذلك أدنى ألا تكونوا شهداء .

أنس يرفعه : « مَنْ مات على الغيبة حُشِر يوم القيامة مزرقةً عيناه ، ينادي بالويل والندامة ، يعرف أهله ولا يعرفونه » .

وقال هشام بن عبد الملك فى بعض ولد الوليد بن عُقْبة :

أبلغْ أبا وهبٍ إذا ما لقيتَـهُ ... بأنك شرّ الناس غَيْباً لصاحبِ

فتبدى له بِشْراً إذا ما لقيتَـــه ... وتلسعه بالغيب لسْعَ العقاربِ

مَرّ الشعبىّ بقومٍ يغتابونه فى المسجد ، وفيهم بعض أصدقائه ، فأخذ بِعُضادَتَى الباب ، وقال :

هنيئاً مريئاً غـــير داءٍ مُخامرٍ ... لعزَّةَ مِنْ أعراضنا ما استحلّت[1]

ومن كلام بعض الحكماء : أبصر الناس بالعَوار المِعوار ! هـذا مثل قول الشاعر :

وأجرأُ مَنْ رأيتُ بظهرِ غيبٍ ... عَلَى عيبِ الرجال ذَوُو العيوب

قيل لشبيب بن شَبّة بن عقال : ما بال عبد الله بن الأهتم يغتابك وينتقصك ! قال : لأنه شقيقى فى النَّسب ، وجارى فى البلد ، وشريكى فى الصنعة .

دخل أبو العيناء على المتوكل ، وعنده جلساؤه ، فقال له : يا محمد كلّهم كانوا فى غيبتك منذ اليوم ، ولم يبق أحد لم يذمّك غيرى ، فقال :

إذا رضيتْ عَنّى كِرامُ عشيرتى ... فلا زالَ غَضْبَاناً عَلَىّ لئامُها

قال بعضهم : بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديّين ، فلما كان وقت السَّحَر ، حرّكهم واحد ، فقال : إلى كمْ هذا النوم عن أعراض الناس !

وقيل لشاعر وصله بعضُ الرؤساء ، وأنعم عليه : ما صنع بك فلان ؟ قال : ما وفّتْ نعمتُه بإساءته ؛ منعنى لذة الثَّلْب ، وحلاوة الشكوى .

أعرابىّ : مَنْ عاب سَفِلَةً فقد رفعه ، ومن عاب شريفا فقد وضع نفسه .

---

(١) لكثير ، أمالى القالى ٢ : ١٠٨

نظر بعضُ السَّلف إلى رجل يغتاب رجلا ، وقال : ياهـذا ، إنك تملى على حافظيكَ كتابا ، فانظر ماذا تقول !

ابن عباس : ما الأسد الضارى على فريسة بأسرعَ من الدنىء فى عِرْض السَّرِىّ .

بعضهم :

ومطروفة عيناه عن عَيْب نفسه   فإنْ لاح عيبٌ من أخيـه تبصّرا

وقالت رابعة العَدَوية : إذانصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله فتشاغل بها عن ذِكْر مساوئ خلقه .

قال عبد الله بن عُروة بن الزبير لابنه : يا بنىّ ، عليك بالدِّين ، فإنّ الدنيا ما بنتْ شيئا إلا هدّمه الدين ، وإذا بَنَى الدِّين شيئا لم تستطع الدنيا هدمه ؛ ألا ترى على بن أبى طالب وما يقول فيه خطباء بنى أمية من ذمّه وعيبه وغيبته ؛ والله لكأنّما يأخذون بناصيته إلى السماء ! ألا تراهم كيف يندبون موتاهم ، ويرثيهم شعراؤهم ؛ والله لكأنما يندبون جِيفَ الحُمُر !

ومن كلام بعض الصالحين : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذهب والفضة ، لأنك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجُد بك نفسُك لخيانته فيه ؛ وقد استودعك عِرْضه وأنت تغتابه ، ولا تبالى .

كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه ، كلما اغتاب أحداً أن يتصدّق بدينار ، وكان إذا مدح أحدا قال : هو كما يشاء الله ، وإذا ذمّه قال : هو كما يعلم الله .

الأحنف : فىّ خَلّتان : لا أغتاب جليسى إذا قام عَنِّى ، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلونى.

قيل لرجل من العرب : مَن السيّد فيكم ؟ قال : الذى إذا أقبل هِبْناه ، وإذا أدبر اغتبناه

قيل للربيع بن خُثَيْم : ما نراك تعيب أحداً ! فقال : لست راضياً عن نفسي فأتفرّغ لذكر عيوب الناس ؛ ثم قال :

لنفسيَ أبكي لستُ أبكي لغيرها لنفسيَ في نفسي عن النّاس شاغل

عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان : ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة ! ما سمعته يغتاب عدوًّا ، قال : هو والله أعقل من أن يسلّط على حسناته ما يذهبُ بها .

سئل فُضَيل عن غِيبة الفاسق ، فقال : لا تشتغِلْ بذكره ، ولا تعوِّدْ لسانك الغِيبة، اشغَلْ لسانك بذكر الله ، وإياك ذكر الناس ؛ فإنّ ذكر الناس داء ، وذكر الله دواء .

بعض الشعراء :

ولستُ بذي نيربٍ في الصديق خَؤُونِ العشيرة سبّابِها[1]

ولا مَنْ إذا كان في مجلسٍ أضاع القبيلةَ واغتابَها

ولكن أُطيعُ ساداتِها ولا أتعلّم ألقابَها

وكان يقال : الغيبة فاكهة القرّاء .

وقيل لإسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة : أيّ اللُّحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ؛ هي والله أطيب من لحوم الدجاج والدُّرّاج[2] — يعني الغيبة .

ابن المقفّع : لا تذكر الميّت بسوء ؛ فتكون الأرضُ أكتمَ عليه منك .

وكان عبد الملك بن صالح الهاشميّ إذا ذُكِر عنده الميّت بسوء ، يقول : كُفُّوا عن أسارى الثَّرى .

وفي الأثر : سامعُ الغيبة أحد المغتابين .

(١) النيرب : العداوة .

(٢) الدراج : طائر على خلقة القطا .

أبو نواس :

ماحطَّكَ الواشونَ من رُتْبَةٍ عندى وما ضرك مغتابُ
كأنهم أثنوا ولم يعلموا عليك عندى بالذى عابوا

الحسن : ذمُّ الرجل فى السر ، مدحٌ له فى العلانية .

علىّ عليه السلام : الغيبة جهد العاجز ؛ أخذه المتنبى فقال :

وأكبر نفسى عن جزاء بغيبة وكلّ اغتياب جُهْدُ مَنْ ماله جُهْدُ[1]

بلغ الحسن أنّ رجلا اغتابه ، فأهدى إليه طبقا من رُطَب ، فجاءه الرجل معتذرا ، وقال : أصلحك الله ! اغتبتُك فأهديت لى ! قال : إنك أهديت إلىّ حسناتك ، فأردت أن أكافئك .

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله ، فقال له : إن الأسوارىّ لم يزلْ أمس يذكرك ويقول: عمرو الضال ، فقال له : ياهذا ! والله مارعيتَ حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه ، ولا رعيتَ حقّى حين بلّغتَ عن أخى ما أكرهه . أعلمه أنّ الموت يعمّنا ، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا .

* * *

[حكم الغيبة فى الدين]

واعلم أنّ العلماء ذكروا فى حدّ الغيبة : أنْ تذكرَ أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرت نقصانا فى بدنه ؛ مثل أن تقول : الأقرع ، أو الأعور ؛ أو فى نسبه نحو أن تقول : ابن النبطىّ وابن الإسكاف أو الزبّال أو الحائك أو خُلُقه ، نحو سيىءُ الخلق أو بخيل

(١) ١ : ٣٧٦ .

أو متكبّر؛ أو في أفعاله الدنيئة نحو قولك: كذّاب وظالم ومتهاون بالصلاة؛ أو الدنيوية نحو قولك: قليل الأدب متهاون بالنّاس، كثير الكلام، كثير الأكل؛ أو في ثوبه كقولك: وسخ الثياب، كبير العمامة، طويل الأذيال.

وقد قال قوم: لا غيبة في أمور الدين، لأنّ المغتاب إنما ذمّ ما ذمّه الله تعالى؛ واحتجّوا بما روى أنه ذُكر لرسول الله صلى الله عليه وآله امرأةٌ وكثرة صومها وصلاتها، ولكنها تؤذي جارتها، فقال: « هي في النار »؛ ولم ينكر عليهم غيبتهم إياها.

ورُوِي أنّ امرأةً ذُكرت عنده عليه السلام بأنها بخيلة، فقال: « فما خيرها إذن» !

وأكثر العلماء على أنّ الغيبة في أمور الدين محرّمة أيضا، وادّعوا الإجماع على أنّ من ذَكَر غيره بما يكرهه فهو مغتاب؛ سواء أكان في الدين أو في غيره. قالوا: والمخالف مسبوق بهذا الإجماع، وقالوا: وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: « هل تدرون ما الغيبة »؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « ذكرك أخاك بما يكرهه»، فقائل قال: أرأيت يارسول الله، إن كان ذلك في أخي؟ قال: « إن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهتّه »[1].

قالوا: وَرَوَى مُعاذ بن جبل أنّ رجلا ذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال قوم: ما أعجزه! فقال عليه السلام: « اغتبتم صاحبكم »، فقالوا: قلنا ما فيه، فقال: « إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه ».

قالوا: وما احتجّ به الزاعمون أن لا غيبة في الدّين؛ ليس بحجّة، لأن الصحابة إنما ذكرت ذلك في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسؤال؛ ولم يكن غرضها التنقّص.

واعلم أنّ الغيبة ليست مقصورة على اللّسان فقط، بل كلّ ما عرّفْت به صاحبك

(١) بهته، أي قذفه بالباطل.

نقصَ أخيك فهو غيبة ؛ فقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، والمحاكاة ، نحو أنْ تمشى خلف الأعرج متعارجا ؛ وبالكتاب ؛ فإنّ القلم أحدُ اللسانين .

وإذا ذكر المصنف شخصا فى تصنيفه ، وهجّن كلامه ، فهو غيبة . فأما قوله : « قال قوم كذا » ، فليس بغيبة ؛ لأنه لم يعيّن شخصا بعينه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مابالُ أقوامٍ يقولون كذا ! » ، فكان لا يعيّن ، ويكون مقصودُه واحداً بعينه .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القُرّاء المرائين ؛ وذلك نحو أن يُذْكر عندهم إنسان ، فيقول قائلهم : الحمد لله الذى لم يبلنا بدخول أبواب السلطان ، والتبذّل فى طلب الحطام ؛ وقصده أن يفهم الغير عيبَ ذلك الشخص ؛ فتخرج الغيبة فى مخرج الحمد والشكر لله تعالى ، فيحصل من ذلك غيبة المسلم ، ويحصل منه الرياء وإظهار التعفف عن الغيبة وهو واقع فيها ؛ وكذلك يقول : لقد ساءنى مايذكر به فلان ، نسأل الله أن يعصمه ؛ ويكون كاذبا فى دعوى أنه ساءه ، وفى إظهار الدعاء له ؛ بل لو قصد الدعاء له لأخفاه فى خلوة عقيب صلواته ، ولو كان قد ساءه لساءه أيضا إظهار مايكرهه ذلك الإنسان .

* * *

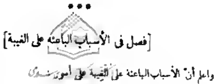
واعلم أنّ الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب كالغيبة ؛ بل أشدّ ، لأنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة ، فيندفع فيها حكاية ؛ يستخرج الغيبة منه بذلك ، وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب ، فما ظنك بالمجتهد فى حصول الغيبة ، والباعث على الاستزادة منها ! وقد روى أن أبا بكر وعمر ذكرا إنساناً عند رسول الله ، فقال أحدهما : إنه لنؤوم ؛ ثم أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله خبزاً قفاراً ، فطلبا منه أُدْما[1] ، فقال : قد ائتدمتما ، قالا : مانعلمه ، قال : « بلى إنما أكلتما من لحم صاحبكما » ، فجمعهما فى الإثم ، وقد

---

(١) الخبز القفار : ما كان بغير أدم ، والأدم : ما يؤدم به .

كان أحدهما ثالثا والآخر مستمعا ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك ، فإن قال بلسانه : اسكت وهو مريد للغيبة بقلبه ، فذلك نفاق ، ولا يخرجه عن الإثم إلا أن يكرهه بقلبه ، ولا يكفي أن يشير باليد ، أي اسكت ، أو بالحاجب والعين ، فإن ذلك استحقار للمذكور ، بل ينبغي أن يذب عنه صريحا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره ، أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » .

• • •



[فصل في الأسباب الباعثة على الغيبة]

واعلم أن الأسباب الباعثة على الغيبة على أمور شتى

منها شفاء الغيظ ، وذلك أن يجري من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر ، فإذا هاج غضبه تشفى بذكر مساوئه ، وسبق إليها لسانه بالطبع إن لم يكن هناك دين وازع ، وقد يمنع تشفي الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ، فيصير حقدا ثابتا ، فيكون سببا دائما لذكر المساوي .

ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا اجتمعوا ربما أخذوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه ، ونفروا عنه فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة في الصحبة . وقد يغضب رفقاؤه من أمر فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم ، إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي .

ومنها أن يستشعر من إنسان أنّه سيذمّه ويطول لسانه فيه، ويقبّح حاله عند بعض الرؤساء، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح حاله، فيطعن فيه ليسقطأثرشهادته عليه. وقد يبتدئ بذكر بعض مافيه صادقا ليكذب عليه بعد ذلك، فيروج كذبه بالصدق الأول.

ومنها أن ينسب إلى أمر فيريد التبرؤ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقّه أن يبرّئ نفسه، ولا يذكر الذي فعله، لكنّه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه، وكيلا يكونَ تبرؤا مبتورا، وربما يعتذر بأن يقول: فلان فعله، وكنت شريكا في بعض الأمر ليبرّئ نفسه بعض البراءة.

ومنها المباهاة وحبّ الرئاسة، مثل أن يقول: كلامُ فلان ركيك، ومعرفته بالفنّ الفلانيّ ناقصة، وغرضه إظهار فضله عليه.

ومنها الحسد وإرادة إسقاط قدر من يمدحه الناس بذكر مساوئه، لأنه يشقّ عليه ثناء الناس عليه، ولا يجدُ سبيلا إلى سدّ باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه.

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك والسخرية، فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة.

* * *

واعلم أن الذي يقوى في نفسي أنّ الغيبة لا تكون محرّمة إلا إذا كانت على سبيل القصد إلى تنقّص الإنسان فقط وغضّ قدره، فأمّا إذا خرجت مخرجاً آخر، فليست بحرام، كمن يظلمه القاضي ويأخذ الرّشوة على إسقاط حقوقه، فإن له أن يذكر حالَه للسلطان متظلّما من حَيْف الحاكم عليه، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلا بذلك، فقد قال صلى الله عليه وآله: «مَطْلُ الغنيّ ظلم»، وقال: «لِيّ[1] الواجد يحلّ عقوبته وعرْضه».

(١) يقال: لى عن الأمر؟ إذا تثاقل.

وكذلك النهي عن المنكر واجب ، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغير على تغييره وردّ القاضي إلى منهج الصلاح فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكب المنكر ، ومَنْ ذكر الإنسان بلقب مشهور فعرف عن عيبه ، كالأعرج والأعمش المحدّثين ، لم يكن مغتابا إذا لم يقصد الذمّ والنقص .

والصحيح أنّ الجاهر بالفسق لا غيبة له ، كصاحب الماخور والمخنّث : ومن يدعو الناس إلى نفسه ابنة ، وكالعشّار والمستخرج بالضرب ، فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به ، وربما تفاخروا بذلك ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه ، فلا غيبة له » ، وقال عمر : ليس لفاجر حرمة ، وأراد المجاهرَ بالفسق ، دون المستتر .

وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن رحمه الله : الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب ، هل ذِكْرِى له بما فيه غيبة ؟ فقال : لا ، ولا كرامة له !

* * *

[طريق التوبة من الغيبة]

واعلم أنّ التوبة من الغيبة تكفّر عقابها ، والتوبة منها هي الندم عليها ، والعزم على ألّا يعود ، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، فلا حاجة إلى الاستحلال منه ، بل لا يجوز إعلامه بذلك ، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله ، لأنه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثمَ ذلك الإيلام ، وفي إعلامه تضييق صَدْرِه ، وإدخال مشقّة عليه ، وإن كان الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، وجب عليه أن يستحلّه ويستوهبه ، فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختصّ بالباري سبحانه من ذلك الوقت ، وبقي ما يختصّ بذلك الميّت لا يسقط حتى يؤخذ العوض له من المذنب يوم القصاص .

الأصل

ومن كلام له عليه السلام

أيُّها النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أخيهِ وَثيقةَ دِينٍ وَسَدادَ طَريقٍ ، فَلا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أقاويلَ الرِّجالِ . أمَا إنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي ، وَتُخطِئُ السِّهامُ ، وَيُحيلُ الكَلامُ ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهيدٌ .

أمَا إنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ إلاَّ أرْبَعُ أصابِعَ .

* * *

فسُئِل عليه السلام عن معنى قوله هذا ، فجَمَعَ أصابِعَه ووضعها بَيْنَ أُذُنِه وعينِه ثمّ قال :

ألبَاطِلُ أنْ تَقُولَ : سَمِعْتُ ، وَالحَقُّ أنْ تَقُولَ : رَأيْتُ .

* * *

الشرح :

هذا الكلام هو نَهْيٌ عن التسرُّع إلى التصديق بما يقال من العيب والقدْح في حقّ الإنسان المستور الظاهر ، المشْهَر بالصلاح والخير ، وهو خلاصةقوله سبحانه: ﴿إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ﴾[1] . ثمّ ضرب عليه السلام لذلك مثلا ، فقال : قد يرمي الرامي فلا يصيب الغرض ، وكذلك قد يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً ، وربّما كان لغرض فاسد أو سمعه ممّن له غرض

(١) سورة الحجرات ٦ .

فاسدا ، كالعدوّ والحسود ، وقد يشذ، الأمر فَيُظن المعروف منكراً ، فيعجل الإنسان بقول لا يتحققه ، كمن يرى غلام زيد يحمل فى إناء مستور مغطّى خلًّا ، فيظنه خمراً .

قال عليه السلام : « ويُحِيل الكلام » ، أى يكون باطلا ، أحال الرجلُ ، فى منطقه ، إذا تكلم الذى لا حقيقة له ، ومن الناس من يرويه : « ويحيك الكلام » بالكاف ، من قولك : ما حاك فيه السيف ، ويجوز وأحاك » بالهمزة ، أى ما أثر ، يعنى أن القول يؤثر فى العِرْض وإن كان باطلا ، والرواية الأولى أشهر وأظهر .

ويبور : يفسد . وقوله : « والباطل ذلك يبور » ، مثل قولهم : للباطل جولة ، وللحق دولة ، وهذا من قوله تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] .

والإصبع مؤنثة ، ولذلك ، قال : « أربع أصابع » بحذف الهاء .

فإن قلت : كيف يقول عليه السلام : الباطل ما يُسمع والحق ما يُرى ، وأكثر المعلومات إنما هى من طريق السماع ، كعلمنا الآن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله بما نقل من معجزاته التى لم نرها ، وإنما سمعناها !

قلت : ليس كلامه فى المتواتر من الأخبار ، وإنما كلامه فى الأقوال الشاذة الواردة من طريق الآحاد ، التى تتضمن القدح فيمن قد غلبت نزاهته ، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بالمشكوك .

(١) سورة الإسراء ٨١ .

(١٤٢)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلاَّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَاأَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ بَخِيلٌ.

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

* * *

الشرح:

هذا الكلام يتضمن ذمّ من يُخرج ماله إلى الفتيان والأقران والشعراء، ونحوهم، ويبتغي به المدح والسمعة، ويعدل عن إخراجه في وجوه البر وابتغاء الثواب، قال عليه السلام: ليس له من الحظ إلا محمدة اللئام وثناء الأشرار، وقولهم: ما أجود يده! أي ما أسمحه! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله – يعني الصدقات وما يجري مجراها من صلة الرَّحم والضيافة وفك الأسير والعاني، وهو الأسير بعينه، وإنما اختلف اللفظ.

والغارم: مَن عليه الديون ويقال: صَبّر فلان نفسه على كذا مخففًا، أي حبسها، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [1].

وقال عنترة يذكر حربًا:

فصــــبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسُو إذا نفس الجبان تَطَلّعُ[2]

وفي الحديث النبويّ في رجل أمسك رجلا، وقتله آخر فقال عليه السلام: « اقتلُوا القاتل واصبرُوا الصابر »؛ أي احبسُوا الذي حبسه للقتل إلى أن يموت.

وقوله: « فإن فَوْزًا »: أفصح من أن يقول: « فإنّ الفوز » أو فإنّ في الفوز كما قال الشاعر:

إنّ في الشواء ونشوةً وخَبَبِ البازل الأمونِ[3]

من لذّةِ العيش، والفتى للدّهر، والدّهرُ ذو شؤون[4]

ولم يقل: « إن الشواء والنشوة »، والسر في هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصا من جملة أشخاص، داخلة تحت نوع واحد؛ ويقول: إنّ واحدا منها أيّها كان فهو من لذّة العيش؛ وإن لم يحصل له كلّ أشخاص ذلك النوع، ومراده تقرير فضيلة هذه الخصال في النفوس، أي متى حصل للإنسان فوزٌ ما بها؛ فقد حصل له الشرف، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة « الفوز » بالألف واللام إذا قصد بهما الجنسية إلّا أنه قد يسبق إلى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية، فأتى بلفظة لا توهم الاستغراق؛ وهي اللفظة المنكرة؛ وهذا دقيق، وهو من لباب علم البيان.

---

(١) سورة الكهف ٢٨.

(٢) اللسان ٦: ١٠٧، يقول: حبست نفسا صابرة.

(٣) لسلم بن ربيعة، ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٣: ١١٣٧. النشوة: السكر. والخبب: ضرب من السير. والبازل: التي استكمل لها تسع سنين. والأمون: الموثقة الخلق.

(٤) الحماسة: « ذو فنون ».

(١٤٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء :

أَلَا وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُكُمْ ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ ، وما أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا ، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا .

إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١) .

فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ !

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ وَالأَكْنَانِ ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ .

---

(١) سورة نوح ١٠ - ١٢ .

اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعِبَةُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا ؛ وَلَا تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا .

اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ ؛ وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً ، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ ، نَافِعَةَ الْحَيَا ؛ كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى ؛ تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ ؛ وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ ؛ إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

تظلكم : تعلو عليكم ، وقد أظلتني الشجرة واستظلت بها . والزُّلفة : القربة ، يقول إنّ السماء والأرض إذا جاءتا بمنافعكم ــ أما السماء فبالمطر ، وأمّا الأرض فبالنبات ــ فإنهما لم تأتيا بذلك تقرّبًا إليكم ، ولا رحمةً لكم ، ولكنّهما أُمِرتا بنفعكم فامتثلتا الأمر ؛ لأنه أمرُ مَنْ تجب طاعته ، ولو أُمِرتا بغير ذلك لفعلتاه . والكلام مجاز واستعارة ، لأنّ الجماد لا يؤمر ؛ والمعنى أنّ الكلّ مسخّر تحت القدرة الإلهية ، ومرادُه تمهيدُ قاعدةِ الاستسقاء ، كأنه يقول : إذا كانت السماء والأرض أيام الخصب والمطر والنبات لم يكن ما كان منهما محبّة لكم ، ولا رجاء منفعةٍ منكم ؛ بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرَهما له ،

فكذلك السماء والأرض أيام الجدب وانقطاع المطر وعدم الكلأ ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم ، ولا استدفاع ضرر يُخاف منكم ، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخَّرهما له ، وإذا كان كذلك فبالحرى ألا نأمل السماء ولا الأرض ، وأن نجعل آمالنا معلّقة بالملك الحق المدبّر لها ، وأن نسترحمه وندعوه ونستغفره ، لا كما كانت العرب في الجاهلية يقولون : مُطرنا بنوء كذا ، وقد سخِط النَّوء الفلاني على بني فلان فأمحلوا .

ثم ذكر عليه السلام أن الله تعالى يبتلى عبادَه عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم ، وحبس مطر السماء عنهم؛ وهذا الكلام مطابق للقواعد الكلامية ، لأن أصحابنا يذهبون إلى أن الغلاء قد يكون عُقوبة على ذنب ، وقد يكون لطفا للمكلّفين في الواجبات العقليّة وهو معنى قوله : « ليتوب تائب ... » إلى آخر الكلمات . ويُقلِع : يكفّ ويمسك .

ثم ذكر أن الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً في دُرور الرزق ، واستدلّ عليه بالآية التي أمر نوح عليه السلام فيها قومَه بالاستغفار ؛ يعني التوبة عن الذنوب ، وقدّم إليهم الموعِد بما هو واقع في نفوسهم ، وأحبّ إليهم من الأمور الآجلة ، فمنّاهم الفوائد العاجلة ، ترغيباً في الإيمان وبركاته ، والطاعة ونتائجها ، كما قال سبحانه للمسلمين : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[1] ، فوعدهم بمحبوب الأنفس الذي يرونه في العاجل عياناً ونقداً لا جزاء ونسيئة . وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[3]

(١) سورة الصف ١٣ .
(٢) سورة الأعراف ٩٦ .
(٣) سورة المائدة ٦٦ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[١].

* * *

[الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب]

وكلّ مافى التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدّنيا ومضارّها ، أما منافعها فمثل أنْ يقول : إن أطعتم باركت فيكم ، وكثّرت من أولادكم وأطلتُ أعماركم ، وأوسعت أرزاقكم ، واستبقيتُ اتّصال نسلكم ، ونصرتُكم على أعدائكم ، وإن عصيتم وخالفتم اخترمْتُكم ونقصتُ من آجالكم ، وشتتُّ شملكم ، ورميتُكم بالجوع والذلّ ، وأذللت أولادكم ، وأشمتّ بكم أعداءكم ، ونصرت عليكم خصومكم ، وشرّدتكم فى البلاد ، وابتليتكم بالمرض والذلّ ، ونحو ذلك .

ولم يأت فى التوراة وعد ووعيد بأمر يتعلق بما بعد الموت. وأمّا المسيح عليه السلام، فإنّه صرح بالقيامة وبعث الأبدان، ولكن جعل العقاب روحانيًّا ؛ وكذلك الثواب ؛ أما العقاب فالوحشة والفزع وتخيل الظلمة وخبث النفس وكدرها وخوف شديد ، وأمّا الثواب فما زاد على أن قال : إنهم يكونون كالملائكة ؛ وربما قال : يصعدون إلى ملكوت السماء ، وربما قال أصحابه وعلماء ملّته : الضوء واللّذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم . هذا هو قول المحقّقين منهم ؛ وقد أثبت بعضهم ناراً حقيقيّة ، لأن لفظة « النار » وردت فى الإنجيل ، فقال محققوهم : نار قلبيّة ، أى نفسيّة روحانية ، وقال الأقلون : نار كهذه النار . ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدنىّ ، فقال : الرّعدة وصرير الأسنان ؛ فأمّا الجنّة بمعنى الأكل والشرب والجماع ؛ فإنه لم يقل منهم قائل به أصلاً ، والإنجيل صرّح بانتفاء ذلك فى القيامة تصريحا لا يبقى بعده ريب لمرتاب ؛ وجاء خاتم الأنبياء محمد

(١) سورة الجن ١٦ .

صلى الله عليه وسلم فأثبت المعاد على وجه محقق كامل ؛ أكمل مما ذكره الأولان ، فقال : إن البدن والنفس معاً مبعوثان ؛ ولكل منهما حظ في الثواب والعقاب .

وقد شرح الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع في رسالة له في المعاد ، تعرف " بالرسالة الأضحوية " شرحاً جيداً،فقال : إن الشريعة المحمدية أثبتت في القيامة رد النفس إلى البدن ، وجعلت للمثاب والمعاقب ثواباً وعقاباً بحسب البدن والنفس جميعاً ؛ فكان المثاب اللذات بدنية من حور عين وولدان مخلدين وفاكهة مما يشتهون ، وكأس لا يصدعون عنها ولا ينزفون،وجنات تجري من تحتها الأنهار،من لبن وعسل وخمر وماء زلال ، وسرر وأرائك وخيام وقباب ، فرشها من سندس وإستبرق؛وما جرى مجرى ذلك . ولذات نفسانية من السرور ومشاهدة الملكوت والأمن من العذاب والعلم اليقيني بدوام ما هم فيه ، وأنه لا يتعقبه عدم ولا زوال، والخلو عن الأحزان والمخاوف والمعاقب عقاب بدني ؛ وهو المقامع من الحديد ، والسلاسل ، والحريق والجحيم والشياطين والضرائع والجلود التي كلما نضجت بدلوا جلوداً غيرها ، وعقاب نفساني من اللعن والخزي والخجل والندم والخوف الدائم واليأس من الفرج ، والعلم اليقيني بدوام الأحوال السيئة التي هم عليها .

قال : فوفت الشريعة الحكمية حقها من الوعد الكامل ، والوعيد الكامل؛وبهما ينتظم الأمر ، وتقوم الملة ؛ فأما النصارى،وماذهبوا إليه من أمر بعث الأبدان، ثم خلوها في الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح ، فهو أركّ ماذهب إليه أرباب الشرائع وأسخفه ، وذلك أنه إن كان السبب في البعث ، هو أن الإنسان هو البدن ،أو أن البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة ، فوجب أن يبعث ، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك ، فإنه يوجب أن يثاب البدن ويعاقب بالثواب والعقاب البدني المفهوم عند العالم ، وإن كان الثواب والعقاب روحانيا ؛ فما الغرض في بعث الجسد ؟ ثم ما ذلك

الثواب والعقاب الروحانيان ! وكيف نصوّر العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا ! كلّا بل لم نصوّر لهم الشريعة النّصرانية من ذلك شيئاً ، غير أنّهم يكونون فى الآخرة كالملائكة ، وهذا لا يفي بالترغيب التـام ، ولا ماذكروه من العقاب الروحانيّ — وهو الظلمة وخبث النفس — كاف فى الترهيب والذى جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه .

انقضى كلام هذا الحكيم .

* * *

فأمّا كون الاستغفار سبباً لنزول القطر ودرور الرزق ، فإنّ الآية بصريحها ناطقة به ، لأنّها أمرٌ وجوابه ، قال : ﴿استغفروا ربّكم إنه كان غفارا ۞ يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ ، كما تقول : قم أكرمْك ، أى إن قمت أكرمتك . وعن عمر أنّه خرج يستسقى ، فزاد على الاستغفار ، فقيل له : مارأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح[1] السماء التى يُستنزل بها المطر .

وعن الحسن أنّ رجلا شكا إليه الجدْب ، فقال : استغفر الله ، فشكا آخرُ إليه الفقر ، وآخر قلّة النسل ، وآخر قلّة ريْع أرضه ، فأمرهم كلّهم بالاستغفار ، فقال له الربيع ابن صبيح : رجال أتوك يشكون أبواباً ، ويشكون أنواعا فأمرتهم كلّهم بالاستغفار ، فتلا له الآية .

قوله : « استقبل توبته » أى استأنفها وجدّدها . واستقال خطيئته : طلب الإقالة منها والرحمة . وبادر منيّته : سابق الموت قبل أن يدهمه .

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٦ ، قال : « المجاديح ، واحدها مجدح ، والياء زائدة للإشباع ، والقياس أن يكون واحدها « مجداح » ؛ فأما « مجدح » فجمعه مجادح ، والمجدح : نجم من النجوم ؛ قيل : هو الدبران ، وقيل : هو ثلاثة كواكب كالأثافى تشبيها بالمجدح الذى له ثلاث شعب ؛ وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مشبها بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون ، لا قولا بالأنواء ، وجاء بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد الأنواء جميعها التى يزعمون أن من شأنها المطر » .

قوله عليه السلام : « لا تُهلِكْنا بالسنين » جمع : سَنَة ، وهى الجدْب والمحْل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾[1] ، وقال النبىّ صلى الله عليه وآله بدعو على المشركين : « اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف » ، والسَّنة لفظ محذوف منه حرف ، قيل إنه الهاء ، وقيل الواو ، فمن قال : المحذوف هاء ، قال : أصله « سَنْهة » مثل جَبْهة ، لأنهم قالوا : نخلة سَنْهاء ، أى تحمل سَنَة ولا تحمل أخرى ، وقال بعض الأنصار :

فليست بسنهاء ولا رُجَّبِيَّـــةٍ ولكنْ عرايا فى السنين الجوائح[2]

ومن قال أصلها الواو ، احتجّ بقولهم : أسنَى القومُ يُسنون إسناء ، إذا لبثوا فى المواضع سَنَة ، فأمّا التصغير فلا يدلّ على أحد المذهبين بعينه ، لأنه يجوز سُنَيَّة وسُنَيْهة ، والأكثر جمعها بالواو والنون « سِنون » بكسر السين كما فى هذه الخطبة ، وبعضهم يقول : « سُنُون » بالضم .

والمضايق الوَعْرة ، بالتسكين ، ولا يجوز التحريك ، وقد وَعُر هذا الشئ ، بالضم وُعورة ، وكذلك توعّر ، أى صار وَعْرا ، واستوعرتُ الشئ : استصعبتُه .

وأجاءتنا : ألجأتنا ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[3] .

والمقاحط المجدبة : السنون المحلة ، جمع مَقْحَطة .

وتلاحمت : اتصلت .

والواجم : الذى قد اشتدّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام ، والماضى « وَجَم » بالفتح يجم وُجوما .

قوله : « ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقايسنا بأعمالنا » ، أى لا تجعل جواب دعائنا لك ماتقتضيه ذنوبنا ؛ كأنه يجعله كالمخاطب لهم ، والمجيب عمّا سألوه إياه ، كما يفاوض الواحدُ

---

(١) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٢) اللسان (سنه) ، ونسبه إلى سويد بن الصامت الأنصارى .

(٣) سورة مريم ٢٣ .

منّا صاحبَه ويستعطفه ، فقد يحبيه ويخاطبه بما يغضبه ذنبُه إذا اشتدّت موجدته عليه ونحوه .

ولا تقايسنا بأعمالنا ، قِسْتُ الشيء بالشيء إذا حذوته ومثّلته به ، أي لا تجعل ما تجيبنا به مقايساً ومماثلاً لأعمالنا السيّئة .

قوله : « سُقْيا نافعة » هي « فُعْلَى » مؤنثة غير مصروفة .

والحيا : المطر . ونافعة مروية : مسكّنة للعطش ، نقَع الماء العطش نَقْعاً ونُقوعاً سكّنه ، وفي المثل : « الرَّشْف أنْقَع » أي أنّ الشراب الذي يُرْشَف قليلاً قليلاً أنجع وأقطع للعطش ، وإن كان فيه بطء .

وكثيرة المجنى ، أي كثيرة الكلأ ، والكلأ : الذي يُجنى ويرعى . والقيعان : جمع قاع ، وهو الفلاة .

والبُطنان : جمع بَطْن ، وهو الغامض من الأرض ، مثل ظَهْر وظُهْران وعَبْد وعُبدان .

(١٤٤)

الأصل

ومن خطبة له عليه السلام:

بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ ؛ لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ .

أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً ؛ لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ : أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً ، وَالْعِقَابُ بَوَاءً .

أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا ، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا ؛ أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ ؛ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى ، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى .

إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ، غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ .

* * *

الشرح :

أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [(٢)] .

(١) سورة النساء ١٦٥
(٢) سورة الإسراء ١٥

فإن قلت : فهــذا يناقضُ مذهبَ المعتزلة فى قولهم بالواجبات عقلا ، ولو لم تبعث الرسل !

قلت : صحّة مذهبهم تقتضى أن تُحمـل عمومُ الألفاظ على أنّ المراد بها الخصوص ، فيكون التأويل : لئلا يكون للناس على الله حجّة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه ولا قبحه ، كالشرعيّات ، وكذلك : «وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولا» على مالم يكن العقل دليلًا عليه حتى نبعثَ رسولا .

الإعذار : تقديم العذر . ثم قال : إن الله تعالى كشف الخلق بما تعبّـدهم به من الشرعيّات على ألسنة الأنبياء ، ولم يكن أمرُهم خافيا عنه ، فيحتاج إلى أن يكشفهم بذلك ، ولـكنّه أراد ابتلاءهم واختبـارهم ، ليعلم أيُّهم أحسن عملا ، فيعاقب المسىء ، ويثيب المحسن .

فإن قلت : الإشكال قائم ، لأنّه إذا كان يعلم أيُّهم يحسن ، وأيُّهم يسىء ، فما فائدة الابتلاء ؟ وهل هو إلا محض العبث !

قلت : فائدة الابتلاء إيصـال نفع إلى زيد لم يكن ليصحّ إيصاله إليه إلا بواسطة هذا الابتلاء ، وهو ما يقوله أصحابنا : إنّ الابتداء بالثواب قبيح ، والله تعالى يستحيل أن يفعل القبيح .

قوله : «وللعقاب بَوَاء» أى مكافأة ، قالت ليلى الأخيلية :

فإن تـكنِ القتلى بَوَاءً فإنّــكم فتًى ماقتلتم آلَ عوف بن عامر[1]

وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضا ، إذا قتلته به ، وقد باء الرجل بصاحبه أى قُتل به

(١) فى مقتل توبة بن الحمير ، اللسان ١ : ٢٩ .

وفى المثل : « باءت عرَارٌ بكَحْلَ »[1] وهما بقرتان ؛ قتلت إحداهما بالأخرى وقال مهلهل لبُجير لما قتل : « بُؤْبِشِسْع نعل كليب » .

قوله عليه السلام « أين الذين زعموا » ، هذا الكلام كناية وإشارة إلى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل ؛ فمنهم مَنْ كان يدّعى له أنه أفرَض ، ومنهم من كان يدعى له أنه أقرأ ، ومنهم كان يدّعى له أنه أعلم بالحلال والحرام . هذا مع تسليم هؤلاء له أنه عليه السلام أقضى الأمة ، وأنّ القضاء يحتاج إلى كلّ هذه الفضائل ، وكلّ واحدة منها لا تحتاج إلى غيرها ، فهو إذنْ أجمع للفقه وأ كثرهم احتواء عليه ، إلاّ أنه عليه السلام لم يرض بذلك ولم يصدق الخبر الذى قبل : « أفرَضكم فلان » إلى آخره فقال : إنه كذب وافتراء حمل قوما على وضعه الحسدُ والبغى والمنافسة لهذا الحىّ من بنى هاشم ؛ أن رفعهم الله على غيرهم ، واختصّهم دون مَنْ سواهم .

وأنْ هاهنا للتعليل ، أى « لأنْ » ، فحذف اللام التى هى أداة التعليل على الحقيقة، قال سبحانه : ﴿ بِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] : وقال بعض النحاة لبعض الفقهاء الزاعمين أن لا حاجة للفقه إلى النحو : ماتقول لرجل قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ فقال : لايقع إلاّ بالدخول ، فقال : فإن فتح الهمزة ؟ قال: كذلك، فعرّفه أنّ العربيّة نافعة فى الفقه ، وأنّ الطلاق منجّز لا معلّق ، إن كان مرادُه تعليل الطلاق بوقوع الدخول لا اشتراطه به .

ثم قال : « بنا يُستعطى الهُدَى » ، أى يطلب أن يعطَى ، وكذلك « يستجلى » أى يطلَبُ جلاؤه .

ثم قال : إنّ الأئمة من قريش ... إلى آخر الفصل .

* * *

(١) المثل فى اللسان ١٤ : ١٠٣ ، قال : ومن أمثالهم : « باءت عرار بكحل » ؛ إذا قتل القاتل بمقتوله ؛ يقال : كانتا بقرتين فى بنى إسرائيل ، قتلت إحداهما بالأخرى وقل عن ابن برى : كحل بمنزلة « دعد » يصرف ولا يصرف .

(٢) سورة المائدة ٨٠ .

[اختلاف الفرق الإسلامية فى كون الأئمة من قريش]

وقد[1] اختلف الناس فى اشتراط النسب فى الإمامة ، فقال قوم من قدماء أصحابنا : إنّ النسب ليس بشرط فيها أصلاً ، وإنها تصلح فى القرشىّ وغير القرشىّ إذا كان فاضلا مستجمعاً للشرائط المعتبرة ، واجتمعت الكلمة عليه ، وهو قول الخوارج .

وقال أ كثرُ أصحابنا وأ كثرُ الناس : إنّ النسب شرط فيها ، وأنّها لا تصلح إلا فى العرب خاصّة ؛ ومن العرب فى قريش خاصة . وقال أ كثرُ أصحابنا : معنى قول النبى صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قريش » إنّ القرشيةَ شرط إذا وُجِد فى قريش من يصلح للإمامة ؛ فإن لم يكن فيها مَنْ يصلح ، فليست القرشية شرطاً فيها .

وقال بعضُ أصحابنا : معنى الخبر أنه لا تخلو قريش أبداً ممنْ يصلح للإمامة ، فأوجبوا بهذا الخبر وجود مَنْ يصلُح من قريش لها فى كلّ عصر وزمان .

وقال معظم الزّيدية : إنها فى الفاطميّين خاصة من الطالبيّين ، لا تصلُح فى غير البطنيْن ، ولا تَصحّ إلاّ بشرط أن يقومَ بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس . وبعض الزيدّية يجيز الإمامة فى غير الفاطميّين من ولد علىّ عليه السلام ؛ وهو من أقوالهم الشاذّة .

وأما الراوندية فإنّهم خَصّصُوها بالعبّاس رحمه الله وولده من بين بطون قريش كلها ؛ وهذا القولُ هو الّذى ظهر فى أيام المنصور والمهدىّ ، وأما الإمامية فإنهم جعلوها سارية فى ولد الحسين عليه السلام فى أشخاص مخصوصين ، ولا تصلح عندهم لغيرهم .

وجعلها الكيْسانية فى محمد بن الحنفيةْ وولده ، ومنهم مَنْ نقلها منه إلى ولد غيره .

فإن قلت : إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم ، فما قولك فى هذا

---

(١) كذا فى ا ، ب وفى د : « قد » .

الـكلام وهو تصريح بأنّ الإمامة لا تصلح من قريش إلا فى بنى هاشم خاصّة ، وليس ذلك بمذهب المعتزلة ؛ لا متقدّميهم ولا متأخريهم !

قلت : هذا الموضع مشكل ، ولى فيه نظر ؛ وإن صحّ أنّ عليا عليه السلام قاله ، قلتُ كما قال ، لأنه ثبت عندى أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال : « إنه مع الحق ، وإنّ الحق يدور معه حيثما دار » ، ويمكن أن يتأوّل ويطبّق على مذهب المعتزلة ، فيحمل على أن المراد به كمالُ الإمامة كما حمل قوله صلى الله عليه وآله : « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » ، على نفى الـكمال ، لا على نفى الصّحة .

* * *

الأصْـلُ :

منها :

آثَرُوا عَاجِلاً ، وَأَخَّرُوا آجِلاً ، وَتَرَكُوا صَافِياً ، وَشَرِبُوا آجِناً ؛ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنكَرَ فَأَلِفَهُ ، وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلاَئِقُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لاَ يُبَالِى مَا غَرَّقَ ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِى الْهَشِيمِ لاَ يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ .

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى ، وَالأَبْصَارُ اللاَّمِحَةُ إِلَى مَنَازِلِ التَّقْوَى ! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِى وُهِبَتْ لِلَّهِ ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ ، وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا ، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا !

* * *

الشرح :

آثروا : اختاروا . وأخّروا : تركوا الآجن : الماء المتغير . أجَن الماء يأجُن ويأجِن.

وتبَيْ به : ألفه، وناقة بَسُوء : ألفت الحالب ولا[1] تمنعه . وشابت عليه مفارقه :طال عهده به مُذ زَمن الصّبا حتى صار شيخا . وصيفت به خلائقه ماصارت طبعاً لأنّ العادة طبيعة ثانية .

مُزْبِداً ، أى ذو زَبَد ، وهو مايخرج من الفم كالرغوة ؛ يضرب مثلا الرجل الصائل المقتحم .

والتيّار : معظم اللجّة ، والمراد به هاهنا السّيل والهشيم : دقاق الحطب .

ولا يحفّل ، بفتح حرف المضارعة ؛ لأن الماضى ثلاثى ، أى لا يبالى.

والأبصار اللامحة : الناظرة . وتشاحّوا : تضايقوا ، كلٌّ منهم يريد ألّا يفوته ذلك، وأصله الشحّ وهو البخل .

فإن قلت : هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين تقدّم ذكرهم فى أول الخطبة !

قلت : لا ؛ وإن زعم قوم أنّه عناهم ؛ بل هو إشارة إلى قوم ممّن يأتى من الخلف بعد السلف ، ألا تراه قال : كأنى أنظر إلى فاسقهم قد صحب المنكر فألفه ؛ وهذا اللفظ إنما يقال فى حق من لم يوجد بعد ، كما قال فى حقّ الأتراك : « كأنّى أنظر إليهم قوماً كأنّ وجوههم المجانّ » ، وكما قال فى حق صاحب الزنج : « كأنّى به يا أحنف قد سار فى الجيش » ، وكما قال فى الخطبة التى ذكرناها آنفا : « كأنّى به قد نَعَق بالشام » يعنى به عبد الملك . وحوشى عليه السلام أن يعنى بهذا الكلام الصحابة ، لأنهم ما آثروا العاجل ، ولا أخّروا الآجل، ولا صحبوا المنكر ، ولا أقبلوا كالتيّار : لايبالى ماغرّق ، ولا كالنار لايبالى ماأحرقت، ولا ازدحموا على الحطام، ولا تشاحّوا على الحرام، ولا صُرِفوا عن الجنة وجوههم، ولا أقبلوا

(١) ج : « ولا تمنعه » .

إلى النار بأعمالهم ، ولا دعاهم الرحمن فولّوا ، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا . وقد علم كلّ أحد حُسْنَ سيرتهم ، وسَدَاد طريقتهم وإعراضهم عن الدنيا وقد ملكوها ، وزهدهم فيها وقد تمكّنوا منها ، ولولا قوله : « كأنّي أنظر إلى فاسقهم » لم أبعد أن يبقىَ بذلك قوم ممن عليه اسم الصحابة وهو رديء الطريقة ، كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ، ومَرْوان بن الحكم ، ومعاوية ، وجماعة معدودة أحبّوا الدنيا واستغواهمُ الشّيطان ؛ وهم معدودون في كتب أصحابنا ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم .



(١٤٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ المَنَايَا؛ مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ، وَفِي كُلِّ أُكْلَةٍ غَصَصٌ ؛ لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أُكُلِهِ ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ ؛ وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ ، إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ ، وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ ، إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ !

• • •

الشرح .

الغَرَض : ما ينصب ليُرمى ، وهو الهدف . وتنتضل فيه المنايا : تترامى فيه للسَّبْق ، ومنه الانتضال بالكلام وبالشعر[١] ، كأنه يجعل المنايا أشخاصاً تتناضل بالسهام؛ من الناس مَنْ يموت قتلًا ، ومنهم مَنْ يموت غرقاً ، أو يتردّى في بئر ، أو تسقط عليه حائط، أو يموت على فراشه .

ثم قال : « مع كل جَرْعة شَرَق ، وفي كلّ أُكلة غَصص » : بفتح الغين ، مصدر قولك : غَصِصْتَ يافلان بالطعام ، وروى : « غُصَص » جمع غُصّة ، وهي الشجا ، وهذا مثل قول بعضهم : المنحة فيها مقرونة بالمحنة ، والنعمة مشفوعة بالنقمة .

---

(١) في ا ، ب : « الشعر » ، وما أثبته من د ، ح .

وقد بالغ بعض الشعراء فى الشكوى ، فأتى بهذه الألفاظ ، لكنه أسرف ، فقال :

حَظِّى من العيش أَكْلٌ كلُّه غُصَصٌ   مرُّ المذاق ، وشربٌ كلّه شَرَقُ

ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه أنّ نعيم الدنيا لا يدوم ، فإذا أحسنتْ أساءت ، وإذا أنعمت أنقمت .

ثم قال : « ولا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى » ، هذا معنى لطيف ، وذلك أنّ الإنسان لا يتهيّأ له أن يجمع بين الملاذّ الجسمانية كلّها فى وقت ، فحال مايكون آكلا لايكون مجامعاً ، وحال مايشرب لا يأكل ، وحال مايركب للتنّزه والرّياضة ، لا يكون جالساعلى فراش وثير ممهد ؛ وعلى هــذا القياس لا يأخذ فى ضَرْب من ضُروب الملاذّ إلّا وهو تارك لغيره منها .

ثم قال : « ولا يعمّر معمّر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله » ، وهذاأيضا لطيف ، لأنّ المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقطعه ، ويوم السبت من أيام عُمره ، فإذاً قد هدم من عمره يوما ، فيكون قد قرب إلى الموت ، لأنه قد قطع من المسافة جزءاً .

ثم قال : « ولا تجدد له زيادة فى أكله إلا بنفاد ماقبلها من رزقه » ، وهذا صحيح فإنْ فسّرنا الرزق بما وصل إلى البطن على أحد تفسيرات المتكلمين ، فإن الإنسان لا يأكل لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التى قبلها ، فهو إذاً لا يتجدد له زيادة فى أكله إلا بنفاد ماقبلها من رزقه .

ثم قال : « ولا يحيا له أثر ، إلا مات له أثر » ، وذلك أنّ الإنسان فى الأعمّ الأغلب لا ينتشر صيتُه ويشيع فضلُه إلا عند الشيخوخة ، وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم فى الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنه ، فإذاً ماحيى له أثر إلا بعد أن مات له أثر ، وهو قوّته ونشاطه وشبيبته ، ومثله قوله : « ولا يتجدّد له جديد ، إلا بعد أن يخلَق له جديد » .

ثم قال : « ولا تقوم له ناجة إلا ونسفط منه محصودة » ؛ هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم فى الأمر الأغلب ، ولهذا قال : « وقد مضت أصولٌ نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله » ؛ وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى ، فقالوا فيه وأكثروا ؛ نحو قول الشاعر :

فإنْ أنتَ لم تصدُقْكَ نفسك فانتسِبْ لعلّك تهديكَ القُرونُ الأوائلُ[1]
فإنْ لم تجدْ من دونِ عَدْنَانَ والداً ودون مَعـــدٍّ فَلْتَزَعْكَ العواذِلُ

وقال الشاعر :

فعـددتُ آبائى إلى عِرْقِ الثرى فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
لابدّ من تلفٍ مصيبٍ فانتظرْ أبأرض قومك أم بأخرى تُصرَعُ ؟

وقد صرّح أبو العتاهية بالمعنى ؛ فقال :

كلّ حياة إلى ممـاتٍ وكلُّ ذى جِــدَّةٍ يحولُ
كيف بقاء الفروع يوماً وقد ذوتْ قبلها الأصولُ !

* * *

الأصْـلُ :

منها :

وَمَا أُحْدِثَتْ بِدعَةٌ إلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ ؛ فَاتَّقُوا الْبِدَعَ ، وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ . إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا ، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا .

* * *

(١) لبيد ، ديوانه ٢ : ٢٧ ، ٢٨ .

الشرح :

البدعة : كل ما أحدث مما لم يكنْ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمنها الحسن كصلاة التراويح ، ومنها القبيح كالمنكرات التى ظهرت فى أواخر الخلافة العثمانية ؛ وإن كانت قد[1] تُكُلِّفت الأعذار منها .

ومعنى قوله عليه السلام : « ما أحدِثتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنة » ؛ أنّ من السنّة ألّا تحدث البدعة ، فوجود البدعة عدمٌ للسنّة لامحالة .

والمهيَع :الطريق الواضح ،من قولهم: أرض هيعة ، أى مبسوطة واسعة ؛ والميم مفتوحة وهى زائدة .

وعوازم الأمور : ماتقادم منها ، من قولهم : عجوزٌ عوْزم أى مسنّة ، قال الراجز :

لقد غــدوتُ خلَقَ الثياب أحِلُّ عِذْلين من التّراب[2]

لِعَوْزَمٍ وصِبْيَةٍ سِغاب فـآكِلٌ ولاحسٌ وآبِى

ويجمع « فوعل » على فواعل ، كدورق ، وحَوْجل ، ويجوز أن يكون «عوازم» جمع عازمة ، ويكون فاعل بمعنى مفعول، أى معزوم عليها ، أى مقطوع معلوم بيقين صحتها، ومجىء « فاعلة » بمعنى « مفعولة » كثير ، كقولهم :عيشة راضية بمعنى مرضيّة ،والأوّل أظهر عندى ، لأنّ فى مقابلته قوله : « وإنّ محدَثاتها شرارها » ،والمحدَث فى مقابلة القديم.

---

(١) ساقط من ا .
(٢) اللسان ١٥ : ٢٩٥ (عن الفراء) .

(١٤٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر في الشخوص لقتال الفرس بنفسه :

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُمَا[1] طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ؛ وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالِاجْتِمَاعِ؛ فَكُنْ قُطْباً وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ؛ فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ؛ وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ؛ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

* * *

(١) مخطوطة النهج : « حيث ».

الشرح :

نظام العقد : الخيط الجامع له ، ونقول : أخذته كلّه بجذافيره ، أى بأصله ؛ وأصل الجذافير أعالى الشيء ونواحيه ؛ الواحد جذفار .

وأصليهم نار الحرب : اجعلهم صالين لها ، يقال: صليتُ اللحم وغيره أصليه صَلْياً ، مثل رميته أرميه رَمْياً ، إذا شويته ، وفى الحديث أنه صلى الله عليه وآله أُتى بشاة مَصْلِيّة[1] ، أى مشويّة . ويقال أيضاً : صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلتَ : أصليتُه بالألف ، وصلّيته تصلية ، وقرئ : ﴿ وَيُصَلَّى سَعِيرًا ﴾[2] ومن خفّف فهو من قولهم : صَلِيَ فلان بالنار ـ بالكسر ـ يَصْلَى صِلِيّاً احترق ، قال الله تعالى : ﴿ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴾[3] ويقال أيضاً : صَلِيَ فلانٌ بالأمر ؛ إذا قاسى حَرّه وشدّته ، قال الطُّهَوِىّ :

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ صَلُوا بِالحَرْبِ حِيناً بعد حِينِ[4]

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو مجاز من الإحراق ، والشيء الموضوع لها هذا اللفظ حقيقة .

والعورات : الأحوال التى يخاف انتقاضها فى ثغر أو حرب ، قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾[5] . والكَلَب : الشرّ والأذى .

* * *

[يوم القادسية]

واعلم أنّ هذا الكلام قد اختلف فى الحال التى قاله فيها لعمر ، فقيل : قاله له فى

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٧٣ .
(٢) سورة الانشقاق ١٢ ، وهى قراءة الحرميين وابن عامر والكسائى ، تفسير القرطبى ١٩ : ٢٧٠ .
(٣) سورة مريم ٧٠ .
(٤) لأبى الغول الطهوى ، ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقى ١ : ٤١ .
(٥) سورة الأحزاب ١٣ .

غَزَاة القادسيّة ، وقيل في غزَاة نهاوند . وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبريّ في " التاريخ الكبير " . وإلى القول الأول ذهب المدائنيّ في كتاب " الفتوح " ؛ ونحن نشير إلى ماجرى في هاتين الوقعتين إشارة خفيفةً على مذهبنا في ذكر السِّيَر والأيام .

فأما وقعة القادسيّة فكانت في سنة أربعَ عشرة للهجْرة ؛ استشار عمر المسلمين في أمر القادسيّة ، فأشار عليه عليّ بن أبي طالب - في رواية أبي الحسن عليّ بن محمد بن سيف المدائنيّ - ألا يخرج بنفسه ، وقال : إنّك إن تخرُجْ لا يكنْ للعجم همّة إلا استئصالك ، لعلمهم أنّك قطبُ رحا العرب ، فلا يكون للإسلام بعدها دولة . وأشار عليه غيره من الناس أن يخرُج بنفسه ، فأخذ برأي عليّ عليه السلام .

وروى غيرُ المدائنيّ أنّ هذا الرأي أشار به عبد الرحمن بن عوف ؛ قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبريّ : لما بدا لعمر في المقام بعد أنْ كان عزم على الشخوص بنفسه ، أمّر سعد ابن أبي وقّاص على المسلمين ، وبعث يزدَجرد رستمَ الأرمنيّ أميرا على الفرس ، فأرسل سعدٌ النّعمانَ بن مقرّن رسولا إلى يزدَجرد ، فدخل عليه ، وكلّمه بكلام غليظ ، فقال يزدَجرد : لولا أنّ الرّسل لا تقتَل لقتلتُك ، ثم حمّله وِقراً من تراب على رأسه ، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن ، وقال : ارجع إلى صاحبك ، فقد كتبتُ إلى رستم أن يدفنه وجنده من العرب في خندق القادسيّة ؛ ثم لأشغلن العرب بعدها بأنفسهم، ولأصيبنّهم بأشدّ مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف . فرجع النّعمان إلى سعد فأخبره ، فقال : لا تخفْ ، فإنّ الله قد ملّكنا أرضهم تفاؤلا بالتراب .

قال أبو جعفر : وتثبّط رستم عن القتال وكرهه ، وآثر المسالمة ، واستعجله يزدَجرد مرارا ، واستحثّه على الحرب ، وهو يدافع بها ، ويرى المطاولة . وكان عسكره مائةً وعشرين ألفاً

وكان عسكر سعد بضعا وثلاثين ألفا ، وأقام رستمُ بريدا من الرجال ، الواحد منهم إلى جانب الآخر ، من القادسية إلى المدائن ، كلما تكلّم رستم كلمة أداها بعضهم إلى بعض ، حتى تصل إلى سمع يزدجرد في وقتها ، وشهد وقعة القادسية مع المسلمين طُليحة بن خويلد ، وعمرو بن معديكرب ، والشماخ بن ضرار ، وعَبْدة بن الطبيب الشاعر ، وأوس بن مغراء الشاعر ، وقاموا في الناس يُنشدونهم الشعر ويحرّضونهم ، وقرن أهلُ فارس أنفسهم بالسلاسل لئلا يهربوا ، فكان المقرّنون منهم نحو ثلاثين ألفا ، والتحم الفريقان في اليوم الأول ، فحملت الفيلة التي مع رستم على الخيل فطحنتها ، وثبت لها جمع من الرجّالة ، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلا ، منها فيل الملك ، وكان أبيض عظيما ، فضربت الرجال خراطيم الفيلة بالسيوف فقطعتها ، وارتفع عُواؤها ، وأصيب في هذا اليوم — وهو اليوم الأول — خمسمائة من المسلمين ، وألفان من الفرس . ووصل في الثاني أبو عبيدة بن الجراح من الشام في عساكر من المسلمين ؛ فكان مددا لسعد ؛ وكان هذا اليوم على الفرس أشدّ من اليوم الأول ، فقتل من المسلمين ألفان ، ومن المشركين عشرة آلاف . وأصبحوا في اليوم الثالث على القتال ، وكان عظيما على العرب والعجم معا ، وصبر الفريقان ، وقامت الحرب ذلك اليوم ؛ وتلك الليلة جمعاء لا ينطقون ، كلامهم الهرير ، فسمّيت ليلة الهرير .

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم ، وانقطع سعد إلى الصلاة والدعاء والبكاء ، وأصبح الناس حَسْرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر ، فأرسل الله تعالى ريحا عاصفا في اليوم الرابع ، أمالت الغبار والنقع على العجم ، فانكسروا ، ووصلت العرب إلى سرير رستم ، وقد قام عنه ليركب جملا ، وعلى رأسه العلم ، فضرب هلال بن علقمة الحِمْل الذي رستم فوقه ، فقطع حباله ، ووقع على هلال أحد العدلين ، فأزال فقار ظهره ، ومضى رستم نحو العتيق ، فرمى نفسه فيه ، واقتحم هلال عليه ، فأخذ

برجله ، وخرج به بجرّه حتى ألقاه تحت أرجُل الخيل ، وقد قتله وصعد السرير ، فنادى : أنا هلال ، أنا قاتل رستم ،فانهزمت الفرس ، وتهافتوا[1] في العقيق،فقتل منهم نحو ثلاثين ألفا ، ونهبت أموالُهم وأسلابهم ؛ وكانت عظيمة جدًّا ، وأخذتِ العربُ منهم كافوراً كثيرا ، فلم يعبئوا به،لأنهم لم يعرفوه ، وباعوه من قوم بملح ، كيلاً بكيل،وسرُّوا بذلك وقالوا : أخذنا منهم ملحا طيّبا ، ودفعنا إليهم ملحا غير طيّب ، وأصابوا من الجامات من الذهب والفضة مالا يقع عليه العدّ لكثرته ؛ فكان الرجل منهم يعرض جامَيْن من ذهب على صاحبه ، ليأخذ منه جاماً واحداً من فضة يعجبه بياضها ويقول : من يأخذ صفراوين ببيضاء !

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر ، فكتب إلى سعد : لا تتبع الفُرْس ، وقِفْ مكانك واتّخذه منزلا . فنزل موضعَ الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها ، وبنى فيها الخِطَط للعرب[2] .

• • •

[يوم نهاوند]

فأمّا وقعة نَهاوند ، فإنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبري ذكر في كتاب التاريخ[3]:أنّ عمر لما أراد أن يغزوَ العجم وجيوش كسرى وهي مجتمعة بنهاوَنْد ، استشار الصحابة ، فقام عثمان فتشهد ، فقال : أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم،وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم،ثم تسيرأنت بأهل هذين الحرَمَيْن إلى المِصرين : البصرة والكوفة ، فتلقى جمعَ المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرتَ

---

(١) تاريخ الطبري (حوادث سنة ١٤) .
(٢) تهافت على الشيء : تساقط وتتابع ؛ وأكثر استعماله في الشر .
(٣) تاريخه (حوادث سنة ٢١)

بين معك ومَنْ عندك ، قلَّ في نفسك ماتكاثر من عدد القوم ، وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر ؛ إنك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم[1] باقية ، ولا تمتّعْ من الدنيا بعزيز ، ولا تكون منها في حرز حريز . إنّ هذا اليوم له مابعده ، فاشهد بنفسك ورأيك وأعوانك ، ولا تغِبْ عنه .

قال أبو جعفر : وقام طلحة ، فقال : أمّا بعد يا أمير المؤمنين ؛ فقد أحكمتك الأمور ، وجرّستك البلايا ، وحنّكتك[2] التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا ننبو في يديك ، ولا نكِلُ أمرَنا إلا إليك ، فأمرْنا نُجِبْ ، وادعنا نُطِعْ ، واحملنا نركبْ ، وقُدْنا ننقدْ ، فإنك وليّ هذا الأمر ، وقد بلوتَ وجرّبت واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار .

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : أمّا بعد ، فإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرةٍ ولا قلّة ، إنما هو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزّه ، وأمدّه بالملائكة ، حتى بلغ مابلغ ، فنحن على موعودٍ من الله ، والله منجزٌ وعدَه ، وناصر جنده ، وإنّ مكانك منهم مكانُ النظام من الخرَز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرّق مافيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا ؛ والعرب اليوم وإن كانوا قليلا ، فإنهم كثيرٌ عزيز بالإسلام ؛ أقم مكانك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، فإنّهم أعلامُ العرب ورؤساؤهم ، وليشخص منهم الثلثان ، وليقم الثلث ، واكتُبْ إلى أهل البصرة أن يمدُّوهم ببعض مَنْ عندهم ، ولا تُشخص الشام ولا اليمن ، إنّك إن أشخصت أهل الشام من شامهم ، سارت الروم إلى ذراريّهم ، وإن أشخَصت أهلَ اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريّهم ، ومتى شخصتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليك العرب من أقطارها وأطرافها ، حتى يكون ماتدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العوْرات والعيالات . إنّ الأعاجم إن ينظروا

(١) الطبري : «العرب» .
(٢) الطبري : «واحتنكتك» .

إليك غداً قالوا : هذا أميرُ العرب وأصلهم ؛ فكان ذلك أشدَّ لكَلَبِهم عليك . وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم ، فإنّ الله هو أكرهُ لسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ؛ وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنّا نقاتل بالصبر والنصر .

فقال عمر : أجلْ ! هذا الرأى ، وقد كنت أحبّ أن أتابع عليه ، فأشيروا علىّ برجل أولّيه ذلك الثّغر . قالوا : أنت أفضل رأياً ، فقال: أشيروا علىّ به ، واجعلوه عراقيًّا قالوا : أنت أعلم بأهل العراق ، وقد وَفَدُوا عليك ، فرأيتَهم وكلّمتَهم . قال : أما والله لأولّين أمرَهم رجلاً يكون غداً لأول الأسِنّة ، قيل : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : النعمان بن مقرّن ، قالوا : هو لها .

وكان النّعمان يومئذ بالبصرة ، فكتب إليه عمر ، فولاّه أمرَ الجيش .

قال أبو جعفر : كتب إليه عمر : سِرْ إلى نهاوند ، فقد ولّيتُك حربَ الفيروزان — وكان المقدَّم على جيوش كسرى — فإن حَدَثَ بك حدثٌ فعلى الناس حُذيفة بن اليمان ، فإن حدث به حدث فعلى الناس نعيم بن مقرّن ، فإن فتح الله عليكم فاقسِمْ على الناس ما أفاء الله عليهم ، ولا ترفع إلىّ منه شيئاً ، وإن نكث القوم فلا تراني ولا أراك ؛ وقد جعلتُ معك طُلَيحة بن خويلد ، وعَمرو بن معد يكرب ، لعلمهما بالحرب ، فاستشرهما ولا تولّهما شيئاً .

قال أبو جعفر : فسار النّعمان بالعرب حتى وافى نَهاوند ، وذلك فى السنة السابعة من خلافة عمر ، وتراءى الجمعان ، ونشب القتال ، وحَجَزهم المسلمون فى خنادقهم ، واعتصموا بالحصون والمدُن ، وشقّ على المسلمين ذلك ، فأشار طليحة عليه ، فقال : أرى أنْ تبعث خيلاً يبعض القوم وتحمّشهم[1] ، فإذا استحمشوا خرج بعضهم ، واختلطوا بكم

(١) تحمشهم : تهيجهم .

فاستطردوا لهم ، فإنهم يطمعون بذلك ، ثم نعطف عليهم حتى يقضيَ الله بيننا وبينهم بما يحبّ .

ففعل النعمان ذلك ، فكان كما ظنّ طليحة ، وانقطع العجم من حصونهم بعض الانقطاع ؛ فلما أمعنوا فى الانكشاف للمسلمين حمَل النعمان بالناس ، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع السامعون مثله ، وزلّق بالنعمان فرسه فصرع وأصيب ، وتناول الراية نعيم أخوه ، فأتى حذيفة لما فدفعها إليه ، وكتم المسلمون مُصابَ أميرهم ، واقتتلوا حتى أظلم الليل ، ورجعوا والمسلمون وراءهم ، فعمىَ عليهم قصدُهم فتركوه ، وغشيهم المسلمون بالسيوف ؛ فقتلوا منهم ما لا يحصى ، وأدرك المسلمون الفيروزانَ وهو هارب ، وقد انتهى إلى ثنيّة مشحونة[1] ببغال موقَرة عسلا ، فحبسه على أجَله ، فقتل ، فقال المسلمون : إن لله جنوداً من عسل .

ودخل المسلمون نهاوند فاحتووا على ما فيها ، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة ، فحملت إلى عمر ، فلما رآها بكى ، فقال له المسلمون : إنّ هذا اليوم يوم سرور وجذَل ، فما بكاؤك ؟ قال : ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى[2] هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر إلا لخير أراده بهما ، ولا أراه فتحه علىّ إلا لشرّ أُريدَ بى ، إن هذا المال لا يلبث أن يفتن الناس .

ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول : اللهمّ اعصمْنى ولا تَكِلْنى إلى نفسى ؛ يقولها مرارا ؛ ثم قسمه بين المسلمين عن آخره .

---

(١) يقال : شحن المدينة بالخيل أو البغال ؛ إذا ملأها .

(١٤٧)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام .

فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ ؛ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ ؛ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ . وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ !

* * *

الشّـرْحُ :

الأوثان : جمع وَثَن ؛ وهو الصَّنَم ، ويجمع أيضا على وُثْن ، مثل أَسَد وآساد وأُسْد ؛ وسمى وَثَناً لانتصابه وبقائه على حال واحدة ، من قولك : وثَنَ فلان بالمكان فهو واثن ؛ وهو الثابت الدائم .

قوله : « فتجلّى سبحانه لهم » ، أى ظهر من غير أن يُرَى بالبصر ، بل بما نبّههم عليه فى القرآن من قِصص الأولين ، وما حلّ بهم من النقمة عند مخالفة الرسل .

والمَثُلات ، بضم الثاء : العقوبات .

فإن قلت : ظاهر هـذا الكلام أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الناس ليقرّوا بالصانع ويثبتوه ؛ وهذا خلاف قول المعتزلة ، لأنّ فائدة الرسالة عندهم هى إلطاف

المكلفين بالأحكام الشرعية المقرّبة إلى الواجبات العقلية ، والمبعدة من المقبّحات العقلية ، ولا مدخلَ للرسول في معرفة الباريءُ سبحانه ، لأنّ العقل يُوجبها ، وإن لم يبعث الرسل .

قلت : إنّ كثيراً من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل ؛ إذا كان في حقّهم المكلفين على مافي العقول فائدة ؛ وهو مذهب شيخنا أبي عليّ رحمه الله ، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد صلى الله عليه وآله إلى العرب وغيرهم ، لأنّ الله تعالى علم أنّهم مع تنبيهه إيّاهم على ماهو واجب في عقولهم من المعرفة أقربُ إلى حصول المعرفة ؛ فحينئذ يكون بعثه لطفاً ، ويستقيم كلام أمير المؤمنين .

* * *



الأصل :

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ ؛ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى وَإِنِ اجْتَمَعَا .

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ ؛ كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ ؛ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ ، وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً ، وَجَعَلُوا

فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ ؛ وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ ؛ حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ .

* * *

الشرح :

أخبر عليه السلام أنه سيأتي على الناس زمان من صفته كذا وكذا ؛ وقد رأيناه ورآه مَن كان قبلنا أيضا ؛ قال شُعبة إمام المحدّثين : تسعة أعشار الحديث كذب . وقال الدارقطني : ما الحديث الصحيح في الحديث إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود . وأمّا غلَبة الباطل على الحقّ حتى يخفى الحق عنده ، فظاهر .

وأبُور : أفسد ، من بار الشيء ، أي هلك . والسلعة : المتاع ، ونبذ الكتاب : ألقاه ولا يؤويهما : لا يضمهما إليه ، وينزلهما عنده .

والزُّبْر : مصدر زبرت أزبُر بالضم ، أي كتبت ، وجاء يزبِر بالكسر ، والزِّبْر بالكسر : الكتاب وجمعه زبور ؛ مثل قِدْر وقدور ، وقرأ بعضهم : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾[1] ، أي كتبا . والزَّبُور ، بفتح الزاي : الكتاب المزبور ، فَعُول بمعنى مفعول ؛ وقال الأصمعيّ : سمعت أعرابيا يقول : أنا أعرف بِزَبْرَتي[2] أي خطى وكتابتي .

ومَثَلوا بالصالحين ، بالتخفيف : نكّلوا بهم ، مثَلت بفلان أمثُل بالضمّ مَثْلاً بالفتح وسكون الثاء ، والاسم المُثْلة بالضم ؛ ومن روى « مَثّلوا » بالتشديد ؛ أراد جدّعوهم بعد قتلهم .

« وعلى » في قوله : « وسمّوا صدقهم على الله فرية » ، ليست متعلّقة بصدقهم ، بل بفرية ،

---

(١) سورة الإسراء ٥٥ .

(٢) الصحاح ٢ : ٦٦٧ .

أي وسمّوا صدقهم قربة على الله ؛ فإن امتنع أن يتعلّق حرف الجرّ به لتقدّمه عليه ، وهو مصدر، فليكن متعلّقاً بفعل مقدّر دلّ عليه هذا المصدر الظاهر. وروى : «وجعلوا في الحسنة العقوبة السيئة» والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن .

والموعود هاهنا : الموت . والقارعة : المصيبة تقرع ، أي تلق بشدّة وقوة .

* * *

الأصـل :

أيُّها النَّاسُ ، إنَّهُ مَن استَنصَحَ اللهَ وُفِّقَ ؛ وَمَن اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، فَإنَّ جارَ اللهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّهُ خائِفٌ .

وَإنَّهُ لا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أن يَتَعَظَّمَ ؛ فَإنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ماعَظَمَتُهُ أن يَتَواضَعُوا لَهُ ، وَسَلامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ماقُدْرَتُهُ أنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ . فَلا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفارَ الصَّحِيحِ مِنَ الأَجْرَبِ ، وَالْبارِئِ مِنْ ذِي السَّقَمِ .

وَاعْلَمُوا أنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثاقِ الْكِتابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ . فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أهْلِهِ ؛ فَإنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ، هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ؛ لا يُخالِفُونَ الدِّينَ وَلا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شاهِدٌ صادِقٌ ، وَصامِتٌ نَاطِقٌ .

* * *

الشـرح :

من استنصح الله : من أطاع أوامره وعلم أنّه يهديه إلى مصالحه ، ويردّه عن مفاسده ويرشده إلى مافيه نجاته ، ويصرفه عمّا فيه عَطَبُه .

والتي هي أقوم : يعني الحالة والخلة التي اتباعها أقوم ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية،قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[1] . والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده ووعده له .

ثم نهى عليه السلام عن التكبر والتعظم وقال : إنّ رفعةَ القومِ الذين يعرفون عظمة الله أن يتواضعُوا له . وما هاهنا ،بمعنى أيّ شيء ، ومن روى بالنصب جعلها زائدة . وقد ورد في ذم التعظم والتكبر ما يطول استقصاؤه ؛ وهو مذموم على العباد،فكيف بمنْ يتعظّم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين ! وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لما افتخر : « أنا سيّد ولد آدم » ، ثم قال : « ولا فخر » ، فجهر بلفظة الافتخار،ثم أسقط استطالة الكبر ؛ وإنما جهر بما جهر به ؛ لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدثِ بها ، وفي الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفرّخها بالآباء ،الناس بنو آدم، وآدم من تراب، مؤمن تقيّ، وفاجر شقيّ. ليَنتهينّ أقوامٌ يفخرون برجال ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكوننّ أهون على الله من جُعلان تدفع النتن بأنفها » .

قوله : « واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه»، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال؛ وهو قول أصحابنا جميعهم ، فإنهم بين مكفّر لمن خالف أصول التوحيد والعدل ـ وهم الأكثرون ـ أو مفسّق ، وهم الأقلون ؛ وليس أحدٌ منهم معذورا عند أصحابنا وإن ضلّ بعد النظر ، كما لا نعذر اليهود والنصارى إذا ضلّوا بعد النظر .

ثم قال عليه السلام : « فالتمسوا ذلك عند أهله » ، هذا كناية عنه عليه السلام ؛ وكثيرا مايسلك هذا المسلك ، ويعرّض هذا التعريض ؛ وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الإلهية .

---

(١) سورة الإسراء ٩

ثم ذكر أنّ هؤلاء الذين أمَرَ باتّباعهم بنبي، حكمهم عن علمهم ، وذلك لأنّ الامتحان يظهر خبيئة الإنسان .

ثم قال : « وصمتهم عن نطقهم » ، صمت العارف أبلغُ من نطق غيره ؛ ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتا .

ثم ذكر أنهم لا يخالفون الدّين لأنهم قُوّامه وأربابه ؛ ولا يختلفون فيه، لأنّ الحقّ في التوحيد والعدل واحد ، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه ؛ كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق .

وصامت ناطق؛ لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدّ له من مترجم ؛ فهو صامت في الصورة ، وهو في المعنى أنطق الناطقين ؛ لأن الأوامر والنواهيّ والآداب كلّها مبتنية عليه ، ومتفرّعة عليه .

(١٤٨)

الأصـلُ

ومن كلام له عليه السلام في ذكر أهل البصرة :

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يَكْشِفُ قِنَاعَهُ بِهِ.

وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا.

قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ؛ وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ.

وَاللهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ، وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ.

* * *

الشـرح :

ضمير التثنية راجعٌ إلى طلحة والزُّبير رضي الله عنهما. ويمتّان: يتوسّلان؛ الماضي ثلاثيٌّ: مَتَّ يَمُتُّ بالضم والضَّبّ: الحقد والمحتسبون: طالبو الحِسْبة؛ وهي الأجر. ومستمع اللَّدْم كناية عن الضَّبُع؛ تسمع وقع الحجر بباب جُحرها من يد الصائد فتنخذل وتكفّ

جوارحَها إليها حتى يدخل عليها فيربطها ؟ يقول : لا أكون مقرًّا بالضيم راغمًا[1] ؛ أسمع الناعى الخبر عن قتل عسكر الجمل لحكيم بن جبلة وأتباعه ، فلا يكون عندى من التغيير والإنكار لذلك ؛ إلا أن أسمعه وأحضر الباكين على قتلاهم .

وقوله : « لكل ضلة علة ، ولكل ناكث شُبهة » هو جواب سؤال مقدّر ، كأنه يقول : إن قيل : لأىّ سبب خرج هؤلاء ؟ فإنه لا بدّ أن يكون لهم تأويل فى خروجهم ؟ وقد قيل : إنهم يطالبون بدم عثمان ؟ فهو عليه السلام قال : كلّ ضلالة فلا بدّ لها من علّة اقتضتها ، وكلّ ناكث فلا بدّ له من شبهة يستند إليها .

وقوله : « ليتنزعَنّ هذا نفس هذا » قول صحيح لا ريبَ فيه ، لأنّ الرياسة لا يمكن أنْ يدبّرها اثنان معا ، فلو صحّ لهما ما أراداه لوثب أحدهما على الآخر فقتله ؛ فإن الملك عقيم ؛ وقد ذكرَ أربابُ السِّيرة أنّ الرجلين اختلفا من قَبْل وقوع الحرب ، فإنهما اختلفا فى الصلاة ، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ؛ يصلى هذا يوما ، وهذا يوما ، إلى أن تنقضىَ الحرب .

ثم إنّ عبد الله بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار ، واحتجّ فى ذلك بأنه استخلفه على الصلاة ، واحتج تارة أخرى بنصّ صريح زعمه وادّعاه ، وطلب طلحة من عائشة أن يسلِّمَ الناسُ عليه بالإمْرة ، وأدلى إليها بالتيميّة ، وأدلى الزبير إليها بأسماء أختها ، فأمرت الناس أنْ يسلّموا عليهما معا بالإمْرة .

واختلفا فى تولّى القتال ، فطلبه كلّ منهما أولا ، ثم نكَلَ كلٌّ منهما عنه وتفادَى[2] منه .

وقد ذكرنا فى الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة من أخبار الجمل .

(١) يقال : رغِمَ إليه ، إذا أستتى .   (٢) تفادى منه : تحاماه .

[من أخبار يوم الجمل]

وروى أبو مخنف ، قال : لما تزاحف الناس يومَ الجمل والتقوْا ، قال عليّ عليه السلام لأصحابه : لا يرمينّ رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح ، حتى أحدث إليكم ؛ وحتى يبدءوكم بالقتال والقتل . فرمى أصحاب الجمل عسكر عليّ عليه السلام بالنبل رمياً شديداً متتابعا ، فضجّ إليه أصحابه ، وقالوا : عقرتْنا سهامهم يا أمير المؤمنين . وجيء برجل إليه ، وإنه لفي فُسْطاط له صغير ، فقيل له : هذا فلان قد قُتل . فقال : اللهمّ اشهد ، ثم قال : أعْذِروا إلى القوم ، فأُتِيَ برجل آخر قتيل : وهذا قد قتل : فقال : اللهمّ اشهد ، أعْذِروا إلى القوم ، ثم أقبل عبد الله بنُ بُدَيْل بن ورقاء الخزاعيّ وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، يحمل أخاه عبد الرحمن بنَ بُدَيْل ، قد أصابه سهم فقتله ، فوضعه بين يدى عليّ عليه السلام ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، هذا أخى قد قتل ؛ فعند ذلك استرجع عليّ عليه السلام ، ودعا بدِرْع رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفُضُول فلبسها ، فتدلّت بطنه فرفعها بيده ، وقال لبعض أهله ، فحزم وسطه بعمامة ، وتقلّد ذا الفقار ، ودفع إلى ابنه محمد رايةَ رسول الله صلى الله عليه وآله السوداء ، وتعرف بالعُقَاب ، وقال لحسن وحسين عليهما السلام : إنما دفعت الراية إلى أخيكما . وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

قال أبو مخنف : وطاف عليّ عليه السلام على أصحابه ، وهو يقرأ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1] .

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

ثم قال : أفرَغَ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزّ لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كلّ أمر . ثم رفع مصحفا بيده ، فقال : مَنْ يأخذ هذا المصحف ، فيدعوهم إلى ما فيه ، وله الجنة ؟ فقام غلام شابّ اسمه مسلم ، عليه قَبَاء أبيض ، فقال : أنا آخذُه ، فنظر إليه علىّ وقال : يا فتى ، إن أخذته ، فإنّ يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل فقال : لا صبر لى على ذلك ، فنادى علىّ ثانية ، فقام الغلام ، وأعاد عليه القول ، وأعاد الغلام القول مراراً ؟ حتى قال الغلام : أنا آخذه ؟ وهذا الذى ذكرتَ فى الله قليل ، فأخذه وانطلق ، فلما خالطهم ناداهم : هذا كتابُ الله بيننا وبينكم . فضربه رجلٌ فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى فضربه أخرى فقطع اليسرى ، فاحتضنه فضربوه بأسيافهم ، حتى قتل فقالت أم ذريح العبدية فى ذلك[1] :

ياربّ إنّ مسلما أتاهمُ[2] بمصحفٍ أرسله مولاهمُ
للعدل والإيمان قد دعاهم يتلو كتابَ الله لا يخشاهمُ
فخضبوا من دمه ظُباهم[3] وأمهم واقفةٌ تراهمُ[4]
* تأمرهم بالغىّ لا تنهاهم[5] *

قال أبو مخنف : فعند ذلك أمر على عليه السلام ولده محمدا أن يحمل الراية ، فحمل وحمل معه الناس ، واستحرّ القتلُ فى الفريقين وقامت الحرب على ساق .

* * *

(١) الأبيات والخبر فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ٣٦) مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .
(٢) فى الطبرى : « لاهُمّ إن مسلما دعاهم » .
(٣) الطبرى : « قد خضبت من علق لحاهم » .
(٤) الطبرى : « وأمهم قائمة » .
(٥) الطبرى : « يأمرون الغى » .

[مقتل طلحة والزبير]

قال : فأما طلحة ، فإنّ أهلَ الجمل لما تضعضعوا قال مروان : لا أطلُب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم ! فانتحى له بسهْم فأصاب ساقه ، فقطع أكحَله[١] ، فجعل الدم يَبِضّ[٢] ، فاستدعى مِنْ مولًى له بغلة ، فركبها وأدبر ، وقال لمولاه : ويحك ! أما من مكانٍ أقدِر فيه على النزول ، فقد تملأني الدم ! فيقول له مولاه : انجُ ، وإلّا لحقك القوم ، فقال : بالله[٣] ماراأيت مصرَعَ شيخ أضيعَ من مصرعي هـذا ! حتى انتهى إلى دار من دُور البصرة ، فنزلها ومات بها .

وقد رُوِى أنه رُمِي قبل أنْ يرميَه مروان ، وجرح في غير موضع من جسده .

وروى أبو الحسن المدائنيّ أنّ عليا عليه السلام مرّ بطلحة ، وهو يكيدُ[٤] بنفسه ، فوقف عليه وقال : أما والله إن كنتُ لأبغض أن أراكم مصرّعين في البلاد ، ولكن ماحتْم واقع ، ثم تمثّل :

وماتـــدرى إذا أزْمَعت أمراً ... بأىّ الأرض يدركك المَقِيلُ[٥]

وما يدرى الفقير مَتَى غِنـــاهُ ... ولا يدرى الغنىّ متى يَعِيلُ[٦]

---

(١) الأكحل : عرق في الذراع .

(٢) يبض : يسيل قليلا قليلا .

(٣) ا ، ب ، ج ، د : « تالله » .

(٤) يقال : هو يكيد بنفسه ، أي يجود بها ؛ وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على سعد ابن معاذ ، وهو يكيد بنفسه ، فقال : « جزاك الله من سيد قوم ، فقد صدقت الله ماوعدته ، وهو صادقك ما وعدك » .

(٥) من أبيات في اللسان (عيل) ونسبها إلى أحيحة ؛ والبيت الأول في الأغاني ٢١ : ١٠٦ (من غير نسبة) .

(٦) يعيل : يفتقر .

وما تدرى إذا ألقحت شَوْلاً[١] أتُنْتَجُ بعد ذلك أم تحيل[٢]

* * *

وأما الزُّبير فقتله ابن جُرموز غيلةً بوادى السباع، وهو منصرف عن الحرب، نادم على ما فرّط منه؛ وتقدّم ذكر كيفية قتله فيما سبق.

وروى الكلبيّ، قال: كان العِرْق الذى أصاب السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك، وإذا رفع يده عنه سال، فقال طلحة: هذا سهم أرسله الله تعالى، وكان أمرُ الله قدَراً مقدوراً! ما رأيت كاليوم دم قرشيّ أضيع!

قال: وكان الحسن البصريّ إذا سمع هذا وحُكى له، يقول: ذُقْ عَقْعَقُ[٣]!

وروى أبو مخنف، عن عبد الله بن عون، عن نافع، قال: سمعت مَرْوان بن الحكم يقول: أنا قتلتُ طلحة.

وقال أبو مخنف: وقد قال عبد الملك بن مروان: لولا أن أبى أخبرنى أنّه رمى طلحة فقتله، ما تركت تيميًّا إلا قتلته بعثمان. قال: يعنى أنّ محمد بن أبى بكر وطلحة قتلاه، وكانا تيميّين.

قال أبو مخنف: وحدّثنا عبد الرحمن بن جُندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله، قال: مررت بطلحة، وإنّ معه عصابة يقاتل بهم، وقد فَشَتْ فيهم الجراح، وكَثَرَهُمُ الناس، فرأيتُه جريحاً، والسيف فى يده، وأصحابه يتصدّعون[٤] عنه رجلا فرجُلا، واثنين فاثنين؛ وأنا أسمعه، وهو يقول: عبادَ الله، الصبرَ الصبرَ! فإنّ بعد الصبر النّصر والأجر؛

---

(١) الشول من النوق: التى خف لبنها وارتفع ضرعها، وأتى عليها سبعة أشهر من يوم نتاجها، فلم يبق فى ضروعها إلا شوال من اللبن أو بقية.

(٢) تحيل: لم تلقح.

(٣) العقعق، كثعلب: طائر على قدر الحمامة، على شكل الغراب، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة، والعرب تضرب به المثل فيما لا يحمد.

(٤) يتصدعون: يتفرقون، وفى د «يتصدعون».

قلت له : النجاء النجاء ! ثكلتك أمك ! فوالله ما أجرت ولا نُصرت ، ولكنك وُزرتَ وخسرت ! ثم صِحْتُ بأصحابه ، فانذعروا عنه ، ولو شئتُ أن أطْعنه لطعنته ، فقلت له : أما والله لو شئت لجدّلتك في هذا الصعيد(١) ، فقال : والله لهلكت هلاك الدنيا والآخرة إذَنْ ! قلت له : والله لقد أمسيتَ وإنْ دمك لحلال ، وإنّك لمن النادمين . فانصرف ومعه ثلاثة نفر ، وما أدرى كيف كان أمره إلّا أنى أعلم أنه قد هلك .

وروى أنّ طلحة قال ذلك اليوم : ما كنت أظنّ أنّ هذه الآية نزلت فينا :﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾(٢) :

وروى المدائنيّ ، قال : لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكانا ينزله(٣) ، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب علىّ عليه السلام :أنا طلحة ، من يجيرنى ! يكررها . قال : فكان الحسن البصرى إذا ذكر ذلك يقول : لقد كان فى جوار عريض .

---

(١) الصعيد : التراب .
(٢) سورة الأنفال ٢٥ .
(٣) ب : « يرتاد منزله »

(١٤٩)

الأجل

ومن كلام له عليه السلام قبل موته :

أيُّها النَّاسُ ، كُلُّ امْرِىءٍ لاَقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ . الأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ ، وَالهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ .

كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الأَمْرِ ، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءهُ . هَيْهَاتَ ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ .

أمَّا وَصِيَّتِي : فَاللهَ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ العَمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ المِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ مَالَمْ تَشْرُدُوا . حُمِّلَ كُلُّ امْرِىءٍ مِنكُمْ مَجْهُودَهُ ، وَخُفِّفَ عَنِ الجَهَلَةِ . رَبٌّ رَحِيمٌ ، وَدِينٌ قَوِيمٌ ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ .

أَنا بِالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وأنا اليَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ! غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ! إِنْ ثَبَتَتِ الوَطْأَةُ فِي هَذِهِ المَزَلَّةِ فَذَاكَ ، وَإِنْ تَدْحَضِ القَدَمُ ، فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ ، وَمَهَبِّ رِيَاحٍ ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ . اضْمَحَلَّ فِي الجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا ، وَعَفَا فِي الأَرْضِ مَخَطُّهَا .

وإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً ، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاَءً ، سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ ، وصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ . لِيَعِظْكُمْ هُدُوئِي ، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي ، وَسُكُونُ أَطْرَافِي ؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ المَنْطِقِ البَلِيغِ ، وَالقَوْلِ المَسْمُوعِ .

وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصَدٍ لِلتَّلَاقِ! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي، وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي.

* * *

الشَّرْحُ:

أطردتُ الرجل، إذا أمرتَ بإخراجه وطرده، وطردتُه إذا نفيته وأخرجته؛ فالإطراد أدلّ على العزّ والقهر من الطرد، وكأنه عليه السلام جعل الأيام أشخاصا يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه، أى مازلتُ أبحث عن كيفية قتلى، وأىّ وقت يكون بعينه، وفى أىّ أرض يكون، يوما يوما، فإذا لم أجده فى اليوم أطردته واستقبلت غده؛فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم، فأبعده وأطرده، وأستأنف يوما آخر، هكذا حتى وقع المقدور. وهذا الكلام يدلّ على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصّلة من جميع الوجوه، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله أعلمه بذلك علما مجملا؛ لأنه قد ثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له: «ستضرَب على هذه — وأشار إلى هامته — فتخضب منها هذه — وأشار إلى لحيته»، وثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له: «أتعلم مَنْ أشقى الأولين»؟ قال: نعم، عاقر الناقة، فقال له: «أتعلم مَنْ أشقى الآخرين»؟ قال: لا، قال: «من يضرب ك هاهنا، فيخضب هذه».

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّه بعد ضرب ابن مُلجم له لا يقطع على أنه يموت من ضربته، ألا تراه يقول: إن ثبتت الوطأة فى هذه المزلّة فذاك، وإن تدحض فإنّا كنّا فى أفياء أغصان، ومهابّ رياح، أى إن سلمتُ فذاك الذى تطلبونه، يخاطب أهله وأولاده، ولا ينبغى أن يقال: «فذاك ما أطلبه»، لأنه عليه السلام كان يطلب الآخرة،

أكثرَ من الدنيا . وفي كلامه المنقول عنه ما يؤكد ما قلناه ؛ وهو قوله : « إن عشتُ فأنا وليّ دمي ، وإن مِتّ فضربة بضربة » .

وليس قوله عليه السلام : « وأنا اليوم عِبْرة لكم ، وغداً مفارقكم » وما يجرى مجراه من ألفاظ الفصل بناقض[1] لما قلناه ؛ وذلك لأنّه لا يعنى غداً بعينه ، بل ما يستقبل من الزمان ، كما يقول الإنسان الصحيح : أنا غداً ميّت ، فالى أحرص على الدنيا ! ولأنّ الإنسان قد يقول فى مرضه الشديد لأهله وولده : ودّعْتُكم وأنا مفارقكم ، وسوف يخلو منزلى منّى ، وتتأسّفون عَلَى فراق ، وتعرفون موضعى بعدى ؛ كله على غَلَبة الظنّ ؛ وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى ، وردْعهم عن الهوى وحبّ الدنيا .

فإن قلت : فما تصنع بقوله عليه السلام لابن ملجَم :

أُرِيدُ حِبَاءَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِى عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ[2]

وقول الخاصّ من شيعته : فهلا تقتله ! فقال : فكيف أقتل قاتلى ! وتارة قال : إنه لم يقتلنى ، فكيف[3] أقتل من لم يقتُل ! وكيف قال فى البطّ الصائح خلفه فى المسجد ليلة ضربه ابن ملجم : دعوهن ، فإنهن نوائح . وكيف قال تلك الليلة : إنّى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فشكوتُ إليه ، وقلت : ماذا لقيتُ من أمتك من الأَوَد واللَّدد ! فقال: ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بى شرّاً منى ! وكيف قال : إنى لا أُقتَلُ محارباً ، وإنما أُقتل فَتْكاً وغيلة ، يقتلنى رجلٌ خامل الذكر . وقد جاءت عنه عليه السلام من هذا الباب آثار كثيرة .

قلت : كلّ هذا لا يدلّ على أنه كان يعلم الأمر مفصّلاً من جميع الوجوه ، ألا ترى أنه

(١) د : « بناقض » .

(٢) من أبيات فى اللآلى ٦٣ ، نسبها إلى عمرو بن معديكرب ؛ وروايته فيها : « أريد حباءه » .

ليس فى الأخبار والآثار مايدلّ على الوقت الذى يقتل فيه بعينه، ولا على المكان الذى يقتل فيه بعينه! وأما ابنُ ملجم ، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذى يقتله، ولم يعلم علماً محققاً أن هذه الضربة تزهّق نفسه الشريفة منها ، بل قد كان يجوز أن يُبِلّ ويُفيق منها ؛ ثم يكون قتله فيما بعد على يد ابن ملجم ، وإن طال الأمد . وليس هذا بمستحيل ، وقد وقع مثله ، فإن عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق فى أيام معاوية على منافرةٍ كانت بينهما فعفا عمرو عنه ، ثم كان من القضاء والقدر أن عبد الملك قتل عمراً أيضاً بيده ذبحاً ، كما تذبح الشاة .

وأما قوله فى البط: «دعوهن فإنهن نوائح» فلعلّه علم أنه تلك الليلة يصاب ويجرح؛ وإن لم يعلم أنه يموت منه، والنوائح قد ينحن على المقتول وقد ينحن على المجروح، والمنام والدعاء لا يدلّ على العلم بالوقت بعينه ، ولا يدلّ على أن إجابة دعائه تـكون على الفور لامحالة .

ثم نعود إلى الشرح .

أما قوله : « كلّ امرئ لاقٍ مايفرّ منه فى فراره » ، أى إذا كان مقدوراً، وإلا فقد رأينا مَنْ يفرّ من الشىء ويسلم،لأنه لم يقدر؛وهذا من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[1]،وقوله : ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾[2] ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾[3]، وفى القرآن العزيز مثل هذا كثير .

قوله : «والأجل مَساق النفس»أى الأمر الذى تساق إليه، وتنتهى عنده،وتقف إذا بلغته فلا يبقى له حينئذ أكلة فى الدنيا .

---

(١) سورة النساء ٧٨ .
(٢) سورة آل عمران ١٥٤
(٣) سورة الجمعة ٨ .

قوله : « والهرب منه موافاته » ،هذا كلام خارج مخرج المبالغة فى عدم النجاة،وكون الفرار غيرَ مغْنٍ ولا عاصم من الموت ، يقول : الهرب بعينه من الموت موافاة الموت،أى إتيان إليه ، كأنه لم يرتض بأن يقول : الهارب لابدّ أن ينتهىَ إلى الموت ،بل جعل نفس الهرب هو ملاقاة الموت .

قوله : « أبحثها » أى أكشفها ، وأكثر مايستعمل « بحث » مُتَعدّى بحرف الجر ، وقد عدّاه هاهنا إلى « الأيام » بنفسه وإلى « مكنون الأمر » بحرف الجرّ ، وقد جاء:بحثت الدّجاجة التراب ، أى نبشته .

قوله : « فأبى الله إلا إخفاءه ، هيهات علم مخزون » ! تقديره : هيهات ذلك! مبتدأ وخبره، هيهات اسم الفعل،معناها بعد،أى علم هذا الغيب علم مخزون مصون،لم أطلع عليه.

فإن قلت : مامعنى قوله : « كم اطردت الأيام أبحثها » ؟ وهل علم الإنسان بموته كيف يكون ، وفى أى وقت يكون ، وفى أى أرض يكون ؛ مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث ؟

قلت:مراده عليه السلام أنى كنت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله أسأله كثيرا عن هذا الغيب؛ فما أنبأنى منه إلا بأمور إجمالية غير مفصلة،ولم يأذن الله تعالى فى إطلاعى على تفاصيل ذلك.

قوله: «فالله لاتشركوا به شيئا» الرواية المشهورة«فالله» بالنصب،وكذلك «محمدا» بتقدير فعل ، لأنّ الوصية تستدعى الفعل بعدها ، أى وحّدوا الله ، وقد روى بالرفع ؛ وهو جائز على المبتدأ والخبر .

قوله : «أقيموا هذين العمودين،وأوقدوا هذين المصباحين،وخلاكم ذمٌ مالم تشرُدوا» ، كلام داخلٌ فى باب الاستعارة ، شبّه الكتاب والسنة بعمودَى الخيمة ، وبمصباحَين

يُستضاء بهما . وخَلَا كم ذمٌ : كلمة جارية مجرى المثل ، معناها : ولا ذمّ عليكم ، فقد أعذرتمُ . وذمّ ، مرفوع بالفاعلية ، معناه : عَدَا كم وسقَط عنكم .

فإن قلت : إذا لم يشركوا بالله ولم يضيّعوا سنة محمد صلى الله عليه وآله فقد قاموا بكلّ مايجب، وانتهوا عن كلّ مايقبّح ، فأىّ حاجة له إلى أن يستثنىَ ويقول: «مالم تشردوا» ، وإنما كانَ يحتاج إلى هذه اللفظة لو قال : وصيّتى إليكم أن توحّدوا الله ،وتؤمنوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ، كان حينئذ يحتاج إلى قوله : « مالم تشردوا » ويكون مرادُه بها فعلَ الواجبات ، وتجنّب المقبحات ، لأنّه ليس فى الإقرار بالوحدانية والرسالة العمل ، بل العمل خارج عن ذلك، فوجب إذا أوصى أن يوصىَ بالاعتقاد والعمل ، كما قال عمر لأبى بكر فى واقعة أهل الرّدّة : كيف تقاتلهم وهم مقرّون بالشهادتين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله « أمرت بأن أقاتلَ الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله » ،فقال أبو بكر: إنه قال تتمة هذا : « فإذا هم قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلّا بحقها » وأداء الزكاة من حقها !

قلت : مراده بقوله : «مالم تشردوا » مالم ترجعوا عن ذلك فكأنّه قال :خلاكم ذمّ إن وحّدتم الله واتبعتم سنة رسوله ، ودمتم على ذلك ولا شبهة أنّ هذا الكلام منتظم ، وأنّ اللفظين الأوليين ليسا بمغنيين عن اللفظة الثالثة [1] وبتقدير أن يغنيا عنه، فإنّ فى ذكره مزيد تأكيد وإيضاح غير موجودين لولم يذكر ، وهذا كقوله تعالى:﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾[2] ،وليس لقائل أن يقول:من يخشى الله لا يكون مطيعاً لله والرسول ، وأىّ حاجة به إلى ذكر ما قد أغنى اللفظ الأول عنه !

قوله : « حُمّل كلّ امرئ مجهوده ، وخُفّفَ عن الجهلة » ، هذا كلام متصل بما قبله ،

---

(١) ب : « اللفظ الثالث » .

(٢) سورة النور ٥٢ .

لأنّه لما قال : « مالم تشردوا » أنبأ عن تكليفهم كلّ ماوردت به السّنة النبوية ، وأن يدوموا عليه ؛ وهذا فى الظاهر تكليفُ أمورٍ شاقة ، فاستدرك بكلام يدلّ على التخفيف ، فقال : إن التكاليف على قَدْرِ المكلّفين ، فالعلماء تكليفهم غير تكاليف العامة ، وأرباب الجهل والمبادى كالنساء وأهل البادية وطوائف من النّاس ، الغالبُ عليهم البلادة وقلّة الفهم ، كأقاصى الحبشة والتّرك ونحوهم ، وهؤلاء عند المكلفين غير مكلّفين ، إلا بحمل التوحيد والعدل ، بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصّلة وحلّ المشكلات الغامضة . وقد روى « حَمّل » على صيغة الماضى ، و « مجهودَه » بالنصب ، و « خَفّفَ » على صيغة الماضى أيضا ، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدّم ذكره ، والرواية الأولى أكثر وأليق .

ثم قال : « ربٌّ رحيم » أى ربّكم ربٌّ رحيم ، ودين قويم ، أى مستقيم ، وإمام عليم ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن الناس من يجعل « ربٌّ رحيم » فاعل « خفّف » على رواية من رواها فعلا ماضيا وليس بمستحسن لأنّ عطف « الدين » عليه يقتضى أن يكون الدين أيضا مخففا ، وهذا لا يصحّ .

ثم دعا لنفسه ولهم بالمغفران .

ثم قسم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمة حسنة ، فقال : « أنا بالأمس صاحبكم ، وأنا اليوم عِبرة لكم ، وغدا مفارقكم » إنما كان عبرةً لهم لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريعاً بعد أن صرّع الأبطال ، وقتل الأقران ، فهو كما قال الشاعر :

أكلّ أشلاء الفوارس بالقنا ... أضحى بهنّ وشِلْوه ما كول

ويقال : دَحَضت قدمُ فلان ، أى زلّت وزَلِقت .

ثم شبه وجوده فى الدنيا بأفياء الأغصان ومهابّ الرياح وظلال الغمام ، لأنّ ذلك كلّه سريع الانقضاء لاثبات له .

قوله : « اضمحلّ فى الجوّ متلفقًا ، وعفَا فى الأرض مخطُّها » ، اضمحلّ ذهب ، والميم زائدة ، ومنه الضَّحْل وهو الماء القليل ، واضمحلّ السحاب : تقشّع وذهب ، وفى لغة الكلابيين امضحلّ الشىء بتقديم الميم . ومتلفقها : مجتمعها ، أى ما اجتمع من النيوم فى الجو ؛ والتلفيق : الجمع : وعفَا : دَرَس ، ومخطُّها : أثرها ؛ كالمخطة .

قوله : « وإنما كنتُ جاراً جاوركم بَدَنى أياما » ، فى هذا الكلام إشعار بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النّفْس ، وأنّ هويّة الإنسان شىء غير هذا البدَن .

وقوله : « ستعقبون منّى » أى إنما تجدون عُقيب فقدى جُثة ؛ يعنى بدناً خلاء ، أى لا رُوح فيه ؛ بل قد أقفر من تلك المعانى التى كنتم تعرفونها وهى العقل والنطق والقوّة وغير ذلك . ثم وَصف تلك الجثة فقال : « ساكنة بعد حراك » بالفتح ، أى بعد حركة « وصامتة بعد نطق » . وهذا الكلام أيضا يُشعر[1] بما قلناه من أمر النفْس ، بل يصرّح بذلك ، ألا تراه قال : « ستعقبون منى جثة » ، أى تستبدلون بى جثة صفتها كذا ؛ وتلك الجثة جثته عليه السلام ، ومحال أن يكون العِوَض والمعوّض عنه واحدا ، فدلّ على أنّ هويّته عليه السلام التى أعقبنا منها الجثة غير الجثة .

قوله : « ليعظكم هدوى » ، أى سكونى ، وخفوت إطراقى ، مثله خَفَت خُفُوتا سكن ، وخفت خُفَاتا مات فجأة . وإطراقه : إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض ، لضعفه عن رفع جفنه ، وسكون أطرافه : يداه ورجلاه ورأسه عليه السلام .

قال : « فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ ، والقول المسموع » ؛ وصدق عليه السلام ؛ فإن خَطيباً أخرس ذلك اللسان ، وَهدّ تلك القوى لخطبٌ جليل ، ويجب أن يتّعظ العقلاء به . وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى مَنْ شاهد تلك الحال ، بل بالإضافة إلى من سمعها ، وأفكر فيها ، فضلاً عن مشاهدتها عيانا ! وَفى هذا الكلام شَبَهٌ من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوت الإسكندر فقال أحدهم : حرّكنا بسكونه .

---

[1] ب : « مشعر » .

وقال الآخر : قد كان سيفك لا يجف ، وكانت مراقبك لا ترام ، وكانت نقماتك لا تؤمَن ، وكانت عطاياك يُفرَح بها ، وكان ضياؤك لا ينكشف ، فأصبح ضوءك قد خَمَد ، وأصبحت نقماتك لا تخشى ، وعطاياك لا ترجى ، ومَرافيك لا تُمْنَع ، وسيفك لا يَقطع .

وقال الآخر : انظروا إلى حلم المنام كيف انجلى ، وإلى ظِلّ الغمام كيف انسلى !

وقال آخر : ما كان أحوجَه إلى هذا الحلم ، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته !

وقال آخر : القـدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة ؟ طُوِيَتْ في ذراعين .

وقال الآخر : أصبح آسِرُ الأسراء أسيرا ، وقاهر الملوك مقهورا . كان بالأمس مالـكا ، فصار اليوم هالـكا

ثم قال عليه السلام : « وَدَاعِيكُم وداعُ امرئ مرصَدًا للتلاقي » ، أرصدته لكذا ، أي أعددته له ، وفي الحديث : « إلّا أن أُرصِدَه لدين عَلَيّ » . والتلاقي ها هنا : لقاء الله . ويروى : « ودَاعيكم » أي وداعي إياكم ، والوَداع مفتوح الواو .

ثم قال : « غدا ترون أيامي ، ويكشف لكم عن سرائري ، وتعرفونني بعدَ خلوّ مكاني ، وقيامِ غيري مقامي » ؛ هذا معنًى قد تداوله الناس قديما وحديثا ، قال أبو تمام :

رَاحَتْ وُفُودُ الأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ   فَارِغَةَ الأَيْدِي مِلَاءَ القُـلُوبْ

قد علمت ما رزئت إنمـا   يُعرف قدرُ الشمس بعد الغروبْ

وقال أبو الطيب :

وَنَذِيمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ   وبضدِّها تتبيّن الأشياءُ[1]

---

(١) ديوانه ١ : ٢١ ، وروايته : « ونذيهم » .

ومن أمثالهم :

* الضد يظهر حسنه الضد *

ومنها أيضا : لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية .

وإنما قال عليه السلام : « ويكشف لكم عن سرائرى » ؛ لأنهم بعد فقده وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة مَنْ بعده ، أنه إنما كان يريد بذلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى ، وألّا يظهر المنكر فى الأرض ، وإن ظنّ قوم فى حياته أنّه كان يريد الملك والدنيا .



(١٥٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ويومئ فيها إلى الملاحم :

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ ؛ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ . وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ !

يَا قَوْمِ، هَذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَا تَعْرِفُونَ . أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً ، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً ، وَيَصْدَعَ شَعْباً ، وَيَشْعَبَ صَدْعاً ؛ فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ ؛ لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ ، وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ ؛ ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ .

* * *

الشرح :

يذكر عليه السلام قوماً من فرق الضلال أخذوا يمينا وشمالا ، أى ضلوا عن الطريق الوسطى التى هى منهاج الكتاب والسنة ؛ وذلك لأن كل فضيلة وحق فهو محبوس بطرفين خارجين عن العدالة ، وهما جانبا الإفراط والتفريط ؛ كالفطانة التى هى محبوسة

بالجرْءة والفباوة،والشجاعة التى هى محبوسة بالتهوّر والجبن ، والجود المحبوس بالتبذير والشحّ ؛ فمن لم يقعْ على الطريق الوسطى وأخذ يمينا وشمالا فقد ضلّ .

ثم فسّر قوله: « أخذ يمينا وشمالا » ، فقال: « ظلموا ظلمنا فى مسالك الغىّ وتركوا مذاهب الرشد تركاً ». ونصب « تركا » و« ظلما » على المصدرية،والعامل فيهما من غير لفظهما [1] ؛ وهو قوله : « أخذوا »

ثم نهاهم عن استعجال ماهو معدّ ، ولابدّ من كونه ووجوده ، وإنما سماه كائنا لقرب كونه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [2] ، ونهاهم أن يستبطئوا مايجىء فى الغد لقرب وقوعه ، كما قال :

• وإن غدا للناظرين قريب •

وقال الآخر:

• غدٌ ماغد ما أقرب اليوم من غد •

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [3].

ثم قال : كم من مستعجل أمراً ويحرص عليه ، فإذا حصل وَدّ أنه لم يحصل !

قال أبو العتاهية :

مَنْ عاش لاقى مايسو ء من الأمور وما يسرّ [4]
ولرب حتْفٍ فوقَهُ ذهبٌ وياقوت ودُرُّ

وقال آخر :

فلا تتمنَّينَّ الدهر شيئا فكم أمنيةٍ جلبت مَنيّه

(١) ب : « لفظها » .
(٢) سورة الزمر ٣٠ .
(٣) سورة هود ٨١ .
(٤) ديوانه ٩٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . وتباشير الصبح : أوائله .

ثم قال : ياقومُ قد دنا وَقت القيامة ، وَظهور الفتن التى تظهر أمامها .

وإبَّان الشىء ، بالكسر وَالتشديد : وَقته وَزمانه ، وَكَنى عن تلك الأهوال بقوله : « وَدُنُوّ من طلعة مالا تعرفون » لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلها ، نحو دابة الأرض ، والدجّال وَفتنته ، وَما يظهر على يده من الخاريق والأمور الموهمة ، وَواقعة السُّفيانى وَما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يحصى عددهم .

ثم ذكر أن مهدىّ آل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو الذى عنى بقوله : « وإنَّ مَنْ أدركها منّا يسرى فى ظلمات هذه الفتن بسراج منير » ؛ وهو المهدىّ ، وأتباع الكتاب والسنة .

ويحذو فيها : يحتذى ويقتفى مثال الصالحين ، ليحلّ فى هذه الفتن . وربقًا : أى حبلا معقودا .

ويعتِقُ رِقًا ، أى يستفكُّ أسْرَى ، وينقذ مظلومين من أيدى ظالمين .

ويصدَعَ شَعْبًا ، أى يفرّق جماعة من جماعات الضلال . ويشعَبُ صَدْعًا : يجمع ماتفرّق من كلمة أهل الهدى والإيمان .

قوله عليه السلام : « فى سترة عن الناس » ، هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الإنسان المشار إليه ، وليس ذلك بنافع للإمامية فى مذهبهم ، وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم ؛ وذلك لأنه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان ، ويكون مستترا مدة ، وله دعاة يدعُون إليه ، ويقرّرون أمره ، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار ؛ ويملك الممالك ؛

---

[1] سورة البقرة ٢١٦

ويجهر الدول ؛ ويمهد الأرض ؛ كما ورد في قوله : « لا يبصر القائف » ، أي هو في استتار شديد لا يدركه القائف ، وهو الذي يعرف الآثار ، والجمع « قافة » ، ولا يعرف أثره ولو استقصى في الطلب ؛ وتابع النظر والتأمل .

ويقال : شَحَذْتُ السكين أشحَذُه شَحْذاً ، أي حدّدته ، يريد : ليُحَرَّضَنّ في هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال ، ولتُشحَذَنّ عزائمهم كما يشحذ الصَّيْقل السيف ، ويرقق حدّه .

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوذي العزائم ؛ فقال : تجلّى بصائرُهم بالتنزيل ، أي يكشف الرَّيْن والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويله ومعرفة أسراره .

ثم صرح بذلك فقال : « ويرمى بالتفسير في مسامعهم » ، أي يكشف لهم الغطاء ، ويخلق المعارف في قلوبهم ، ويلهمون فَهْمَ الغوامض والأسرار الباطنة ، ويغبقون كأسَ الحكم بعد الصَّبوح ، أي لا تزال المعارف الربانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحا ومساء ؛ فالغَبوق كناية عن الفيض الحاصل لهم في الآصال ، والصَّبوح كناية عما يحصل لهم منه في الغَدَوات ، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة ؛ وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لولىّ الله الذى يختبيه ، ويخلقه فى آخر أوقات الدنيا ، فيكون خاتمة أوليائه ، والذى باق عصا التكليف عنده .

* * *

الأصْـلُ :

منها :

وطَالَ ٱلْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا ٱلْخِزْى ، وَيَسْتَوْجِبُوا ٱلْغِيَرَ ، حَتَّى إذَا ٱخْلَوْلَقَ

الْأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا عَنْ لِقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ.

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا الكلام يتصل بكلام قبله ، لم يذكره الرضيّ رحمه الله ، وهو وصف فئة ضالة قد استولت وملكت ، وأملى لها الله سبحانه . قال عليه السلام : وطال الأمدُ بهم ليستكملوا الخزْى ، ويستوجبوا الغِيَرَ ، أي النعم[1] التي يغيّرها بهم من نعم الله سبحانه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [2] ، وكما قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

حتى إذا اخلولَق الأجل ، أي قارب أمرهم الانقضاء ، من قولك : اخلولق السحاب ، أي استوى ، وصار خليقاً بأن يَمطر ، واخلولق الرسمُ : استوى مع الأرض .

واستراح قوم إلى الفتن ، أي صبا قومٌ من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفئة ، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها ، واتبعوها .

واشتالوا عن لَقاح حَرْبهم ، أي رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشبّوا الحرب بينهم وبين هذه الفئة ، مهادَنةً لها وسلما وكراهية القتال ، يقال : شالَ فلان كذا ، أي رفعه، واشتال « افتعل » هو في نفسه ، كقولك : حَجَم زيد عمرا ، واحتجم هو نفسُه . ولَقاح حربهم : هو بفتح اللام ، مصدر من لَقِحت الناقة .

قوله : « لم يمُنّوا » ، هذا جواب قوله : « حتى إذا » ، والضمير في « يمنّوا » راجع إلى

(١) كذا في د ، وفي ا ، ب : « والنعم » .
(٢) سورة الإسراء ١٦ .
(٣) سورة الأعراف ١٨٢ .

العارفين الذين تقدّم ذكرهم فى الفصل السابق ذكره ، يقول : حتى إذا ألقى هؤلاء السّلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال ، واستراحوا من منابذتهم بدخولهم فى ضلالتهم وفتنتهم ، إما تقيّة[1] منهم ، أو لشبهة دخلت عليهم ، أنهض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الذين خصّهم بحكمته ، وأطلعهم على أسرار ملكوته فنهضوا ، ولم يمنُّوا على الله تعالى بصبرهم ، ولم يستعظموا أن يبذُلوا فى الحقّ نفوسَهم ؛ قال : حتى إذا وافق قضاء الله تعالى وقَدَره كى ينهض هؤلاء بقضاء الله وقدره فى انقضاء مدة تلك المحنة ، وارتفاع ما كان شمِل الخلق من البلاء بملكها وإمرتها ، حمل هؤلاء العارفون بصائرَهم على أسيافهم. وهذا معنى لطيف ، يعنى أنهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس ، وكشفوها وجرّدوها من أجفانها ، مع تجريد السيوف من أجفانها ، فكأنها شىء محمول على السيوف يبصره مَنْ يبصر السيوف ، ولا ريبَ أنّ السيوف المجرّدة من أجل الأجسام للأبصاره فكذلك مايكون محمولا عليها ، ومن الناس مَنْ فسّر هذا الكلام ، فقال : أراد بالبصائر جمع بصيرة ، وهو الدم ، فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التى سفكتها هذه الفئة ، وكأنّ تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التى جرّدوها للحرب ، وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه :

رَاحُوا بصائرُهُم عَلَى أَكْتافِهِمْ   وَبَصِيرَتِى يَعْدُو بِها عَتَدٌ وأَى[2]

وفسّره أبو عمرو بن العلاء ، فقال : يريد أنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خَلْفَهم ، أى لم يثأروا به ، وأنا طلبت ثأرى. وكان أبو عبيدة معمّر بن المثنى يقول فى هذا البيت : البصيرة : التّرس أو الدّرع ، ويرويه : « حملوا بصائرهم » .

* * *

---

(١) كذا فى ح ، وفى ا ، ب : « بقية » ، وفى د : « بقية »

(٢) البيت فى الصحاح ٢ : ٥٩٢ ، ونسبه إلى الأسعر الجعفى ، وهو أيضا فى اللسان ٥ : ١٣٣

الأصلُ :

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِجِ ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ . قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ ، عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ .



الشرح :

رجعوا على الأعقاب : تركوا ما كانوا عليه ، قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ﴾[1]

وغالتهم السُّبل : أهلكتهم اختلاف الآراء والأهواء ، غاله كذا ، أى أهلكه ، والسُّبل : الطرق .

والولائج : جمع وليجة ، وهى البطانة يتخذها الإنسان لنفسه ، قال سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[2] .

ووصلوا غير الرَّحِم ، أى غير رحم الرسول الله صلى الله عليه وآله ، فذكرها عليه السلام

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٢) سورة التوبة ١٦

ذِكْرًا مطلقًا غير مضاف لفظًا ، كما يقول القائل : «أهل البيت» ، فيعلم السامع أنه أراد أهلَ بيت الرسول .

«وهَجَرُوا السبب» ، يعنى أهلَ البيت أيضًا ؛ وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : «خَلَفْتُ فيكم الثَّقَلَيْن : كتاب الله وعترتى أهل بيتى ؛ حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض ، لا يفترقان حتى يرِدَا علىّ الحوض» ، فعبّر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ «السبب» ، لمّا كان النبي صلى الله عليه وآله قال : «حبلان» ، والسبب فى اللغة : الحبل .

عَنَى بقوله : «أمِرُوا بمودّته» قولَ الله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾[1] .

قوله : «ونقلوا البناء عن رصّ أساسه» ؛ الرصّ مصدر رصَصْتُ الشىء أرصّه ، أى ألصقت بعضه ببعض ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2] ، وتراصّ القوم فى الصف ، أى تلاصقوا ، فبنوه فى غير موضعه ، ونقلوا[3] الأمر عن أهله إلى غير أهله .

ثم ذمّهم عليه السلام ، وقال : «إنهم معادن كلّ خطيئة ، وأبواب كل ضاربٍ فى غَمْرة» ، الغمرة : الضّلالة والجهل . والضّارب فيها : الداخل المعتقد لها .

قد ماروا فى الحيرة ، مارَ يمور إذا ذهب وجاء ، فكأنهم يسبحون فى الحيرة كما يَسْبَح الإنسان فى الماء .

وذَهَل فلان ، بالفتح ، يذْهَل . على سنّة من آل فرعون ، أى على طريقة ، وآل فرعون : أتباعه ، قال تعالى : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[4] .

---

(١) سورة الشورى ٢٣ .
(٢) سورة الصف ٥ .
(٣) ب : «ونقلوا» ، وما أثبته من د .
(٤) سورة غافر ٤٦ .

من منقطِع إلى الدنيا : لا همّ له غيرها . وراكن : مخلِد إليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[1] . أو مفارق الدين مباين[2] : مزايل .

فإن قلت : أىّ فرْق بين الرّجُلين؟وهل يكون المنقطع إلى الدنيا إلّا مفارقاً للدين؟

قلت : قد يكون فى أهل الضلال مَنْ هو مفارق الدين مباين،وليس براكن إلى الدنيا ولا منقطِع إليها ؛ كما نرى كثيراً من أحبار النصارى ورهبانهم .

فإن قلت : أليس هذا[3] الفصل صريحاً فى تحقيق مذهب الإمامية ؟

قلت : لا ، بل نحمله على أنه عَنَى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب ، فى أيام صِفِّين ، وهم الذين نقلوا البناء ، وهجروا السبب ، ووصلوا غير الرّحِم،واتّكلوا على الولائج، وغالتهم السُّبل،ورجعوا على الأعقاب ؛ كعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة ، ومَرْوان بن الحكم ، والوليد بن عُقْبة ، وحبيب بن مسلمة ، وبُسْر بن أرطاة ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص،وحوشب ، وذِى الكَلاع ، وشُرَحْبيل ابن السمط[4]، وأبى الأعور السلمىّ،وغيرهم ممن تقدم ذكرُنا له فى الفصول المتعلّقة بصِفّين وأخبارها ، فإن هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليه السلام إلى معاوية ، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه .

فإن قلت . لفظ الفصل يشهدُ بخلاف ما تأوّلته ، لأنه قال عليه السلام : حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب ، فجعل رجوعَهم على الأعقاب عَقِيب قَبْض الرسول صلى الله عليه وآله ، وما ذكرتَه أنتَ كان بعد قَبْض الرسول بنيّف وعشرين سنة !

قلت : ليس يمتنع أن يكونَ هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب ، لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأضْمَرُوا فى أنفسهم مشاقّة أمير المؤمنين وأذاه،وقد كان فيهم مَنْ

---

(١) سورة هود ١١٣ .
(٢) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « ومبان » .
(٣) ساقطة من د
(٤) ب : « الصمت » .

يتحكك به في أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ويتعرض له؛ ولم يكن أحدٌ منهم ولا من غيرهم يُقدِم على ذلك في حياة رسول الله . ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الإسلام بالكلّيّة ، فإنّ كثيرا من أصحابنا يطعنون في إيمان بعض مَنْ ذكرناه ويعدّونهم من المنافقين ، وقد كان سيفُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقمَعُهم ويردَعُهم عن إظهار ما في أنفسهم من النفاق ، فأظهر قومٌ منهم بعده ما كانوا يضمِرُونه من ذلك ؛ خصوصا فيما يتعلّق بأمير المؤمنين ، الذي وَرَد في حقّه : « ما كنّا نعرِفُ المنافِقِين عَلَى عَهْـدِ رسول الله إلا ببغض عليّ بن أبي طالب » ، وهو خَـبَرٌ محقق مذكور في الصّحاح .

فإن قلت : يمنعك من هذا التأويل قوله : « ونقلوا البناء عن رصّ أساسه ، فجعلوه في غير موضعه » ، وذلك لأنّ « إذا » ظرفٌ ؛ والعامل فيها قوله : « رجع قومٌ على الأعقاب » وقد عطف عليه قوله : « ونقلوا البناء » ؛ فإذا كان الرجوعُ على الأعقاب واقعاً في الظرف المذكور ، وهو وقت قبض الرسول، وجَب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في ذلك الوقت أيضاً ، لأنّ أحد الفعلين معطوف على الآخر ، ولم ينقلْ أحدٌ وقتَ قبض الرسول صلى الله عليه وآله البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وإنّما نُقِل عنه إلى شخص آخر ، وفي إعطاء العطف حقّه إثبات مذهب الإماميّة صريحا !

قلت : إذا كان الرجوعُ على الأعقاب واقعاً وقت قبض النبي صلى الله عليه وآله فقد قمنا بما يجبُ من وجود عامل في الظرف ، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعًا في تلك الحال أيضاً ، بل يجوز أن يكون واقعاً في زمان آخر؛ إمّا بأن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، أو بأن تكون للعطف في مطلق الحدث لا في وقوع الحدَث في عين ذلك الزمان المخصوص ، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَنْ

بِضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ (١) ؛ فالعامل في الظرف «استطعما» ويجب أن يكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة . ولا يجب أن تكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة في حال الإتيان أيضاً ؛ ألا ترى أن من جملتها «فأقامه» ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما ؛ اللهم إلا أن يقول قائل : أشار بيده إلى الجدار فقام ، أو قال له : قم ، فقام ، لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً الإتيان إلا على هذا الوجه ؛ وهذا لم يكن ، ولا قاله مفسر ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ؛ لأن الأجر إنما يكون على أعمال عمل فيه مشقة : وإنما يكون فيه مشقة إذا بناه بيده ، وباشره بجوارحه وأعضائه .

واعلم أنا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يقتضيه سؤدده الجليل ، ومنصبه العظيم ، ودينه القويم ، من الإغضاء عما سلف ممن سلف ؛ فقد كان صاحبهم بالمعروف نُزْهة من الدهر ، فإما أن يكون ما كانوا فيه حقهم أو حقه ، فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة ، أو لما رآه من المصلحة ؛ وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن نطابق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم وبين أولها ؛ فإن بَعُد تأويل ما يتأوله من كلامه ، فليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة في القرآن ، ولم يمنع بعدها من الخوض في تأويلها محافظة على الأصول المقررة ؛ فكذلك هاهنا .

---

(١) سورة الكهف ٧٧ .

(١٥١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وأستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره ، والاعتصام من حبائله ومخاتله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ونجيبه وصفوته ؛ لا يؤازى فضله ، ولا يجبر فقده ؛ أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة ، والجهالة الغالبة ، والجفوة الجافية ؛ والناس يستحلون الحريم ، ويستذلون الحكيم ؛ يحيون على فترة ، ويموتون على كفرة .

ثم إنكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت ؛ فاتقوا سكرات النعمة ، واحذروا بوائق النقمة ، وتثبتوا في قتام العشوة ، واعوجاج الفتنة ، عند طلوع جنينها ، وظهور كمينها ، وانتصاب قطبها ، ومدار رحاها ؛ تبدأ في مدارج خفية ، وتؤول إلى فظاعة جلية ؛ شبابها كشباب الغلام ، وآثارها كآثار السلام ؛ تتوارثها الظلمة بالعهود ، أولهم قائد لآخرهم ؛ وآخرهم مقتد بأولهم ؛ يتنافسون في دنيا دنية ، ويتكالبون على جيفة مريحة ، وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزايلون بالبغضاء ، ويتلاعنون عند اللقاء .

ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف ، والقاصمة الزحوف ، فتزيغ قلوب بعد استقامة ، وتضل رجال بعد سلامة ، وتختلف الأهواء عند هجومها ، وتلتبس الآراء عند نجومها .

مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ ؛ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ . قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ ، تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا ، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا ؛ يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ .

يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ ، وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ . مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ ، تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ؛ بَرِيئُهَا سَقِيمٌ ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ .

•••



الشَّرْحُ :

مداحر الشيطان : الأمور التي يدحر بها ، أي يطرد ويبعد ، دحرته أدحره دُحورا ، قال تعالى : ﴿ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾[1]، وقال سبحانه : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً ﴾[2] ، أي مقصى .

ومزاجره : الأمور يزجرها ؛ جمع مَزْجر : ومَزْجرة ، وكثيرا مايبنى عليه السلام من الأفعال « مَفْعلا » و « مَفْعَلة » ويجمعه ؛ وإذا تأمّلت كلامه عرفت ذلك .

وحبائل الشيطان : مكائده وأشراكه التي يُضِلّ بها البشر . ومخاتله : الأمور التي يختِل بها ، بالكسر ، أي يخدع .

لا يُوازَى فضله : لا يساوَى ، واللفظة مهموزة ، آزيت فلانا : حاذيته ، ولا يجوز « وازيته » .

(١) سورة الصافات ٩ .
(٢) سورة الأعراف ١٨

ولا يجبر فقـدُه : لا يسدّ أحدٌ مسدّه بعده . والجفوة الجافية : غِلَظ الطَّبع وبلادة الفهم .

ويستذِلّون الحكيم : يستضيمون العقلاء ، واللام هاهنا للجنس ، كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [1] .

يحيون على فَتْرة : على انقطاع الوحي مابين نبوّتين .

ويموتون على كَفْرة ، بالفتح ، واحد الكَفَرات ، كالضربة واحدة الضَّربات .

ويروى: « ثم إنكم معشر الناس » . والأغراض: الأهداف . وسَكَرات النعمة: ماتحدثه النّعم عند أربابها من الغَفلة المشابهة للسُّكر ، قال الشاعر :

خمس سَكَرات إذا مُنِيَ المر ءُ بهـا صارَ عُرضةً للزّمانِ
سَكْرةُ المـال والحداثة والعشــق وسُكر الشَّراب والسلطان

ومن كلام الحكماء : للوالي سَكْرة لا يُفيق منها إلّا بالعزْل . والبوائق: الدّواهي، جمع بائقة ؛ يقال : باقتْهُم الدّاهية بَوْقًا ، أى أصابتْهم ، وكذلك : باقتهم بؤوق على « فُعول » ، وابتاقت عليهم بائقة شر ، مثل ابتاحت ، أى انفتقت ، وانباقَ عليهم الدّهر : هجم بالداهية ، كما يخرُج الصوت من البُوق ، وفى الحديث : « لا يدخل الجَنّة من لا يأمن جارُه بوائقَه » ، أى غوائله وشره .

والقَتَام ، بفتح القاف : الغبار . والأقتم : الذى يعلوه قُتْمة ؛ وهو لون فيه غبرة وحُمْرة .

والعِشْوة ، بكسر العين : ركوب الأمر على غير بيان ووضوح . ويروى : « وتبينوا فى قَتَام العِشْوة » كما قرئ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [2] و ﴿ فتثبتوا ﴾ .

---

(١) سورة الفجر ٢٢ .
(٢) سورة الحجرات ٦ .

واعوجاج الفتنة : أخذها فى غَيْرِ القَصْد ، وعدولها عن المنهج .

ثم كَنّى عن ظهور المستور الخفىّ منها بقوله : «عند طلوع جنينها ، وظهور كمينها» ، والجنين : الولد مادام فى البطن ، والجمع أجِنّة ، ويجوز ألّا يكون الكلام كناية بل صريحاً ؛ أى عند طلوع ما استجنّ منها ؛ أى استتر وظهور ما كمن ، أى ما بطن .

وكَنّى عن استحكام أمر الفتنة بقوله : « وانتصاب قطبها ، ومدار رحاها » .

ثم قال : إنها تبدو يسيرة ، ثم تصير كثيرة .

والفظاعة . مصدر فظُع بالضم ، فهو فظيع أى شديد شنيع مجاوز المقدار ، وكذلك أفظع الرجل فهو مُفظِع ، وأُفظِعَ الرجل على مالم يسم فاعله : نزل به أمر عظيم ، وأفظعت الشيء : وجدته فظيعا ، ومثله استفظعته ، وهذا المعنى كما قال الشاعر :

وَارُبَّما هَاجَ الـ[illegible] ـر من الأمور لك الصغير

وفى المثل : « والشر تبدؤه صغاره » ، وقال الشاعر :

فإنّ النّارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى وَإنّ الحرْبَ أوّلُها كَلامُ[1]

وقال أبو تمام :

ربّ قليل جدّا كثيراً كم مطرٍ بدْؤه مُطيرُ

وقال أيضا :

لا تذيلنْ صغير همّك وانظرْ كم بذى الأثْلِ دوحة من قَضِيبِ[2]

قوله : « شبابها كشباب الغلام » بالكسر ، مصدر شبّ الفرس والغلام يشِبّ ويشُبّ شبابا وشبيبا ، إذا قمص ولعب ، وأشببته أنا ، أى هيّجته

---

(١) لنصر بن سيار ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ١١٠ .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٢ . والأثل : شجر معروف عظيم ، والدوحة : الشجرة العظيمة .

والسِّلام: الحجارة جمع ، واحده سَلِمة بكسر اللام ؛ يذكر الفتنة ، ويقول : انّها تبدو في أول الأمر وأربابها يمرحون ويثبتون كا يثب الغلام ويمرح ، ثم تتحول إلى ان تعضب فيهم آثارا ، كآثار الحجارة في الأبدان ، قال الشاعر :

والحب مثـــل الحرب أولهـــا التحبـــل والنشـــاطُ
وختــامهـــا أم الربيـــق النكز والضربُ القطاطُ[1]

ثم ذكر أنّ هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم ، وكلهم ظالم ، أولهم يقود آخرهم ؛ كما يقود الإنسان القطارَ من الإبل وهو أمامها وهى تتبعه . وآخرهم يقتدي بأولهم ، أى يفعل فعلَه ، ويحذو حذوَه .

وجيفة مريحة : منتنة ، أراحت : ظهر ريحُها . ويجوز أن تكون من أراحَ البعير ، أى مات ، وقد جاء في « أراح » بمعنى أنتن « راح » بلا همز .

ثم ذكر تبرّؤ التابع من المتبوع ، يعنى يوم القيامة

فإن قلت : إنّ الكتاب العزيز إنما ذكر تبرّؤ المتبوع من التابع في قوله :﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾[2] ، وهاهنا قد عكس ذلك ، فقال : إنّ التابع يتبرأ من المتبوع !

قلت : إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك ، في قوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[3] . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾[4] ، فقولهم : ﴿ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ هو التبرؤ ، وهو قوله حكاية عنهم :﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[3] ﴾ ، وهذا هو التبرؤ .

---

(١) أم الربيق كناية عن الحرب .
(٢) سورة البقرة ١٦٦ .
(٣) سورة الأنعام ٢٢ ، ٢٣ .
(٤) سورة غافر ٧٤

ثم ذكر عليه السلام أن القائد يتبرأ من المقود، أى يتبرأ المتبوع من التابع فيكون كلٌّ من الفريقين تبرّأ من صاحبه، كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ (1).

ويتزايلون: يتفرقون.

قوله: « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف ». طالعها: مقدّماتها وأوائلها، وسماها « رَجوفا » ، لشدة الاضطراب فيها.

فإن قلت: ألم تكن قلتَ: إنّ قوله: « عن قليل يتبرأ التابع من المتبوع » يعنى به يوم القيامة، فكيف يقول: « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة » وهذا إنما يكون قبل القيامة!

قلت: إنه لما ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهى الدنيا، أراد أن يقول بعده بلا فصل: « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف » ، لكنه لما تعجّب من تزاحم الناس وتكالُبهم على تلك الجيفة، وأراد أن يؤكد ذلك التعجّب، فأتى بجملة معترضة بين الكلامين، تؤكد معنى تعجّبه منهم، فقال: إنهم على ما قد ذكرنا من تكالُبهم عليها! عن قليل يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضُهم بعضا، وذلك أدعى لهم — لو كانوا يعقلون — إلى أن يتركوا التكالُب والتهارُش على هذه الجيفة الخسيسة. ثم عاد إلى نظام الكلام، فقال: « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف » ، ومثلُ هذا الاعتراض فى الكلام كثير، وخصوصا فى القرآن، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم طرفا.

قوله: « والقاصمة الزَّحوف » القاصمة: الكاسرة، وسماها زَحوفاً تشبيهاً لمشيها الْقُدُماً بمشى الدَّبى الذى يهلك الزروع ويبيدها، والزحف: السير على تُؤَدة كسيرِ الجيوش بعضها إلى بعض.

---

(1) سورة العنكبوت ٢٥ .

قوله : « وتزيغ قلُوب » أى تميل ، وهذه اللفظة والتى بعدها والثّان على خلاف ماتذهب إليه الإماميّة من أنّ المؤمن لا يكفر ، وناصرتان لمذهب أصحابنا .

ونجومُها : مصدر نَجَمَ الشرّ إذا ظهر .

مَنْ أشرف لها : مَنْ صادّمها وقابلها . ومَنْ سعى فيها ، أى فى تسكينها وإطفائها، وهذا كلّه إشارة إلى الملحمة الـكائنة فى آخر الزمان .

والتـكادُم : التعـاضُ بأدْنى الفم ، كا يكدِم الحمـار ، ويقـال : كَدَم يكدِم ، والـكدْم : المعضُ .

والعانة : القطيع من حُمر الوحش ، والجمع عُون .

تغيض فيها الحـكمة : تنقُص .

فإن قلت : ليس قوله : « وتنطِق فيها الظلَمة » واقعاً فى نقيض قوله : « تغيض فيها الحـكمة » ، فأين هذا من الخطابة التى هو فيها نسيجُ وحده !

قلت : بل المناقضة ظاهرة ؛ لأنّ الحـكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بدّ من نطقٍ ما ، فإذا لم تنطق الحـكماء وجبَ أن يكون النطق لمن ليس من الحـكماء ؛ فهو من الظَّلَمة ، فقد ثبت التناقض .

والمِسْحَل : المبرد . يقول : تنحت أهلَ البدْو وتسحتُهم كا يُسحَتُ الحديد أو الخشب بالمبرد . وأهل البدْو : أهلُ البادية ، ويجوز أن يريد بالمسْحَل الحلقة التى فى طَرَفِ شَكيم اللّجام المعترضة بإزاء حَلْقة أخرى فى الطرف الآخر ، وتدخل إحداهما فى الأخرى؛ بمعنى أنّ هـذه الفتنة تصدم أهلَ البدْو بمقدمة جيشها كا يصدمُ الفارسُ الراجل أمامه بمِسْحَل لجام فرسه .

والـكَلْكَل : الصدر . وترضهم : تدقُّهم دقًّا جريشا .

قوله : « تضيع في غبارها الوُحدان » ، جمع واحد ، مثل شاب وشبّان وراعٍ ورُعيان، ويجوز « الأُحدان » بالهمز ، أى مَن كان يسير وحده فإنه يهلك بالكلية في غبارها، وأما إذا كانوا جماعة ركبانا فإنهم يضلون،وهو أقربُ من الهلاك، ويجوز أن يكون الوُحدان جمع أوحد ؛ يقال : فلان أوحد الدّهر ، وهؤلاء الوُحدان أو الأحدان ، مثل أسود وسُودان،أى يضلّ في هذه الفتنة ، وضلالها الذى كنّى عنه بالغبار فضلاء عصرها وعلماء عهدها؛ لغموض الشّبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها . ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أنّ الراكب الذى هو بمظنة النّجاة لا ينجو . والرُّكبان : جمع راكب ،ولا يكون إلا ذا بعير .

قوله : تَرِدُ بمُرّ القضاء ، أى بالبوار والهلاك والاستئصال .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة : إنها من القضاء ؟

قلت : نعم ، لا بمعنى الخلق بل بمعنى الإعلام ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ ﴾[١] أى أعلمناهم ، أى ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء إعلامه من المكلفين أنها أمّ اللّهيم[٢] التى لا تبقى ولا تذر ، فذلك الإعلام هو المرّ الذى لا يبلغ الوصفُ مرارته ، لأنّ الإخبار عن حلول المكروه الذى لا مدفع عنه ولا محيص منه، مرٌّ جدا .

قوله : « وتحلُب عَبيط الدماء » ، أى هذه الفتنة يحلُبها الحالب دما عبيطا،وهذه كناية عن الحرب ، وقد قال عليه السلام في موضع آخر : « أما والله ليحلبنّها دما وليتبعنها ندما» والعبيط . الدم الطرىّ الخالص .

وثَلَمت الإناء ، أثلمه بالكسر .

والأكياس : العقلاء .

---

(١) سورة الاسراء ٤ .

(٢) أم اللهيم : الداهية .

والأرجاس : جمع رِجْس ، وهو القَذَر والنَّجس ، والمراد هاهنا الفاسقون ، فإمّا أن يكون على حذف المضاف ؛ أي ويدبّرها ذوو الأرجاس ، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسها ،[1] لمّا كانوا قد أسرفوا في الفسق ، فصاروا كأنهم الفسق والنجاسة نفسها[1] كما يقال : رجل عَدْل ، ورجل رضا .

قوله : « مِرْعادٌ مِبراقٌ » ، أي ذات وعيد وتهدّد ، ويجوز أن يعني بالرّعد صوتَ السلاح وقعقعته ، وبالبرق لونَه وضوءه .

وكاشفة عن ساقٍ : عن شدّة ومشقة .

قوله : « بريئها سقيم » ؛ يمكن أن يعني بها أنّها لشدّتها لا يكاد الذي يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة ، بل لابدّ أن يستلبَ شيئاً من الفسق والضلال ، أي لشدّة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلّفين حينئذ .

ويمكن أن يعني به أنّ الهارب منها غير ناجٍ ، بل لابدّ أن يصيبه بعض معرّتها ومضرّتها .

وظاعنها مقيم ، أي ما يفارق الإنسان من أذاها وشرّها ؛ فكأنه غير مفارق له ، لأنه قد أبقى عنده ندوباً وعقابيل من شرورها وغوائلها .

* * *

الأصل :

منها :

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الأَيْمَانِ ، وَبِغُرُورِ الإِيمَانِ ، فَلاَ تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلاَمَ الْبِدَعِ .

(١-١) ساقط من ب .

وَالْزَمُوا مَاعُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ . وَاقْدَمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ،وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ،وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ ، وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ ، وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقال : طُلَّ دم فلان فهو مطلول ، أى مُهْدَر لا يُطْلَب به ، ويجوز أطِلّ دمُه ، وطلّه الله وأطلّه : أهدره ، ولا يقال : طَلّ دم فلان بالفتح ، وأبو عبيدة والكسائى يقولانه .

ويختلون : يخدعون بالايمان التى يعقدونها ويقسمون بها ، وبالإيمان الذى يظهرونه ويقرّون به .

ثم قال : « فلا تكونوا أنصار الفتن ، وأعلام البدع » ، أى لا تكونوا ممّن يشارُ إليكم فى البدع كما يشار إلى الأعلام المبنيّة القائمة ، وجاء فى الخبر المرفوع : « كُنْ فى الفتنة كابنِ اللّبون ، لا ظهرَ فيركب ، ولا ضرعَ فيحلب » ، وهذه اللفظة يرويها كثير من الناس لأمير المؤمنين عليه السلام .

قوله : « واقدَموا على الله مظلومين » ، جاء فى الخبر : « كُنْ عبدَ الله المقتول » .

ومدارج الشيطان : جمع مَدْرَجة ، وهى السبيل التى يدرج فيها . ومهابط العدوان : محالّه التى يهبط فيها .

ولُعَق الحرام : جمع لُعْقة ، بالضم ، وهى اسم لما تأخذه الملعقة ، واللَّعقة ، بالفتح : المرّة الواحدة .

قوله : « فإنكم بعين من حرّم » ، يقال : أنت بعين فلان ، أى أنت بمرأى منه ، وقد قال عليه السلام فى موضع آخر بصفّين : « فإنكم بعين الله ، ومع ابن عمّ رسول الله » ، وهذا من باب الاستعارة ، قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[1] ، وقال : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾[2] .

---

(١) سورة طه ٣٩ . (٢) سورة القمر ١٤ .

(١٥٢)

الأصْـلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ؛ لاَ تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ؛ لاِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ، الْأَحَدِ بِلاَ تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لاَ بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لاَ بِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لاَ بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لاَ بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لاَ بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لاَ بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لاَ بِلَطَافَةٍ.

بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ»، فَقَدْ حَيَّزَهُ، عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لاَ مَقْدُورٌ.

* * *

الشَّـرْحُ :

[أبحاث كلامية]

فى هذا الفصل أبحاث :

أولها فى وجوده تعالى ، وإثبات أن للعالم صانعاً ؛ وهاهنا طريقتان فى الدلالة على وجوده الأول سبحانه :

إحداها : الطريقة المذكورة في هذا الفصل ، وهي طريقة المتكلّمين ، وهي إثبات أنّ الأجسام محدَثة ، ولا بدّ للمحدَث من محدِث .

والثانية : إثبات وجوده تعالى من النظر في نفس الوجود .

وذلك لأنّ الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين : واجب وممكن ، وكلّ ممكن لا بدّ أن ينتهيَ إلى الواجب ، لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه في قوامه ؛ فلا بدّ من واجب يستند إليه ؛ وذلك الواجب الوجود الضروريّ الذي لابدّ منه ، هو الله تعالى .

وثانيها : إثبات أزليّته ؛ وبيانه ما ذكره في هذا الفصل ؛ وهو أن العالَم مخلوق له سبحانه حادث من جهته ، والحدث لا بدّ له من محدِث ، فإن كان ذلك المحدِث محدَثا ، عاد القول فيه كالقول في الأول ، ويتسلسل ، فلا بدّ من محدِث قديم ؛ وذلك هو الله تعالى .

وثالثها : أنه لا شبيهَ له ، أي ليس بجسم كهذه الأجسام ، وبيانه ما ذكر أيضاً أنّ مخلوقاته متشابهة ، يعني بذلك ما يريده المتكلّمون من قولهم : الأجسام متماثلة في الجسمية ، وأنّ نوع الجسمية واحد ، أي لا يخالف جسمٌ جسماً بذاته ، وإذا كانت [متماثلة صحّ على كلّ واحد منها ما صحّ على الآخر ، فلو كان [له] سبحانه شبيهٌ منها — أي لو كان جسماً منها — لوجب أن يكون محدَثا كمثلها ، أو تكون قديمة مثله ؛ وكلا الأمرين محال .

ورابعها : أنّ المشاعر لا تستلمه ، وروى « لا تلمسه » ؛ والمشاعر الحواسّ ، وبيانه أنه تعالى ليس بجسم لما سبق ؛ وماليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسة له ؛ لأنّ إدراك المشاعر مدرَكاتها مقصور على الأجسام وهيئاتها . والاستلام في اللغة : لمس الحجر باليد وتقبيله ؛ ولا يهمز ، لأن أصله من السِّلام وهي[1] الحجارة ؛ كما يقال : استنوق الجملُ ، وبعضهم يهمزه .

---

(١) ساقطة من د .

وخامسها : أنّ السواتر لا تحجبه ؛ وبيانه أنّ السواتر والحجب ؛ إنّما تحجب ما كان في جهة ؛ وذلك لأنهما ذوات أين ووضع فلا نسبة لها ، إلى ما ليس من ذوات الأين والوضع .

ثم قال عليه السلام : «لافتراق الصانع والمصنوع» ، إشارة إلى أنّ المصنوع من ذوات الجهة والصانع منزّه عن ذلك ؛ بريء عن المواد ، فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادة والجهة .

وسادسها : معنى قولنا : إنه أحد ، « أنه ليس بمعنى العدد كما يقول الناس : أول العدد أحد وواحد ، بل المراد بأحديّته كونه لا يقبل التجزّؤ ؛ وباعتبار آخر كونه لا ثاني له في الربوبية .

وسابعها : أنّه خالق ، لا بمعنى الحركة والنّصب ، وهو التعب ؛ وذلك لأنّ الخالقين منّا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساما تفعل بالآلات ، والباريّ سبحانه ليس بجسم ، ولا يفعل بالآلة ، بل كونه قادرا إنّما هو لذاته المقدّسة ، لا لأمر زائد عليها ، فلم يكن فاعلا بالحركة .

وثامنها : أنّه سميع ، لا بأداة ؛ وذلك لأنّ حاجتنا إلى الحواسّ ، إنّما كانت لأمر يخصّنا ؛ وهو كوننا أحياء بحياة حالّة في أبعاضنا ، والباريّ تعالى حيّ لذاته ؛ فلم يحتج في كونه مدركا إلى الأداة والجارحة .

وتاسعها : أنه بصير لا بتفريق آلة ، والمراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منّا مبصرا ، فإنّ القائلين بالشعاع يقولون : إنه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعة ؛ وتكون آلة للحيّ في إبصار المبصَرات ، فيتفرّق عليها ، فكل جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصَرا ، والباريّ تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك ، ويفرّق على المرئيات

فيدركها به ؛ وذلك لما قدّمناه من أنّه حيّ لذاته ؛ لا بمعنى ، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدرَكات .

وعاشرها : أنّه الشاهد لا بمماسّة ؛ وذلك لأنّ الشاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود ؛ ألا ترى أنّ مَنْ في الصين لا يكون شاهدا مَنْ في المغرب ؛ لأنّ الحضور الجسمانيّ يفتقر إلى القرب ، والقرب من لوازم الجسمية ، فما ليس بجسم ـ وهو عالم بكلّ شيء ـ يكون شاهدا من غير قرب ولا مماسّة ، ولا أين مطلوب .

وحادى عشرها : أنّه البائن لا بتراخي مسافة ببينونة المفارق عن المادّة بينونة ليست أينيّة ، لأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر بالجهة ؛ فلا جرم كان البارى تعالى مباينا من العالم ، لا بمسافة بين الذاتين .

وثانى عشرها : أنّه الظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة ؛ وذلك لأنّ الظاهر من الأجسام ما كان مرئيا بالبصر ، والباطن منها ما كان لطيفا جدا ؛ إما لصغره أو لشفافيّته ، والبارى تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار ، باطن ؛ أى غير مدرك بالحواسّ لأن ذاته لا تقبل المدركيّة إلّا من حيث كان لطيف الحجم أو شفّاف الجرم .

وثالث عشرها : أنّه قال : بان من الأشياء بالقهر لها ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه[1] بالخضوع له ، والرجوع إليه ؛ هذا هو معنى قول المتكلّمين والحكماء ، والفرق بينه وبين الموجودات كلّها أنه واجب الوجود لذاته ، والأشياء كلّها ممكنة الوجود[2] بذواتها ، فكلّها محتاجة إليه ، لأنها لا وجود لها إلّا به ؛ وهذا هو معنى خضوعها له ورجوعها إليه . وهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء ؛ ومؤثّر في كلّ شيء ؛ إمّا بنفسه ، أو بأن يكون مؤثّرا فيما هو مؤثّر في ذلك الشيء ، كأفعالنا ، فإنه يؤثّر فينا ؛ ونحن نؤثر فيها ، فإذا هو قاهر لكلّ شيء ، وقادر على كلّ شيء . فهذه هى البينونة بينه و بين الأشياء كلّها .

(١) ج : منه .
(٢) ساقطة من د .

ورابع عشرها : أنَّه لا صفة له زائدة على ذاته ؛ ونعنى بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته ؛ وذلك لأنّ مَنْ أثبت هذه الصفة له فقد حدَّه ، ومن حدَّه فقد عدَّه ، ومن عدَّه فقد أبطل أزله ، وهذا كلام غامض ، وتفسيره أن مَنْ أثبت له علما قديما أو قدرة قديمة ، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلومات محدودة ، أى محصورة ، وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدودة ؛ وهذه المقدّمة فى كُتُب أصحابنا المتكلّمين مما يذكرونه فى تقرير أنّ العلم الواحد لا يتعلق بمعلومَين، وأنّ القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلق فى الوقت الواحد من الجنس الواحد فى المحلّ الواحد إلاّ بجزء واحد ؛ وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدَثين ، فإنّ هذا الحكم لازم لها ، فقد ثبت أنّ مَنْ أثبت المعانى القديمة فقد أثبت البارئ تعالى محدود العالمية والقادرية ، ومن قال بذلك فقد عدّه ، أى جعله من جملة الجثة المعدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات ، ومَن قال بذلك ؛ فقد أبطل أزله ، لأن كلّ ذات مماثلة لهذه الذوات المحدَثة ؛ فإنها محدثة مثلها ، والمحدث لا يكون أزليا .

وخامس عشرها : أنّ من قال : « كيف » ، فقد استوصفه ، أى مَنْ قال لزيد : كيف الله ؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفية من الكيفيات ، والبارئ تعالى لا تجوز الكيفيّات عليه ، والكيفيّات هى الألوان والطعوم ونحوها ، والأشكال والمعانى وما يجرى مجرى ذلك ؛ وكلّ هذا لا يجوز إلا على الأجسام .

فإن قلت : ينبغى أن يقول : « فقد وصفه » ، ولا يقال : « فقد استوصفه » ؛ لأنّ السائل لم يستوصف الله ؛ وإنما استوصف صاحبه الذى سأله عن كيفيّة الله .

قلت : « استوصف » ها هنا بمعنى « وصف » ؛ كقولك : استغنى زيد عن عمرو ، أى غَنِىَ عنه ، واستعلى عليه ، أى علا ، ومثله كثير .

وسادس عشرها : أنّ من قال : « أين » فقد حيّزه ، لأنّ « أين » سؤال عن المكان ، وليس الله تعالى فى مكان ، ويأتى أنه فى كلّ مكان بمعنى العلم والإحاطة .

وسابع عشرها : أنه عالم إذ لا معلوم ، ورب إذ لا مربوب ، وقادر إذ لا مقدور ، وكل هذا صحيح ومدلول عليه ، لأنه عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشياء بموجود ، وهو رب كل شيء قبل أن يخلقه ، كما تقول إنه سميع بصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصرات ، أي قبل أن يخلقها ، وقادر على الأشياء قبل كونها ، لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة ، لاستحالة إيجاد الموجود .

وقد شرحنا كل هذه المسائل التوحيدية في كتبنا المصنفة في علم الكلام .

• • •

الأصل :

منها :

قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ ، وَلَمَعَ لَامِعٌ ، وَلَاحَ لَائِحٌ ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ ، وَاسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً ، وَبِيَوْمٍ يَوْماً ؛ وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ .

وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ .

إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ ، اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ ، وَبَاطِنِ حُكْمٍ ؛ لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ .

فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَفِي ، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي .

• • •

الشرح :

هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه .

قد طلع طالع ، يعنى عَوْد الخلافة إليه ، وكذلك قوله : « ولمع لامع ، ولاح لائح » ؛ كلّ هذا يراد به معنًى واحد .

واعتدل مائل ، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج فى أواخر أيام عثمان ، واستبدل الله بعثمان وشيعته عليًّا وشيعته ، وبأيام ذاك أيام هذا .

ثم قال : « وانتظرنا الغِيَر انتظار المجدب المطر » ؛ وهذا الكلام يدلّ على أنه قد كان يتربّص بعثمان الدوائر ، ويرتقب حلول الخطوب بساحته ، لِيَلِيَ الخلافة .

فإن قلت : أليس هو الذى طلّق الدنيا ، فأين هذا القول من طلاقها ؟

قلت : إنه طلّق الدنيا أن ينيل[1] منها حظًا دنيويًّا ، ولم يطلقها ، أن ينهى فيها عن المنكرات التى أمره الله تعالى بالنهى عنها ، ويقيم فيها الدين الذى أمره الله بإقامته ، ولا سبيل له إلى النهى عن المنكر والأمر بالمعروف إلا بولاية الخلافة .

* * *

[عقيدة علىّ فى عثمان ورأى المعتزلة فى ذلك]

فإن قلت : أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال : إنه عليه السلام كان ينتظر قتل عثمان ، انتظار المجدب المطر ، وهل هذا إلا محض مذهب الشيعة !

قلت : إنه عليه السلام لم يقل : « وانتظرنا قتله » وإنما انتظر الغِيَر ، فيجوز أن يكون أراد انتظار خلعه وعزله عن الخلافة ، فإنّ عليًّا عليه السلام عند أصحابنا كان يذهب إلى أنّ عثمان استحقّ الخلع بإحداثه ، ولم يستحقّ القتل ، وهذا الكلام إذا حُمل على انتظار الخلع كان موافقًا لمذهب أصحابنا .

---
(١) د : « ينال » .

فإن قلت : أتقول المعتزلة إن علياً كان يذهب إلى فسق عثمان المستوجب لأجله الخلع؟
قلت : كلّا ! حاش لله أن تقول المعتزلة ذلك ! وإنما تقول إنّ علياً كان يرى أنّ عثمان يضعف عن تدبير الخلافة ، وأنّ أهله غلبوا عليه ، واستبدّوا بالأمر دونه ، واستعجزه المسلمون ، واستسقطوا رأيه ، فصار حكمه حكم الإمام إذا عمِيَ ، أو أسره العدوّ ، فإنه ينخلع من الإمامة .

* * *

ثم قال عليه السلام : « الأئمة قوّام الله على خلقه » ، أي يقومون بمصالحهم ، وقيّم المنزل : هو المدّبر له .

قال : « وعرفاؤه على عباده » : جمع عَرِيف ، وهو النقيب والرئيس ، يقال : عرُف فلان بالضمّ عرافةً بالفتح ، مثل خَطُب خطابة أي صار عريفاً ، وإذا أردت أنّه عمل ذلك قلت : عرَف فلان علينا سنين ، يعرُف عِرافة بالكسر ، مثل كَتَب يكتبُ كِتابة .

قال : « ولا يدخل الجنة إلا مَن عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار إلا مَن أنكرهم وأنكروه » ، هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] ، قال المفسرون : ينادي في الموقف : يا أتباع فلان ، ويا أصحاب فلان ، فينادَى كلّ قوم باسم إمامهم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : لا يدخل الجنة يومئذ إلا مَن كان في الدنيا عارفاً بإمامه ، ومَن يعرفه إمامه في الآخرة ، فإنّ الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة ، وإن لم يكونوا رأوهم في الدنيا ، كأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يشهد[2] للمسلمين وعليهم ، وإن لم يكن رأى أكثرهم ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[3] وجاء في الخبر

(١) سورة الإسراء ٧١ .
(٢) ب : « شهد » .
(٣) سورة النساء ٤١ .

الموضوع : « مَنْ مات بغير إمام مات ميتة جاهلية » ، وأصحابنا كافة قائلون بصحة هذه القضية ؛ وهي أنه لا يدخل الجنّة إلا من عرف الأئمة ؛ ألا ترى أنهم يقولون : الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلان وفلان ، ويعدّونهم واحدا واحدا ، فلو أنّ إنساناً لا يقول بذلك ؛ لكان عندهم فاسقا ، والفاسق لا يدخل الجنة عندهم أبدا ، أعنى مَنْ مات على فسقه . فقد ثبت أنّ هذه القضية ، وهي قوله : عليه السلام : « لا يدخل الجنّة إلّا مَنْ عرفهم » قضية صحيحة على مذهب المعتزلة ، وليس قوله : « وعرفوه » بمنكر عند أصحابنا ؛ إذا فسرنا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات ، وهو ما ذكرناه .

وبقيت القضية الثانية فيها الأشكال ، وهي قوله عليه السلام : « ولا يدخل النّار إلّا مَنْ أنكرهم وأنكروه » ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : قد يدخل النار مَنْ لم ينكرهم ؛ مثل أن يكون إنسان يعتقد صحة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة ، ثم يزني أو يشرب الخمر من غير توبة ، فإنه يدخل النار ؛ وليس بمنكر للأئمة ؛ فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال !

فالجواب أن الواو في قوله « وأنكروه » بمعنى « أو » كما في قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[1] فالإنسان المفروض في السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إلّا أنهم ينكرونه ، أي يسخطون يوم القيامة أفعاله ، يقال : أنكرت فعل فلان أي كرهته ؛ فهذا هو تأويل الكلام على مذهبنا ، فأمّا الإمامية فإنّهم يحملون ذلك على تأويل آخر ، ويفسرون قوله : « ولا يدخل النار » ، فيقولون : أراد ولا يدخل النار دخولا مؤبدا إلا من ينكرهم وينكرونه .

---

(١) سورة النساء ٣ .

ثم ذكر عليه السلام شرفَ الإسلام ، وقال : إنه مشتقّ من السّلامة ، وإنه جامع للكرامة ، وإنّ الله قد بين حججه ، أي الأدلة على صحّته .

ثم بين ما هذه الأدلة ، فقال : « من ظاهر علم ، وباطن حكم » أي حكمه ، و« من » ها هنا التبيين والتفسير ؛ كما تقول : دفعت إليه سلاحا من سيف ورمح وسهم ؛ ويعنى بظاهر علم وباطن حكم ، والقرآن ، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن ؛ من قوله : « لا تفنى غرائبه » أي آياته المحكمة . و « براهينه العازمة » أي القاطعة ولا تنقضي عجائبه ؛ لأنه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بكفر غرائبَ عجائب لم تكن عنده من قبل .

« فيه مرابيع النّعم » ؛المرابيع الأمطار التي تجيء في أول الربيع فتكون سبباً لظهور الكلأ ، وكذلك تدبّر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها .

قوله : « قد أحمى حماه ، وأرعى مرعاه » ، الضمير في « أحمى » يرجع إلى الله تعالى، أي قد أحمى الله حماه، أي عرّضه لأن يحمى ، كما تقول : أقتلت الرجل، أي عرّضته لأن يقتل، وأضربته ، أي عرّضته لأن يضرب ؛ أي قد عرّض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكّن منها ، وعرّض مرعاه لأن يُرعى ، أي مكّن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربي مبين ، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع حتى نبه في أكثره على أدلة العقل .

(١٥٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ المُذْنِبِينَ ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ .

* * *

الشرح :

يصف إنسانا من أهل الضلال غير معين ؛ بل كما تقول : رحم الله امرأ اتقى ربه وخاف ذنبه ، و بئس الرجل رجل قل حياؤه ، وعدم وفاؤه ؛ وليست تعني رجلا بعينه .

ويهوي : يسقط . والسبيل القاصد : الطريق المؤدية إلى المطلوب .

والإمام : إمّا الخليفة، وإما الأستاذ ، أو الدين، أو الكتاب ؛ على كلّ من هؤلاء تطلق هذه اللفظة .

* * *

الأصل :

منها :

حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ، اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً ؛ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ .

وَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هَذِهِ الْمَزَلَّةَ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ؛ فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي، وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ.

فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ؛ وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ. وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ؛ وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ؛ وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ؛ وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً؛ فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

* * *

الشَّرْحُ:

فاعل « كشف » هو الله تعالى ، وقد كان سبق ذكره في الكلام، وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل النقمة والعذاب ؛ فقد ورد في الخبر الصحيح أنه : « لا يموت ميّت حتى يرى مقره من جنة أو نار ».

ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا، سمّى ذلك عليه السلام استخراجا لهم من جلابيب غفلتهم ، كأنهم كانوا من الغفلة والذهول في لباس نُزِع عنهم.

قال : « استقبلوا مدبراً » ، أي استقبلوا أمراً كان في ظنّهم واعتقادهم مدبراً عنهم، وهو الشقاء والعذاب . « واستدبروا مقبلا » تركوا وراء ظهورهم ما كانوا خُوِّلوه من الأولاد والأموال والنعم ، وفي قوة هذا الكلام أن يقول: عرفوا ما أنكروه وأنكروا ما عرفوه؛

[1] سورة فاطر ١٤ .

وروى : « أحذّركم ونفسى هذه المزلّة » مفعلة ، من الزّلل ، وفى قوله : « ونفسى » لطافة رشيقة ؛ وذلك لأنه طيّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم فى هـذا التحذير ، ليكونوا إلى الانقياد له أقرب ، وعن الإباء والنفرة أبعد ؛ بطريق جدّ لا حب .

والمهاوى : جمع مَهْواة ؛ وهى الهوّة يتردّى فيها .

والمغاوى : جمع مَغْواة ، وهى الشبهة التى يغوَى بها الناس ، أى يضلّون .

يصف الأمور التى يُبين بها الإنسان أرباب الضلال على نفسه ، وهى أن يستنـفق حقّ يقوله ، أو يأمرُ به ، فإنّ الرفق أنجح ، وأن يحرّف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيرا ، وأن يتخوف من الصدق فى ذات الله ، قال سبحانه : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [1] ، فذمّ من لا يصدق ويجاهد فى الحقّ .

قوله : « واختصِرْ من عجلتك » ، أى لا تكن عَجلتك كثيرة ، بل إذا كانت الك عجلة فلتكن شيئاً يسيرا .

وتقول : أنعمت النظر فى كذا ، أى دقّقته ، من قولك : أنعمت سَحْق الحبر ، وقيل : إنه مقلوب « أمعن » .

والنبى الأمّىّ : إمّا الذى لا يحسن الكتابة ، أو المنسوب إلى أمّ القرى ؛ وهى مكّة .

ولا محيص عنـه : لا مفرّ ولا مهرب ، حاص ؛ أى تخلّص من أمر كان نشب فيه .

قوله : « فإن عليه ممرّك » أى ليس القبر بدار مقـام ، وإنما هو ممرّ وطريق إلى الآخرة .

---

(١) سورة النساء ٧٧ .

وكما تدين تدان ، أي كما تجازي غيرك تجازى بفعلك وبحسب ماعملت ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [1] أي مجزيُّون ؛ ومنه الديّان في صفة الله تعالى .

قوله : « وكما تزرع تحصد » معنى قد قاله النّاس بعده كثيرا ، قال الشاعر :

إذا أنْتَ لم تَزْرَعْ وأدْرَكْتَ حاصِداً ندمت على التقصير في زمن البذر

ومن أمثالهم : « من زرع شرا حصد ندما » .

فامهد لنفسك : أي سوّ ووطّئ .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [2] من القرآن العزيز ، أي ولا يخبرك بالأمور أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها .

* * *



الأصل :

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ ٱللهِ فِي ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ ؛ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلدُّنْيَا لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا : أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ ؛ أَوْ يُعِرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ ؛ أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى ٱلنَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ ، أَوْ يَلْقَى ٱلنَّاسَ بِوَجْهَيْنِ ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ . اعْقِلْ ذٰلِكَ ؛ فَإِنَّ ٱلْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ .

إِنَّ ٱلْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ ٱلسِّبَاعَ هَمُّهَا ٱلْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّ ٱلنِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْفَسَادُ فِيهَا .

إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ، إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ .

* * *

(١) سورة الصافات ٥٣ .

(٢) سورة فاطر ١٤ .

الشرح :

عزائم الله ، هى موجباته والأمر المقطوع عليه ، الذى لا ريبَ فيه ولا شبهة ، قال عليه السلام : إنّ من الأمور التى نصّ الله تعالى عليها نصًّا لا يحتمل التأويل – وهى من العزائم التى يقطع بها ، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها – أنّ مَنْ مات وهو على ذنبٍ من هذه الذنوب[1] المذكورة – ولو اكتفى بذلك عليه السلام لأغناه عن قوله : « لم يتب » إلا أنه ذكر ذلك تأكيدا وزيادة فى الإيضاح[2] – فإنّه لا ينفعه فعل شىء من الأفعال الحسنة ولا الواجبة ؛ ولا تفيدُه العبادة ؛ ولو أجهد نفسه فيها ؛ بل يكون من أهل النار .

والذنوب المذكورة هى أنْ يتخذ مع الله إلها آخر فيشركه فى العبادة ، أو يقتل إنسانا بغير حقّ ، بل ليشفى غيظه ، أو يقذف غيره بأمرٍ قد فعله هو .

عرّه بكذا يعُرّه عرًّا ، أى عابه ولطخه ، أو يروم بلوغ حاجةٍ من أحدٍ بإظهار بدعة فى الدين ؛ كما يفعل أكثرُ الناس فى زماننا ، أو يكون ذا وجهين ؛ وهو أيضا قوله : « أو يمشى فيهم بلسانين » ؛ وإنما أعاده تأكيدا .

• • •

لما نصب معاوية ابنَه يزيد لولاية العهد ، أقعده فى قبّة حمراء ، وأدخل الناس يسلّمون على معاوية ، ثم يميلون إلى قُبّة يزيد ، فيسلّمون عليه بولاية العهد ؛ حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إنك لو لم تولّ هذا أمورَ المسلمينَ لأضعتَها ؛ وكان الأحنف جالساً ، فلما خفّت الناس ، قال معاوية : ما بالُكَ لا تقول يا أبا بحر ! قال : أخافُ الله إن كذبتُك ، وأخافك إنْ صدقتك ؛ فماذا أقول ! فقال : جزاك الله عن الطّاعة خيرا ، وأمر له بصلةٍ جزيلة . فلما خرج لقيَه ذلك الرّجل بالباب ، فقال : يا أبا بحْر ، إنى لأعلمُ أنّ شرّ مَنْ خلَقَ اللهُ هذا الرّجل ؛ ولكنّ هؤلاء

(١) ساقطة من ب .

(٢) ا ، ج : « زيادة الإيضاح » .

قد استوثقُوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعتَ فقال : يا هذا أمسِكْ عليك ؛ فإنّ ذَا الوجهين خليق ألّا يكون وجيهاً عند الله غداً .

* * *

ثم أمرَ عليه السلام بأن يعقَل ما قاله ، ويعلَمَ باطن خطابه ؛ وإنما رمَزَ بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل ، لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين ، وعرَّوه[1] عليه السلام بأمر هم فعلوه ، وهو التأليب على عثمان وحصْرُه ، واستنجحوا حاجتهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة ، ولقُوا الناس بوجهين ولسانين ؛ لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به ، ثم دَبّوا له الخَمَر[2] ، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشِّرك بالله سبحانه ؛ في أنها لا تُغفَر إلا بالتوبة ، وهذا هو معنى قوله : « اعقل ذلك » فإن المِثْل دليل على شبهه . وَرُوِىَ « فإن المَثَل » واحد الأمثال ، أي هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عامّ ؛ والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه .

فإن قلتَ : فهذا تصريح بمذهب الإمامية في طلحة والزبير وعائشة .

قلت : كلّا ، فإن هذه الخطبة خَطَب بها وهو سائر إلى البصرة ، ولم تقع الحرب إلّا بعد تعدّد الكبائر ، ورَمَز فيها إلى المذكورين ، وقال : « إن لم يتوبوا » ؛ وقد ثبت أنهم تابوا ، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة .

ثم أراد عليه السلام أن يومئ إلى ذكر النساء لحال التي كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بامرأة ؛ فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان ، تمهيداً لقاعدة ذِكر النساء ، فقال : إنّ البهائم همّها بطونها ، كالحمر والبقر والإبل الغنم ، وإنّ السّباع همّها العدوان

---

(١) عروه : عابوه .
(٢) الخمر : ما واراك من شجر أو غيره ، ويقال للرجل إذا ختل صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر .

عَلَى غيرها ؛ كالأسود الضارية والنمور والفهود والبُزاة والصقور . ثم قال : وإن النساء همّهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها .

نظر حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة عَلَى شجرة ، فقال : ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذه الثمرة .

ومرّت امرأة بسُقراط وهو يتشرّق فى الشمس ، فقالت : ما أقبحك أيها الشيخ ! فقال : لو أنكنّ من المرائى الصدئة لصفّى ما بان من قبح صورتى فيكنّ .

ورأى حكيم امرأةً تعلّم الكتابة ، فقال : سهم يسقى سمًّا ليرمى به يوما ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارا ، فقال : نار عَلَى نار ؛ والحامل شرٌّ من المحمول

وقيل لسقراط : أىّ السباع أحسن ؟ قال : المرأة .

وتزوّج بعضهم امرأة نحيفة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .

ورأى بعضُ الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السّيل ، فقال : زادت الكَدَر كَدَرا ، والشرّ بالشر يهلك .

* * *

ثم ذكر عليه السلام خصائص المؤمن ، فقال : إنّ المؤمنين مستكينون ؛ استكان الرجلُ ، أى خضَع وذلّ .

إنّ المؤمنين مشفقون ، التقوى رأس الإيمان كا ورد فى الخبر .

ثم قال : « إن المؤمنين خائفون » ؛ هو الأول وإنما أكّده ، والتأكيد مطلوب فى باب الخطابة .

(١٥٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ .
دَاعٍ دَعَا ، وَرَاعٍ رَعَى ؛ فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ .

***

الشرح :

يقول : إنّ قلب اللبيب له عين يبصر بها غايته التى يجرى إليها ، ويعرف من أحواله المستقبلة ما كان مرتفعاً أو منخفضاً ساقطاً . والنَّجْد المرتفع من الأرض ، ومنه قولهم للعالم بالأمور : « طَلّاع أنجد » .

ثم قال : « داع دعا » : موضع « داع » رفع ، لأنه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : « فى الوجود داع دعا ، وراع رعى » ؛ ويعنى بالدّاعى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبالراعى نفسه عليه السلام .

***

الأصل :

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ ؛ وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ .

نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا ؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً .

الشَّرْحُ :

هذا كلام متّصل بكلام لم يحكه الرضيّ رحمه الله ؛ وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمّهم ، ونَعَى عليهم عيوبهم .

وأرزَ المؤمنون : أي انقبضوا ؛ والمضارع «يأرز» بالكسر أرْزًا وأروزا ، ورجل أَرُوز أي منقبض ، وفي الحديث : « إنّ الإسلام ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيّة إلى جُحْرها »[1] ؛ أي ينضمّ إليها ويجتمع .

ثم قال : « نحن الشّعار والأصحاب » ؛ يشير إلى نفسه ، وهو أبدا يأتي بلفظ الجمع ومراده الواحد .

والشّعار : ما يلي الجسد من الثياب ، فهو أقرب من سائرها إليه ؛ ومراده الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وآله .

والخَزَنَةُ والأبواب ؛ يمكن أن يعني به خزنة العلم وأبواب العلم ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ، فمن أراد الحكمة فليأتِ الباب » . وقوله فيه : « خازن علمي » وقال تارة أخرى : « عَيْبَةُ علمي » . ويمكن أن يريد خزنة الجنة وأبواب الجنة ، أي لا يدخل الجنة إلا مَنْ وافَى بولايتنا ؛ فقد جاء في حقه الخبر الشائع المستفيض : إنه قسيم النار والجنة ، وذكر أبو عبيد الهرويّ في " الجمع بين الغريبين " ، أنّ قوماً من أئمة العربية فسَّرُوه فقالوا : لأنّه لما كان مُحِبُّهُ من أهل الجنة ، ومبغضُهُ من أهل النار ؛ كأنّه بهذا الاعتبار قسيمُ النار والجنة . قال أبو عبيد : وقال غير هؤلاء : بلْ هو قسيمها بنفسه في الحقيقة ؛ يدخِل قوما إلى الجنة ، وقوما إلى النار ؛ وهذا الذي ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه ، يقول للنار : هذا لي فدعيه ، وهذا لك فخذيه .

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتَى إلّا من أبوابها ، قال الله تعالى : ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٤ .

الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[١].

ثم قال : مَنْ أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً ، وهذا حقّ ظاهراً وباطناً ؛ أمّا الظاهر فلأنّ مَنْ يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق ، وأمّا الباطن فلأنّ مَنْ طلب العلم من غير أستاذ محقّق فلم يأته من بابه ؛ فهو أشبه شيء بالسارق .

• • •

[ذكر الأحاديث والأخبار الواردة فى فضائل علىّ]

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو فخر بنفسه ، وبالغ فى تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته ؛ التى آتاه الله تعالى إياها ، واختصّه بها ، وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّة ؛ لم يبلغوا إلى معشار مانطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه فى أمره ؛ ولستُ أعنى بذلك الأخبارَ العامّة الشائعة التى يحتجّ بها الإماميّة على إمامته ، كخبر الغدير ، والمنزلة ، وقصّة براءة ، وخبر المناجاة ، وقصّة خيبر ، وخبر الدار بمكة فى ابتداء الدعوة ؛ ونحو ذلك ؛ بل الأخبار الخاصّة التى رواها فيه أئمة الحديث ، التى لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره ؛ وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً مما رواه علماء الحديث الذين لا يُتَّهمون فيه ، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه ، فروايتهم فضائلَه توجب من سكون النفس مالا يوجبه رواية غيرهم .

• • •

الخبر الأول : « ياعلىّ ، إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها ، هى زينة الأبرار عند الله تعالى ، الزّهد فى الدنيا ، جعلك لاترزأ من الدنيا شيئاً[٢] ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ؛ ووهب لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ؛ ويرضون بك إماما » .

(١) سورة البقرة ١٧٧
(٢) ترزأ : تأخذ .

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بـ " حلية الأولياء " وزاد فيه أبو عبدالله أحمد بن حنبل في " المسند " : « فطوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب فيك ! » .

* * *

الخبر الثاني: قال لوفد ثقيف : « لتُسْلِمُنَّ ، أو لأبعثنّ إليكم رجلا مني ــ أو قال: عديل نفسي ــ فليضربنّ أعناقكم ، وليَسبينّ ذراريكم ، وليأخذنّ أموالكم » . قال عمر : فما تمنيت الإمارة إلّا يومئذ ، وجعلتُ أنصب له صدري رجاء أن يقول : هو هذا . فالتفت فأخذ بيد علي وقال : « هو هذا ! » ، مرتين .

رواه أحمد في " المسند " ، ورواه في كتاب فضائل علي عليه السلام ، أنه قال : « لتنتهُنّ يابني وليعة[1] ، أو لأبعثنّ إليكم رجلا كنفسي ، يُمضي فيكم أمري . يقتل المقاتلة ، ويسبي الذرّيّة » . قال أبو ذر : فما راعني إلّا برد كفّ عمر في حُجزتي[2] من خلفي ، يقول : مَنْ تراه يعني ؟ فقلت : إنه لا يعنيك ، وإنما يعني خاصفَ النعل ، وإنه قال : « هو هذا » .

* * *

الخبر الثالث : « إنّ الله عهد إليّ في عليّ عهداً ، فقلت : يارب بيّنه لي ، قال : اسمع ، إنّ عليًّا رايةُ الهدى ، وإمامُ أوليائي ، ونورُ من أطاعني ، وهو الكلمة التي ألزمتُها المتقين ؛ مَنْ أحبه فقد أحبّني ، ومن أطاعه فقد أطاعني ؛ فبشّره بذلك . فقلت : قد بشرته يارب . فقال : أنا عبد الله وفي قبضته ؛ فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً ، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولى ؛ وقد دعوت له فقلت : اللهمّ اجْلُ قلبَه ، واجعل ربيعَه الإيمان بك . قال : قد فعلت ذلك ، غير أني مختصّه بشيء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائي ، فقلت : ربّ ، أخي وصاحبي ! قال : إنه سبق في علمي : إنه لمبتلًى ومبتلًى به » .

---

(١) بنو وليعة : حي في كندة .
(٢) الحجزة : موضع الإزار .

ذكره أبو نعيم الحافظ في "حلية الأولياء" عن أبي برزة الأسلمي، ثم رواه بإسناد آخر بلفظ آخر، عن أنس بن مالك: « إنّ ربّ العالمين عهد في عليّ إليّ عهداً: إنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائي، ونور جميع مَنْ أطاعني. إن علياً أميني غداً في القيامة، وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي ».

***

الخبر الرابع: « مَنْ أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه، وإلى آدم في علمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في فطنته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب ».
رواه أحمد بن حنبل في "المسند"، ورواه أحمد البيهقي في صحيحه.

***

الخبر الخامس: « مَنْ سرّه أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويتمسك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كوني فكانت، فليتمسَّكْ بولاء عليّ بن أبي طالب ».
ذكره أبو نُعيم الحافظ في كتاب "حلية الأولياء" ورواه أبو عبد الله بن حنبل في "المسند"، في كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب، وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: « مَنْ أحبّ أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنّة عدن بيمينه، فليتمسّك بحب عليّ بن أبي طالب ».
الخبر السادس: « والذي نفسي بيده، لولا أن تقول طوائف مِنْ أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالا: لا تمرّ بملأٍ من المسلمين إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة ».
ذكره أبو عبدالله أحمد بن حنبل في "المسند".

***

الخبر السابع: خرج صلى الله عليه وآله على الحجيج عشيّة عرفة، فقال لهم: إنّ الله قد

باهَى بكم الملائكة عامّة ، وغفر لكم عامّة ، وباهَى بعليّ خاصة ، وغفر له خاصة . إنى قائل لكم قولًا غير محاب فيه لقرابتى ! إن السعيد كلّ السّعيد حقّ السعيد مَنْ أحبّ عليًّا فى حياته وبعد موته » .

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى كتاب فضائل على عليه السلام ، وفى " المسند " أيضاً .

* * *

الخبر الثامن : رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى الكتابين المذكورين : « أنا أوّل مَنْ يُدعى به يوم القيامة ؛ فأقوم عن يمين العرش فى ظلّه ، ثم أُكسى حلّة ، ثم يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض ؛ فيقومون عن يمين العرش ويكسون حُللًا ، ثم يدعى بعليّ ابن أبى طالب لقرابته منّى ومنزلته عندى ، ويدفع إليه لوائى لواء الحمد ، آدم ومَنْ دونه تحت ذلك اللواء » . ثم قال لعلىّ : « فتسير به حتى تقف بينى وبين إبراهيم الخليل ، ثم تكسى حلّة ، وينادى منادٍ من العرش : نعم العبدُ أبوك إبراهيم ، ونعم الأخ أخوك على . أبشر فإنك تُدْعَى إذا دعيت ، وتُكسَى إذا كسيت ، وتُحيَا إذا حييت » .

* * *

الخبر التاسع : « يا أنس ، اسكب لى وضوءا » ، ثم قام فصلّى ركعتين ، ثم قال : « أوّل من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقين ، وسيّد المسلمين ، ويعسوب الدين ، وخاتم الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين » . قال أنس : فقلت : اللهمّ اجعله رجلًا من الأنصار ، وكتمت دعوتى ؛ فجاء علىّ ، فقال : صلى الله عليه وسلّم : « مَنْ جاء يا أنس » ؟ فقلت : علىّ ! فقام إليه مستبشرا ، فاعتنقه ، ثم جعل يمسحُ عرق وجهه . فقال علىّ : يارسول الله ، صلّى الله عليك وآلك ! لقد رأيت منك اليوم تصنع بى شيئاً ما صنعته بى قبل ! قال : « وما يمنعنى وأنت تؤدّى عنى ، وتُسمِعُهم صوتى ، وتبين لهم مااختلفوا فيه بعدى ! » .

رواه أبو نعيم الحافظ فى " حلْية الأولياء " .

* * *

الخبر العاشر : « ادعُوا لى سيّدَ العرب عليّاً » ، فقالت عائشة : ألستَ سيّد العرب؟ فقال: « أنا سيّد ولد آدم،وعليّ سيّد العرب »؛فلما جاءأرسل إلى الأنصار،فأتوه،فقال لهم: «يامعشرَ الأنصار،ألا أدلكم على ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً» قالوا: بلى يارسول الله، قال: « هذا عليّ ؛ فأحبّوه بحبّى،وأكرموه بكرامتى،فإنّ جبرائيل أمرنى بالذى قلت لكم عن الله عزّ وجلّ » .

رواه الحافظ أبو نعيم فى " حلية الأولياء " .

* * *

الخبر الحادى عشر : «مرحَباً بسيّد المؤمنين،وإمام المتقين» ! فقيل لعليّ عليه السلام: كيف شكرُك ؟ قال : أحمد الله على ما آتانى ، وأسأله الشكر على ما أولانى ، وأن يزيدنى ممّا أعطانى .

ذكره صاحب " الحلية " أيضاً .

* * *

الخبر الثانى عشر : « مَن سرّه أن يحيا حياتى ، ويموت مماتى ، ويسكن جنّة عدن التى غرسها ربّى ، فليوالِ عليّاً من بعدى ، وليوالِ وليّه ، وليقتدِ بالأئمة من بعدى،فإنّهم عترتى ، خلقوا من طينتى ، ورزقوا فهماً وعلماً.فويل للمكذّبين من أمّتى ! القاطعين فيهم صلتى ، لا أنالهمُ الله شفاعتى » .

ذكره صاحب " الحلية " أيضاً .

* * *

الخبر الثالث عشر : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد فى سريّة ، وبعث عليّاً عليه السلام فى سريّة أخرى ،وكلاهما إلى اليمن،وقال : « إن اجتمعتما فعليّ على الناس ، وإن افترقتما فكلّ واحد منكما على جُنده » ، فاجتمعا وأغارا وسبيا نساء ، وأخذا أموالا ، وقتلا ناسا ، وأخذ عليّ جارية فاختصّها لنفسه ، فقال خالد لأربعة من المسلمين ؛ منهم بُريدة الأسلمى :اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فاذكروا له كذا،واذكروا

له كذا ، لأمور عدّدها على علىّ ، فسبقوا إليه ، فجاء واحد من جانبه ، فقال: إنّ علياً فعل كذا ، فأعرض عنه ، فجاء الآخر من الجانب الآخر ، فقال : إنّ علياً فعل كذا ، فأعرض عنه فجاء بُريدة الأسلمي فقال : يارسول الله ، إنّ علياً فعل ذلك ، فأخذ جاريةً لنفسه ، فغضب صلى الله عليه وآله ، حتى احمرّ وجهه ، وقال : «دَعُوا لى علياً» ، يكررها ، «إنّ علياً منّى وأنا من علىّ ، وإنّ حظه فى الخمس أكثر مما أخذ ؛ وهو ولىّ كلّ مؤمن من بعدى » .

رواه أبو عبد الله أحمد فى "المسند" غير مرة ، ورواه فى كتاب فضائل علىّ ، ورواه أكثر المحدثين .

* * *

الخبر الرابع عشر : « كنت أنا وعلىّ نوراً بين يدى الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام ، فلما خلق آدم قسم ذلك فيه وجعله جزأين ، فجزء أنا ، وجزء علىّ » .

رواه أحمد فى "المسند" وفى كتاب فضائل على عليه السلام ، وذكره صاحب كتاب الفردوس ، وزاد فيه : « ثمّ انتقلنا حتى صرنا فى عبد المطلب ، فكان لى النبوّة ولعلىّ الوصية » .

* * *

الخبر الخامس عشر : « النّظر إلى وجهك ياعلىّ عبادة ، أنت سيّد فى الدنيا وسيّد فى الآخرة ، مَنْ أحبّك أحبّنى . وحبيبى حبيب الله ، وعدوّك عدوّى وعدوّى عدوّ الله ، الويل لمن أبغضك ! » .

رواه أحمد فى "المسند" ، قال: وكان ابنُ عبّاس يفسره ، ويقول : إنّ مَن ينظر إليه يقول : سبحان الله ! ما أعلم هذا الفتى ! سبحان الله ما أشجع هذا الفتى ! سبحان الله، ماأفصح هذا الفتى !

الحديث السادس عشر : لما كانت ليلة بدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ يستقي لنا ماء ؟ » ، فأحجم الناس ، فقام عليّ فاحتضن قربة ، ثم أتى بئرا بعيدة القعر مظلمة ، فانحدر فيها ، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل : أن تأهبوا لنصر محمد وأخيه وحزبه ، فهبطوا من السماء ، لهم لغط يذعر مَنْ يسمعه ، فلما حاذوا البئر ، سلّموا عليه من عند آخرهم إكراما له وإجلالا .

رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ عليه السلام ، وزاد فيه في طريق أخرى عن أنس ابن مالك : « لتؤتيَنّ يا عليّ يوم القيامة بناقة من نوق الجنة فتركبها ، وركبتك مع ركبتي ، وفخذُك مع فخذي ؛ حتى تدخل الجنة » .

* * *

الحديث السابع عشر : خطب صلى الله عليه وآله الناس يوم جمعة ، فقال : « أيها الناس ، قدّموا قريشا ولا تقدموها ، وتعلّموا منها ولا تعلموها ، قوة رجل من قريش تعدلُ قوّة رجلين من غيرهم ، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلين من غيرهم . أيها الناس أوصيكم بحبّ ذي قرباها ، أخي وابن عمي عليّ بن أبي طالب ؛ لا يحبّه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلاّ منافق ؛ مَنْ أحبه فقد أحبّني ، ومَنْ أبغضه فقد أبغضني ، ومَنْ أبغضني عذّبه الله بالنار » .

رواه أحمد رضي الله عنه في كتاب فضائل عليّ عليه السلام .

* * *

الحديث الثامن عشر : الصّدّيقون ثلاثة : « حبيب النجّار ، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، ومؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه ، وعليّ بن أبي طالب ؛ وهو أفضلهم » .

رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ عليه السلام .

* * *

الحديث التاسع عشر : أُعطيتُ في عليّ خمسا ، هُنّ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها ؛ أما واحدة فهو كاتب بين يدي الله عزّ وجلّ ؛ حتى يفرغ من حساب الخلائق ، وأما الثانية

فلواء الحمد بيده ، آدم ومن ولد تحته ، وأما الثالثة فواقف عَلَى عُقْر[1] حوضى ؛ يسقى مَنْ عرف من أمّتى ، وأما الرابعة فساتر عورتى ومسلمى إلى رَبِّى ، وأما الخامسة فإنى لست أخشى عليه أن يعود كافرا بعد إيمان ، ولا زانيا بعد إحصان » .

رواه أحمد فى كتاب الفضائل .

* * *

الحديث العشرون : كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ، فقال عليه الصلاة والسلام يوما : « سدّوا كلّ باب فى المسجد إلا باب علىّ » ، فسدّت ، فقال فى ذلك قوم ، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم ، فقال : « إنّ قوماً قالوا فى سدّ الأبواب وترك باب علىّ ، إنى ما سددت ولا فتحت ، ولكنّى أُمِرت بأمر فاتبعته » .

رواه أحمد فى " المسند " مرارا ، وفى كتاب الفضائل .

* * *

الحديث الحادى والعشرون : دعا صلى الله عليه وآله عليًّا فى غزاة الطائف ، فانتجاه ، وأطال نجواه حتى كره قوم من الصحابة ، ذلك ، فقال قائل منهم : لقد أطال اليوم نَجْوَى ابن عمّه ، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك لجمع منهم قوما ، ثم قال : « إنّ قائلا قال : لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه ، أما إنى ما انتجيتُه ؛ ولكن الله انتجاه » .

رواه أحمد رحمه الله فى " المسند " .

* * *

الحديث الثانى والعشرون : « أخصمك[2] يا علىّ بالنبوّة فلا نبوّة بعدى ، وتخصم الناس بسبع ، لا يحاجك فيها أحد من قريش : أنت أولهم إيمانا بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسويّة ، وأعدلهم فى الرعيّة ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزيّة » .

(١) العقر : مؤخر الحوض حيث تقف الإبل . (٢) أخصمك : أغلبك .

رواه أبو نعيم الحافظ فى " حلية الأولياء " .

* * *

الخبر الثالث والعشرون : قالت فاطمة : إنك زوّجتنى فقيراً لا مال له ، فقال : « زوّجتك أقدمهم سِلْماً ، وأعظمهم حِلْماً ، وأكثرهم عِلْماً ! ألا تعلمين أنّ الله اطّلع إلى الأرض اطلاعةً ، فاختار منها أباك ، ثم اطّلع إليها ثانية فاختار منها بعلك ! » .

رواه أحمد فى المسند .

* * *

الحديث الرابع والعشرون ، لما أنزل : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ بعد انصرافه عليه السلام من غزاة حُنَين ، جعل يكثر من « سبحان الله ! أستغفر الله » ، ثم قال : « يا علىّ إنّه قد جاء ما وعدت به ، جاء الفتح ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا ، وإنه ليس أحد أحقّ منك بمقامى ؛ لقدمك فى الإسلام وقربك منى ، وصهرك ؛ وعندك سيّدة نساء العالمين ؛ وقبل ذلك ما كان من بلاء أبى طالب عندى حين نزل القرآن ؛ فأنا حريصٌ على أن أراعى ذلك لولده » .

رواه أبو إسحاق الثعلبىّ فى « تفسير القرآن » .

* * *

واعلم أنّا إنما ذكرنا هذه الأخبار ها هنا ، لأنّ كثيرا من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مرّوا على كلامه فى « نهج البلاغة » وغيره المتضمّن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صلّى الله عليه وآله ، وتمييزه إياه عن غيره ، ينسبونه إلى التيه والزّهْو والفخر ، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة ، قيل لعمر : وَلّ عليّاً أمر الجيش والحرب ، فقال : هو أتْيَهُ من ذلك . وقال زيد بن ثابت : ما رأينا أزهَى من علىّ وأسامة .

فأردنا بإيراد هذه الأخبار ها هنا عند تفسير قوله : « نحن الشعار والأصحاب ، ونحن الخزنة والأبواب » ، أن ننبّه على عِظَم منزلته عند الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّ من قيل

فى حقه ماقيل لو رقى إلى السماء ، وعرّج فى الهواء ، ونخر عَلَى الملائكة والأنبياء ، تعظما ونبجّحا ؛ لم يكن ملوماً ، بل كان بذلك جديرا ؛ فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قطّ مسلك التعظم والتكبر فى شىء من أقواله ولا من أفعاله ؛ وكان ألطف البشر خلقا ، وأكرمهم طبعا ، وأشدهم تواضعا، وأكثرهم احتمالا ، وأحسنهم بِشْراً ، وأطلقهم وجها؛ حتى نسبه من نسبه إلى الدُّعابة والمزاح، وهما خُلقان ينافيان التكبّر والاستطالة؛ وإنما كان يذكر أحيانا مايذكره من هذا النوع ، نَفْثَةَ مصدُور ، وشكوى مكروب ، وتنفّس مهموم ؛ ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة ، وتنبيه الغافل عَلَى ماخصه الله به من الفضيلة ، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ عَلَى اعتقاد الحقّ والصواب فى أمره والنهى عن المنكر الذى هو تقديم غيره عليه فى الفضل ؛ فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1]

* * *

الأصْل :

منها :

فِيهِمْ كَرَائِمُ الإِيمَانِ ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ ؛ إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا ، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا . فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ ؛ فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ ؛ يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ : أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ ، فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ؛ فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ

---

(١) سورة يونس ٣٥ .

إلَّا بُعْداً مِنْ حاجَتِهِ ؛ وَالْعامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْواضِحِ ؛ فَلْيَنْظُرْ ناظِرٌ أَسائِرٌ هُوَ أَمْ راجِعٌ !

* * *

الشرح :

قوله : « فيهم » يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وآله الذين عناهم بقوله : « نحن الشعار والأصحاب » ، وهو يطلق دائماً هذه الصيغ الجمعية ، ويعنى نفسه ؛ وفي القرآن كثير من ذلك، نحو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] .

وكرائم الإيمان : جمع كريمة وهي النفيسات منه ، قال الشاعر :

ماض من العيش لو يفدى بذلت له كرائم المال من خيل ومن نَعَم

فإن قلت : أيكون في الإيمان كرائم وغير كرائم ؟ قلت : نعم لأنّ الإيمان عند أكثر أصحابنا اسم للطاعات كلّها واجبها ونفلها ، فمن كانت نوافله أكثر كانت كرائم الإيمان عنده أكثر ، ومن قام بالواجبات فقط من غير نوافل ، كان عنده الإيمان، ولم يكن عنده كرائم الإيمان .

فإن قلت : فعلى هذا تكون النوافل أكرمَ من الواجبات ؟

قلت : هي أكرم منها باعتبار ، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر ؛ أمّا الأوّل فلأنّ صاحبها إذا كان قد قام بالواجبات كان أعلى مرتبةً في الجنّة ممن اقتصر على الواجبات فقط ؛ وأمّا الثاني فلأن المخلّ بها لا يعاقب ، والمخلّ بالواجبات يعاقب .

قوله : « هم كنوز الرحمن » لأنّ الكنز مال يدّخر لشديدة أو ملمّة تلمّ بالإنسان ، وكذلك هؤلاء قد ذخروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين .

(١) سورة آل عمران ١٧٣ .

ثم قال : إن نطقوا صدقوا ، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عيّ يوجب كونهم مسبوقين ؛ لكنّهم ينطقون حُكْماً ، ويصمُتون حلماً .

ثم أمر عليه السلام بالتقوى والعمل الصالح ، وقال : « ليصدق رائدٌ أهلَه » ، الرائد : الذاهب من الحيّ يرتاد لهم المرعى ؛ وفى أمثالهم : « الرائد لا يكذب أهلَه » ، والمعنى أنه عليه السلام أمر الإنسان بأن يصدُق نفسَه ولا يكذبَها بالتسويف والتعليل ، قال الشاعر :

أَخِيَّ إذا خاصمتَ نفسَكَ فاحتشِدْ   لها وإذا حدثْتَ نفسَكَ فاصدُقِ

وفى المثل : « المتشبِّع بما لا يملك كلابس ثوبَيْ زور » .

فإنه منها قدم ؛ قد قيل : إن الله تعالى خَلَقَ أرواح البشر قبل أجسادهم ، والخبر فى ذلك مشهور والآية أيضاً ؛ وهى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [1] . ويمكن أن يفسّر على وجه آخر ، وهو أن الآخرة اليوم عَدَمٌ محضٌ ، والإنسان قَدِم من العدم ، وإلى العدم ينقلب ؛ فقد صحّ أنه قدم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة .

وروى : « أنّ العامل بالبصر » أى بالبصيرة ، فيكون هو وقوله : « فالناظر بالقلب » سواء ؛ وإنما قاله تأكيداً ، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل ، فأما الرواية المشهورة فالوجه فى تفسيرها أن يكون قوله : « فالناظر » مبتدأً و « العامل » صفة له ؛ وقوله : « بالبصر يكون مبتدأ عمله » جملة مركبة من مبتدأ وخبر ، موضعها رفع ، لأنها خبر المبتدأ الذى هو « فالناظر » ؛ وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها « كان » ، فالجار والمجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع ، لأنها خبر « كان » ، ويكون قوله فيما بعد : « أن يعلم » منصوب

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢

للوضع ؛ لأنه بدل من «البصر» الذي هو خبر «يكون» والمراد بالبصر هاهنا البصيرة، فيصير تقدير الكلام : فالناظر بقلبه، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة، بأن يعلم : أعمله له أم عليه !

ويروى : «كالسابل على غير طريق» ، والسابل : طالب السبيل ؛ وقد جاء في الخبر المرفوع : «مَنْ عمِل بغير هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً» ، وفي كلام الحكماء : «العامل بغير علم كالرامي من غير وتر» .

• • •

الأصل :

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ ؛ فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ ، طَابَ بَاطِنُهُ ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ» .

• • •

الشرح :

هذا الكلام مشتقّ من قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾[1] ؛ وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من البشر ، ولمن لا يؤثّر ذلك فيه ، مثّله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبْت ، والأرض السبخة الخبيثة لا تنبت ؛ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى يومىء . يقول : إنّ لكلتا حالتي الإنسان الظاهرة أمراً باطناً يناسبها من أحواله ؛ والحالتان الظاهرتان : ميله إلى العقل وميله إلى الهوى ؛ فالمتّبع لمقتضى عقله يرزق السعادة والفوز ؛ فهذا هو الذي طاب

(١) سورة الأعراف ٥٨ .

ظاهره ، وطاب باطنه ، والمتّبع لمقتضى هواه وعادته ودين أسلافه يرزق الشّقاوةوالعطب ؛ وهذا هو الذى خبُث ظاهره وخَبُث باطنه .

فإن قلت : لِمَ قال : «فما طاب» ؟ وهلاّ قال: «فمن طاب» ! وكذلك فى «خَبُث» !

قلت : كلامه فى الأخلاق والعقائد وما تنطوى عليه الضمائر؛ يقول : ماطاب من هذه الأخلاق والملكات ، وهى خلق النفس الربانيّة المريدة الحقّ؛ من حيث هو حقّ؛ سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن ؛ وسواء كان ذلك مستقبحا مستهجنا عند العامّة أو لم يكن ؛ وسواء نال به من الدنيا حظًّا أو لم ينل . يستطيب باطنه يعنى ثمرته ؛ وهى السعادة ؛ وهذا المعنى من مواضع « ما » لا من مواضع « من » .

وأما الخبر المروى[1]؛ فإنه مذكور فى كتب المحدّثين؛ وقد فسّره أصحابنا المتكلّمون، فقالوا : إنّ الله تعالى قد يحبّ المؤمن ويحبّ له إرادة إثابته ، ويبغض عملا من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر ؛ فإنها مكروهة عند الله ؛ وليست قادحة فى إيمان المؤمن ؛ لأنها تقع مكفّرة؛ وكذلك قد يبغض العبد بأن يريد عقابه ؛ نحو أن يكون فاسقا لم يتب، ويحبّ عملا من أعماله ؛ نحو أن يطيع ببعض الطاعات ، وحبّه لتلك الطاعة ؛ هى إرادته تعالى أن يُسقط عنه بها بعض مايستحقّه من العقاب المتقدّم .

* * *

الأصلُ :

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لاَغِنَى بِهِ عَنِ ٱلْمَاءِ . وَٱلْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ .

* * *

(١) ساقطة من ب .

الشرح :

السَّقْى : مصدر سَقَيْت ، والسِّقْى ، بالكسر : النصيب من الماء .

وأمرّ الشىء ، أى صار مرًّا .

وهذا الكلام مثل فى الإخلاص وضدّه وهو الرياء وحبّ السمعة ، فكلّ عمل يكون مدده الإخلاص لوجه تعالى لا غير ؛ فإنه زاكٍ حلو الجنَى . وكلّ عمل يكون الرياء وحبّ الشهرة مدده ؛ فليس بزاكٍ ، وتكون ثمرته مرّة المذاق .



(١٥٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ .

هُوَ اللّٰهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ . لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً . خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ؛ فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ .

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ . وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا ، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا ، وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا ، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ائْتِلَاقِهَا . وَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا ، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا ، فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا ، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا ، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ فِي وِجَارِهَا ؛ أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا ، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا .

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً ، وَالنَّهارَ سَكَناً وَقَرَاراً !

وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ العُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا ، وَلَمْ[1] يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا . تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا ، لَاجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ .

فَسُبْحَانَ البَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ !

* * *

الشّرح :

الخفّاش ، واحد جمعه خَفافيش، وهو هذا الطائر الذى يطير ليلا ولا يطير نهارا، وهو مأخوذ من الخَفَش، وهو ضعف فى البصر خِلْقة، والرجل أخفش، وقد يكون علّة، وهو الذى يبصر بالليل لا بالنهار ، أو فى يوم غيم لا فى يوم صَحْو .

وانحسرت الأوصاف : كلّت وأعيت . وردعت : كَفَّت . والمساغ : المسلك .

قال : « أحقّ وأبيَن مما ترى العيون » ؛ وذلك لأنّ العلوم العقلية إذا كانت ضرورية أو قريبة من الضرورية ، كانت أوثق من المحسوسات، لأنّ الحسّ يغلط دائما، فيرى الكبير صغيرا كالبعيد ، والصغير كبيرا ، كالعنبة فى الماء تُرى كالإجّاصة، ويُرى الساكن متحرّكا، كجرف الشّطّ إذا رآه راكبُ السفينة متصاعدا، ويُرى المتحرك ساكنا كالظلّ، إلى غير ذلك من الأغاليط والقضايا العقلية الموثوق بها ؛ لأنها بديهية أو تكاد، فالغلط غير داخل عليها.

قوله : « يقبضها الضياء » ، أى يقبض أعينها .

قوله : « وتتّصل بعلانية برهان الشمس » كلام جيّد فى مذاهب الاستعارة .

---

(١) د : « ولما » .

وسُبُحات إشـراقها: جلاله وبهاؤه . وأكنّها : سترها، وبُلَج ائتلافها: جمع بُلْجة؛ وهى أول الصبح ؛ وجاء بَلْجة أيضا بالفتح .

والحِدَاق : جمع حَدَقة العين . والأسداف : مصدر أسدف الليل ، أظلم .

وغسق الدُجْنة : ظلام الليل . فإذا ألقت الشمس قناعها ، أى سفرت عن وجهها وأشرقت .

والأوضاح: جمع وَضَح، وقد يراد به حلىٌ يعمل من الدراهم الصّحاح، وقد يراد به الدراهم الصّحاح نفسها وإن لم يكن حُليًّا . والضِّباب ، جمع ضَبّ . ووجارها : بيتها . وشظايا الآذان: أقطاع منها . والقصب هاهنا : المضروف .

وخلاصة الخُطبة، التعجُّب من أعين الخفافيش التى تبصر ليلا ولا تبصر نهارا، وكلّ الحيوانات بخلاف ذلك، فقد صار الليل لها معاشًا والنهار لها سكنا ؛ بعكس الحال فيأعداها. ثم من أجنحتها التى تطير بها وهى لحم لا ريش عليه ولا غضروف؛ وليست رقيقة فتنشق ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران. ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لاصق بها، فإذا وقعت وقع ملتصقا بها هكذا ، إلى أن يشتدّ ويقوى على النهوض فيفارقها .

* * *

[فصل فى ذكر بعض غرائب الطُيور ومافيها من عجائب]

واعلم أنه عليه السلام قد أتى بالعلة الطبيعية فى عدم إبصارها نهارا ؛ وهو انفعال حاسّة بصرها عن الضوء الشديد ؛ وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس ؛ وهو المرض المسمّى « روز كور » أى أعمى النهار ، ويكون ذلك عن إفراط التحلّل فى الروح النورى، فإذا لقىَ حرّ النهار أصابه قمر ، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول ، فيعود الإبصار .

وأما طيرانها من غير ريش ؛ فإنه ليس بذلك الطيران الشديد ، وإنما هو نهوض وخفة ، أعدها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة،والتصاق الولد بها ، لأنها تضمه إليها بالطبع، وينضم إليها كذلك ، وتستعين على ضمه برجليها،وبقصر المسافة.وجملة الأمر أنه تعجب من عجيب . وفي الأحاديث العامية : قيل للخفاش:لماذا لا جناح لك ؟ قال : لأني تصوير مخلوق ، قيل : فلماذا لا تخرج نهارا ؟ قال: حياء من الطيور،يعنون أنّ المسيح عليه السلام صوّره ، وأنّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ (١) .

وفي الطير عجائب وغرائب لاتهتدى العقول إليها ؛ ويقال : إن ضربين من الحيوان أصمان لا يسمعان ، وهما النعام والأفاعي .

وتقول العرب : إن الظليم يسمع بعينه وأنفه ؛ لا يحتاج معهما إلى حاسة أخرى . والكراكيّ يجمعها أمير لها كيعسوب النحل،ولا يجمعها إلا أزواجا.والعصافير آلفة للناس آنسة بهم،لاتسكن دارا حتى يسكنها إنسان،ومتى سكنتها لم تقم فيها إذاخرج الإنسان منها؛ فبفراقه تفارق ؛ وبسكناه تسكن . ويذكر أهل البصرة: أنه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق في البصرة عصفور إلا خرج إليها ، إلا ماأقام على بيضه وفراخه ؛ وقد يُدَرّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع .

وقال شيخنا أبو عثمان:بلغني أنه درّب فيرجع من ميل.وليس في الأرض رأس أشبه برأس الحية من رأس العصفور ، وليس في الحيوان الذي يعايش الناس أقصرَ عمراً منه ، قيل لأجل السفاد الذي يستكثر منه . وبتميز الذكر من الأنثى في العصافير تميُّز الديك

---

(١) سورة المائدة ١١٠ .

من الدجاجة ؛ لأنّ له لحية ؛ ولا شيء أحمق على ولده منه ، وإذا عرّض له شيء صاح ، فأقبلت إليه العصافير بساعدنه ؛ وليس [لشيء][1] في مثل جسم العصفور [من][1] شدّة وطئه [إذا مشى أو على السطح ما العصفور ؛ فإنك][1] إذا كنتَ تحت السطح ووقع ؛ حسبت وقعتَه وقعة حجر ، وذكور[2] العصافير لا تعيش إلّا سنة ؛ وكثيراً ما تجلب الحيّات إلى المنازل ، لأنّ الحيّات تتبعها حرصا على ابتلاع بيضها وفراخها .

ويقال : إن الدجاجة إذا باضت بيضتين في يوم واحد وتكرّر ذلك ماتت ، وإذا هَرِمت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضه صفرة ؛ وإذا لم يكن للبيضة محّ لم يخلق فيها فرّوج ؛ لأن غذاءه المحّ مادام في البيضة ، وقد يكون للبيضة مُحّان فتنفقص[3] عن فرّوجين يخلقان من البياض ، ويغتذيان بالمحّين ، لأن الفراريج تُخلَق من البياض وتغتذى بالصُّفرة .

وكلّ ديكٍ فإنه يلتقط الحبّة فيحذف بها إلى الدجاجة سماحاً وإيثاراً ؛ ولهذا قالوا : « أسمح من لافظة » يعنون الدّيك ، إلا ديكة مَرْو بخراسان ، فإنّها تطرد دجاجها عن الحبّ وتنزعه من أفواهها فتبتلعه .

والحمامة بلهاء ، وفي أمثالهم : « أحمق من حمامة » ، وهي مع حُمْقها مهتدية إلى مصالح نفسها وفراخها .

قال ابنُ الأعرابيّ : قلت لشيخ من العرب : مَنْ علّمك هذا ؟ قال : علّمني الذي علّم الحمامة على بَلَهِها تقليبَ بيضها ، كيْ تعطيَ الوجهين جميعا نصيبهما من الحضن .

والهداية في الحمام لا تكونُ إلّا في الخُضر والنُّمر ، فأمّا الأسود الشديد السواد فهو كالزنجيّ القليل المعرفة ، والأبيض ضعيف القوّة . وإذا خرج الجوزل[4] عن بيضته علم أبواه أنّ حلقه لا يتسع للغذاء ، فلا يكون لهما همّ إلا أن ينفخا في حلقه الريح لتتسع حوصلته بعد التحامها ، ثم يعلمان أنه لا يحتمل في أوّل اغتذائه أن يُزَقّ بالطعم ؛ فيزقّانه باللعاب المختلط

(١) تكملة من كتاب الحيوان .

(٢) د : « ذكورة »

(٣) انفقصت البيضة عن الفرخ : انفلقت عنه .

(٤) الجوزل : فرخ الحمام .

بقواها وقوى الطُّعْم ثم يعلمان أنّ حَوْصلته تحتاج إلى دِباغ ، فيأ كلان من شُورج [١] أصول الحيطان ، وهو شيء من الملح الخالص والتراب فيَزُقّانه به . فإذا علما أنه قد اندبغ زقّاه بالحبّ الذي قد غبّ في حواصلهما، ثم بالذي هو أطرى فأطرى ، حتى يتعوّد ؛ فإذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ، ليحتاج وينشوّف ، فنطلبه نفسه ، ويحرص عليه ؛ فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما ، نزع الله تلك الرحمة منهما ، وأقبل بهما على طلب نَسْل آخر .

ويقال : إنّ حيّة أكلت بيض مُكّاء فجعل المُكّاء يشرشر على رأسها ، ويدنومنها حتى دَلَعت [٢] الحيّة لسانها ، وفتحت فاها تريده وتهمّ به ، فألقى فيها حَسَكة [٣] فأخذت بحلقها حتى ماتت !

ومن دعاء الصالحين : يارزاق النّعاب [٤] في عشه ؛ وذلك أنّ الغراب إذا فقص عن فراخه ، فقص عنها بيض الألوان ، فينفر عنها ولا يزقّها ؛ فتنفتح أفواهها ، فيأتيها ذباب يتساقط في أفواهها ، فيكون غذاءها إلى أن تسود ، فينقطع الذباب عنها، ويعود الغراب إليها فيأنس بها ويغذّيها .

والحُبارَى تدبّق [٥] جناح الصقر بذرقها ، ثم يجتمع عليه الحُباريات ، فينتفن ريشه طاقةً طاقةً ؛ حتى يموت ؛ ولذلك يحاول الحُبارى العلوّ عليه ، ويحاول هو العلوّ عليها ، ولا يتجاسر أن يدنوّ منها متسفّلا عنها . ويقال : إن الحبارى تموت كَمَداً إذا انحسر عنها ريشها ، ورأت صُوَيحباتها تطير .

* * *

(١) الشورج : نوع من الملح ؛ وربما كان للدباغة خاصة .
(٢) دلعت لسانها : أخرجته .
(٣) حسكة : شوكة .
(٤) النعاب : أي الغراب .
(٥) تدبق : تصطاد .

وكلّ الطير يتسافد بالأستاه إلا الحجَل؛ فإن الحجلة تكون فى سُفالة الريح، واليعقوب[1] فى عَلاوتها، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفُحّال[2] بالريح .

والحُبارَى شـديدُ الحمق، يقـال إنها أحمق الطير؛ وهى أشدّه حياطةً لبيضهـا وفراخهـا .

والعقعق مع كونه أخبث الطير وأصدقها حسا، وأشدها حَذَراً، ليس فى الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضه وفراخه منه .

ومن الطير ما يؤثر التفرّد كالعُقاب؛ ومنه ما يتعايش زوجا كالقَطَا .

والظليم يبتلع الحديد المُحمَى، ثم يميعُه فى قانصته حتى يُحيله كالماء الجارى؛ وفى ذلك أعجوبتان: التغذّى بما لا يتغذّى به، واستمراؤه وهضمه شيئا لو طبخ بالنار أبداً لما انحلّ .

وكا سُخّر الحديد لجوف الظليم فأحاله، سُخّر الصخر الأصمّ لأذناب الجراد، إذا أراد أن يلقى بيضه غرس ذنبه فى أشدّ الأرض صلابة، فانصدع له؛ وذلك من فعل الطبيعة بتسخير الصانع القديم سبحانه؛ كما إنّ عود الحَلْفاء الرَّخْو الدقيق[3] المنبت، يلقى فى نباته الآجرّ والخزَف الغليظ، فيثقبه .

وقد رأيت فى مسنّاة سور بغداد، فى حجر صلد نبتةَ نبات قد شقّت وخرجت من موضع؛ لو حاول جماعة أن يضربوه بالبيارم الشديدة مدّة طويلة لم يؤثر فيه أثرا .

وقد قيل: إن إبْرة العقرب أنفذُ فى الطَّنْجير[4] والطست .

وفى الظليم شَبَهٌ من البعير من جهة المنسِم والوظيف والعُنُق والخزامة التى فى أنفه،

---

(١) اليعقوب: ذكر الحجل .
(٢) الفحال: ذكر النخل .
(٣) ساقطة من ب .
(٤) الطنجير: وعاء يعمل فيه الخبيص (معرب) .

وشَبَهٌ من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار . ثم إنّ ما فيه من شَبَه الطير جَذَبه إلى البيض ، وما فيه من شَبَه البعير لم يجذبه إلى الولادة .

ويقال : إنّ النعامة مع عظم عظامها وشدّة عَدْوِها لا مخّ فيها ، وأشدّ ما يكون عَدْوُها أن تستقبل الريح ؛ فكلّما كان أشدّ لعصوفها كان أشدّ لحُضْرِها[1] ، تضع عنقها على ظهرها ثم تخرق الريح ، ومن أعاجيبها أنّ الصيف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمرة ابتدأ لون وظيفها في الحُمْرة ؛ فلا يزالان يزدادان حمرةً إلى أن تنتهيَ حُمْرة البُسْر ، ولذلك قيل للظليم : خاضب ، ومن العجب أنها لا تأنس بالطير ولا بالإبل مع مشاكلتها النوعين ؛ ولا يكاد يرى بيضها مبدّدا البتة ، بل نصفه طولا صفًّا مستويا على غاية الاستواء ، حتى لو مددْتَ عليه خيط المِسْطَر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض ؛ ثم تعطي لكلّ واحدة نصيبها من الحَضْن .

والذئب لا يعرض لبيض النعام ما دام الأبوان حاضرين ، فإنهما متى تقفاه[2] ركبه الذكر فطحره[3] وأدركته الأنثى فركضته . ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عِوَضه ، فلا يزالان يفعلان به ذلك حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً . والنعام قد يتخذ في الدور وضرره شديد ، لأنّ النعامة ربما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ ، فتخطفه وأكلته ، وخرمت الأذن ، أو رأت ذلك في لبّتها فضربت بمنقارها اللبّة فخرقتها[4] .

---

(١) الحضر : نوع من السير .

(٢) تقفاه : تقباه .

(٣) طحره : كسر بيضته .

(٤) الحيوان ٥ : ٢١٧ وما بعدها .

(١٥٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم:

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ فَلْيَفْعَلْ ؛ وَإِنْ أَطَعْتُمُونِي؛ فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ؛ وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ. وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى ، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ !

* * *

الشَّرْحُ :

يعتقل نفسه على الله : يحبسها على طاعته . ثم ذكر أنّ السبيل التي حملهم عليها وهي سبيل الرشاد ؛ ذات مشقّة شديدة ومذاقة مريرة ، لأنّ الباطل محبوب النفوس؛ فإنه اللهو واللّذة ، وسقوط التكليف ؛ وأما الحقّ فمكروه النفس ، لأن التكليف صعب وترك الملاذّ العاجلة ، شاقّ شديد المشقّة .

والضِّغن : الحقد . والمِرْجل : قِدْر كبيرة . والقَيْن : الحداد ، أى كغليان قِدْر من حديد .

* * *

[فصل فى ترجمة عائشة وذكر طرف من أخبارها]

وفلانة كناية عن أم المؤمنين عائشة ، أبوها أبو بكر ، وقد تقدّم ذكر نسبه ، وأمها أم رُومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سبيع بن دُهْمان ابن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة . تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الهجرة بسنتين ، بعد وفاة خديجة ؛ وهى بنت سبع سنين ، وبَنَى عليها بالمدينة ؛ وهى بنت تسع سنين وعشرة أشهر؛ وكانت قبله تذكر لجُبَير بن مطعم؛ وتُسمَّى له ،وكان رسول الله صلى الله عليه وآله رأى فى المنام عائشة فى سَرَقة[1] من حرير عند متوفى خديجة ، فقال : « إن يكن هذا من عند الله يُمْضِه »[2] ؛ روى هذا الخبر فى المسانيد الصحيحة ، وكان نكاحُه إياها فى شوّال ، وبناؤه عليها فى شوّال أيضاً ، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحبتها على أزواجهنّ فى شوّال ، وتقول : هل كان فى نسائه أحظَى منى ! وقد نكحنى ،وبنى عليّ فى شوّال ! رداً بذلك على من يزعم من النساء أن دخول الرجل بالمرأة بين العيدين مكروه .

وتوفّى رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وهى بنت عشرين سنة . واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وآله فى الكُنْية ،فقال لها : « اكتنى بابنك عبد الله بن الزُّبير » ؛يعنى ابنَ أختها ، فكانت تكنَى أمّ عبد الله . وكانت فقيهةً راوية للشعر ، ذات حظ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومَيْل ظاهر إليها ، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمِى ويستشرى[3] ، حتى كان منها فى أمره فى قصة مارية ، ما كان من الحديث[3]

---

(١) السرقة ، واحدة السرق ؛ وهو شقق من الحرير الأبيض .
(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٤٤ .
(٣) انظر تفسير الكشاف ٤ : ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

الذى أسرته إلى الزوجة الأخرى ، وأدّى إلى تظاهرهما عليه ، وأنزل فيهما قرآناً يُتلى فى المحاريب ، يتضمّن وعيداً غليظاً عقيب تصريح بوقوع الذنب ، وصَغْو القلب ، وأعقبتْها تلك الجرأة ، وذلك الانبساط وحدث منها فى أيام الخلافة العلويّة ما حدث ؛ ولقد عفا الله تعالى عنها ، وهى من أهل الجنة عندنا بسابق الوعد ، وماصحّ من أمر التوبة .

وروى أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « الاستيعاب » فى باب عائشة ، عن سعيد ابن نصر ، عن قاسم بن أصبغ ، عن محمد بن وضاح ؛ عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع عن عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنسائه : « أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب ، يقتل حولها قتلى كثير ، وتنجو بعد ما كادت »[1] ؟ .

قال أبو عمر بن عبد البر : وهذا الحديث من أعلام نبوّته صلّى الله عليه وآله ، قال : وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد ، ثقة رجاله أشهر من أن تذكر[2] .

ولم تحمل عائشة من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا وُلد له ولد من مَهِيرة[3] إلا من خديجة ، ومن السَّرارىّ من مارية .

وقُذِفت عائشة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله بصفوان بن المعطّل السُّلَمىّ ، والقصة مشهورة ، فأنزل الله تعالى براءتها فى قرآن يُتْلَى وينقل ، وجُلِد قاذفوها الحدّ ، وتوفيت فى سنة سبع وخمسين للهجرة ، وعمرها أربع وستون سنة ، ودفنت بالبَقيع ،

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٠ ؛ والرواية هناك : « ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ؛ تنبحها كلاب الحوأب؟ » ؛ وقال فى شرحه : أراد « الأدب » ، فأظهر الإدغام لأجل الحوأب ، والأدب الكثير وبر الوجه .

(٢) الاستيعاب ٤ : ٧٤٤ ، وفيه : « وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى ذكر » .

(٣) المهيرة : الحرة من النساء ؛ وهى غير السرية .

في مُلْك معاوية ، وصلّى عليها المسلمون ليلاً ، وأمّهم أبو هريرة ، ونزل في قبرها خمسة من أهلها : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ وذلك لسبع عشرة خلتْ من شهر رمضان من السنة المذكورة .

* * *

فأما قوله : «فأدر كما رأيُ النساء» ، أي ضعف آرائهنّ . وقد جاء في الخبر : «لا يفلح قوم أسندوا أمرَهم إلى امرأة» وجاء : « إنهنّ قليلات عقل ودين » ، أو قال : «ضعيفات» ، ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد ، والمرأة في أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب ، سيئة الظن ، فاسدة التدبير ، والشجاعة فيهنّ مفقودة ، أو قليلة ، وكذلك السخاء .

وأما الضِّغْن ، فاعلم أنّ هذا الكلام يحتاج إلى شرح ، وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعاني رحمه الله أيام اشتغالي عليه بعلم الكلام ، وسألته عمّا عنده فيه ، فأجابني بجواب طويل ؛ أنا أذكر محصوله ، بعضُه بلفظه رحمه الله ، وبعضُه بلفظي ، فقد شذّ عنّي الآن لفظه كلّه بعينه ، قال : أول بدء الضِّغْن كان بينها وبين فاطمة عليها السلام ، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله تزوّجها عقيب موت خديجة ، فأقامها مقامها ، وفاطمة هي ابنة خديجة ، ومن المعلوم أنّ ابنة الرجل إذا ماتت أمّها ، وتزوج أبوها أخرى ، كان بين الابنة وبين المرأة كَدَرٌ وشنآن ، وهذا لابدّ منه ، لأن الزوجة تنفس عليها ميل الأب ، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة . كالضَّرّة لأمها ؛ بل هي ضرة على الحقيقة ، وإن كانت الأمّ ميتة . ولأنّا لو قدّرنا الأمّ حيّة ، لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة ، فإذا كانت قد ماتت ورثتْ ابنتها تلك العداوة ، وفي المثل : « عداوة الحماة والكَنّة » . وقال الراجز :

إنِ الحياة أو لِمْتَ بالسَّكَّةْ وأوليتَ كَنَّتَها بالظِّنَّةْ

ثم اتفق أن رسول الله صلى الله عليه وآله مال إليها وأحبَّها ، فازداد ماعند فاطمة بحسب زيادة ميله ، وأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنونه؛ وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم ، حتى خرج بها عن حدِّ حبِّ الآباء للأولاد ، فقال بحضر الخاصِّ والعام مراراً لا مرة واحدة ، وفي مقامات[٢] مختلفة لا في مقام واحد : إنَّها سيدة نساء العالمين ، وإنها عديلة مريم بنت عمران ، وإنها إذا مرَّت في الموقف نادى منادٍ من جهة العرش : يا أهل الموقف ، غضُّوا أبصاركم لتعبُرَ فاطمة بنت محمد . وهذا من الأحاديث الصحيحة ، وليس من الأخبار المستضعفة ؛ وإن إنكاحه عليًّا إيَّاها ما كان إلّا بعد أن أنكحه الله تعالى إيَّاها في السماء بشهادة الملائكة . وكم قال لامرة[٣] : « يؤذيني ما يؤذيها ، ويغضبني ما يغضبها » ، و « إنها بضعة منِّي ، يريبني ما رابها » ، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضغن عند الزوجة حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل ، والنفوس البشرية تغيظ على ما هو دون هذا ، فكيف هذا !

ثم حصل عند بعلها ماهو حاصلٌ عندها ـ أعني عليًّا عليه السلام ـ فإنّ النساء كثيراً مايجعلنَ الأحقاد في قلوب الرجال ؛ لاسيما وهنَّ محدِّثات الليل ، كما قيل في المثل ؛ وكانت تكثر الشكوى من عائشة ، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلنَ إليها كلماتٍ عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلنَ إليها كلماتٍ عن فاطمة ؛ وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها ، كانت عائشة تشكو إلى أبيها ، لعلمها أنّ بعلَها لا يُشكِيها[٤] على ابنته ، فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثرٌ ما ، ثم تزايد تقريظُ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) السكة : امرأة الابن . (٢) ب : « في » .
(٣) د : « مرة » . (٤) يقال : أشكى فلاناً ؛ إذا قبل شكواه .

لعلىّ عليه السلام ، وتقريبه واختصاصه ؛ فأحدث ذلك حسداً له وغبطة فى نفس أبى بكر عنه ؛ وهو أبوها ، وفى نفس طلحة وهو ابن عمها ، وهى تجالس إليهما ، وتسمع كلامهما ؛ وهما يجلسان إليها ويحادثانها ، فأعدَى إليها منهما كما أعدتْهما .

قال : ولست أبرّئ علياً عليه السلام من مثل ذلك ؛ فإنه كان ينفَسُ على أبى بكر سكونَ النبىّ صلى الله عليه وآله إليه وثناءه عليه ، ويحب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده ، فتأكّدت البِغْضة بين هذين الفريقين . ثم كان من أمر القذف ما كان ؛ ولم يكن علىّ عليه السلام من القاذفين ، ولكنّه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها ، تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشُّنَأة والمنافقين .

قال له لما استشاره : إن هى إلا شِسْع نعلك ، وقال له : سلِ الخادم وخوّفها وإن أقامت على الجحود فاضربْها ، وبلغ عائشة هذا الكلام كلّه ، وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاماً كثيرا عن علىّ وفاطمة ، وأنهما قد أظهرا الشماتة جهاراً وسرّاً بوقوع هذه الحادثة لهـــا ، فتفاقم الأمرُ وغلُظ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله صالحَها ورجع إليها ، ونزل القرآن ببراءتها ؛ فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قُهِر ، ويستظهر بعد أن غُلِب ، ويبرأ بعد أن اتُّهِم ؛ من بسط اللسان ، وفلَتاتِ القول ؛ وبلغ ذلك كلُّه عليا عليه السلام وفاطمة عليها السلام ، فاشتدّت الحال وغلُظت ، وطوى كلٌّ من الفريقين قلبَه على الشنآن لصاحبه . ثم كان بينها وبين علىّ عليه السلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال ؛ كلّها تقتضى تهييج ما فى النفوس ، نحو قولها له ـ وقد استدناه رسول الله ، فجاء حتى قعد بينه

وبينهما وهما متلاصقان : أما وجدتِ مقعداً لكذا ـ لا تكنى عنه ـ إلّا فخذي ! ونحو ما روى أنه سايره يوماً وأطال مناجاته ، فجاءت وهي سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما ، وقالت : فيم أنتما فقد أطلتما ! فيقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله غَضِب ذلك اليوم . وما روى من حديث الجَفْنة من الثريد التي أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتها ؛ ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها .

ثم اتفق أنّ فاطمة وَلَدَت أولاداً كثيرة بنين وبنات ، ولم تلد هي ولداً ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُقيم بني فاطمة مقام بنيه ، ويسمّى الواحد منهما « ابني » ويقول : « دعوا لي ابني ولا تُزْرِموا[1] على ابني » ، و « ما فعل ابني ؟ » فما ظنّك بالزوجة إذا حُرِمت الولد من البعل ، ثمّ رأت البعل يتبنّى بني ابنته من غيرها ، ويحنو عليهم حُنُوّ الوالد المشفق ! هل تكون مُحِبّةً لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم ، أم مبغضة ! وهل تودّ دوامَ ذلك واستمراره ، أم زواله وانقضاءه !

ثم اتفق أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سدّ باب أبيها إلى المسجد ، وفتح باب صهره ؛ ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة ، ثم عزله عنها بصهره ، فقدح ذلك أيضاً في نفسها ، وولد لرسول الله صلى الله عليه وآله إبراهيم من مارية ، فأظهر عليٌّ عليه السلام بذلك سروراً كثيراً ؛ وكان يتعصّب لمارية ، ويقوم بأمرها عند رسول الله صلى الله عليه وآله ميلاً على غيرها ، وجرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عائشة ، فبرّأها عليٌّ عليه السلام منها ، وكشف بطلانها ، أو كشفه الله تعالى على يده ، وكان ذلك كشفاً محسّاً بالبصر ، لا يتهيأ للمنافقين أن يقولوا فيه ما قالوه في القرآن المنزّل ببراءة عائشة ، وكلّ ذلك مما كان يوغِرُ صدرَ عائشة عليه ، ويؤكّد ما في نفسها منه ، ثم مات إبراهيم فأبطنت شماتةً ، وإن أظهرت كآبة ،

---

[1] النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٢ ، قال : « أي لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم الدمع والبول ؛ إذا انقطع » .

ووجَم عليّ عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة ، وكانا يؤثران ويريدان أن تتميز مارية عليها بالولد ، فلم يقدّر لها ولا لمارية ذلك ؛ وبقيت الأمور على ما هي عليه ؛ وفي النفوس ما فيها ، حتى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله المرضَ الذي توفى فيه ، وكانت فاطمة عليها السلام وعليّ عليه السلام يريدان أن يمرّضاه في بيتهما ، وكذلك كان أزواجه كلهن ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبة القلبية التي كانت لها دون نسائه ، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلها في بيتهما ؛ فلا يكون عنده من الانبساط لوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه في بيت مَنْ يميل إليه بطبعه ، وعلم أنّ المريض يحتاج إلى فضل مداراة ، ونوم ويقظة وانكشاف ، وخروج حَدَث ، فكانت نفسه إلى بيتها أسكَنَ منها إلى بيت صهره وبنته ، فإنه إذا تصور حياءهما منه استحيا هو أيضا منهما ؛ وكل أحد يحب أن يخلو بنفسه ، ويحتشم الصهر والبنت ، ولم يكن له إلى غيرها من الزوجات مثل ذلك الميل إليها ، فتمرض في بيتها ، فغُبِطت على ذلك ، ولم يمرض رسول الله صلى الله عليه وآله منذ قدم المدينة مثل هذا المرض ؛ وإنما كان مرضه الشقيقة[1] يوما أو بعض يوم ثم يبرأ ، فتطاول هذا المرض ؛ وكان عليّ عليه السلام لا يشك أنّ الأمر له ، وأنه لا ينازعه فيه أحد من الناس ، ولهذا قال له عمه وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله : امدُد يدك أبايعك ، فيقول الناس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف عليك اثنان . قال : يا عمّ ، وهل يطمع فيها طامع غيري ؟ قال : ستعلم ، قال : فإني لا أحب هذا الأمر من وراء رتاج ، وأحبّ أن أُصحِرَ به[2] . فسكت عنه ، فلما ثقل[3] رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه ، أنفذ جيش أسامة ، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام

---

(١) الشقيقة : مرض يأخذ في نصف الرأس والوجه .
(٢) يقال : أصحر فلان بما في قلبه ، أي أظهره .
(٣) يقال : أصبح ثاقلا ، أي مريضا .

المهاجرين والأنصار ؛ فكان علي عليه السلام حينئذ بوصوله إلى الأمر — إن حدث برسول الله صلى الله عليه وآله حدث — أوثق ، وتغلب على ظنه أن المدينة لو ماتت خلت من منازع ينازعه الأمر بالكلية ؛ فيأخذه صفواً عفواً ، وتتم له البيعة ، فلا يتهيأ فسخها لو رام ضدّ منازعته عليها ، فكان — من عَوْد أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه ، وإعلامه بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يموت — ما كان ، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف ، فنسب عليٌّ عليه السلام عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصلّ بالناس ؛ لأنّ رسول الله كما روى ، قال : « ليصلّ بهم أحدهم » ، ولم يعيّن ؛ وكانت صلاة الصبح ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في آخر رَمَق يتهادى بين علي والفضل بن العباس ؛ حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر ، ثم دخل فلت ارتفاع الضحى، فجعل يوم صلاته حُجّةً في صرف الأمر إليه ، وقال : أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدّمهما رسول الله في الصلاة ؛ ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصلاة لصرفه عنها ؛ بل لمحافظته على الصلاة مهما أمكن ؛ فبويع على هذه النكتة التي اتّهمها عليٌّ عليه السلام على أنها ابتدأت منها .

وكان عليٌّ عليه السلام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ؛ ويقول : إنه لم يقلّ صلى الله عليه وآله : « إنكن لصويحبات يوسف » إلا إنكاراً لهذه الحال ، وغضباً منها ، لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما ؛ وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب ؛ فلم يُجْدِ ذلك ، ولا أثّر ، مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر ويمهد له قاعدة الأمر ؛ وتقرر حاله في نفوس الناس ومن اتبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار . ولما ساعد على ذلك من الحظ الفلكيّ والأمر السمائيّ ؛ الذي جمع عليه القلوب والأهواء ، فكانت هذه الحال عند عليّ أعظم من كل عظيم ؛ وهي الطامة الكبرى ،

والصيبة العظمى ؛ ولم ينسُبْها إلا إلى عائشة وحدَها ، ولا علّق الأمر الواقع إلا بها ؛ فدعا عليها في خلواته وبين خواصّه ، وتظلّم إلى الله منها ، وجرى له في تخلّفه عن البيْعة ما هو مشهور ؛ حتى بايع ؛ وكان يبلغه وفاطمة عنها كلّ مايكرهانه منذ مات رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن توفِّيَتْ فاطمة ، وهما صابران على مضضٍ ورَمَضٍ[1] ، واستظهرت بولاية أبيها ، واستطالت وعَظُمَ شأنُها ، وانخذل عليّ وفاطمة وقُهِرا ؛ وأُخِذَتْ فَدَكُ ، وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مرارا فلم تظفر بشيء ، وفي ذلك تبلغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كلّ كلام يسوءها ، ويبلّغْنَ عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك ، إلا أنه شتّان ما بين الحالين ، وبعد ما بين الفريقين ، هذه غالبة وهذه مغلوبة ، وهذه آمرة وهذه مأمورة ، وظهر التشفّي والشماتة ، ولا شيء أعظم مرارة ومشقة من شماتة العدوّ .

فقلت له ، رحمه الله : أفتقول أنت : إن عائشة عيّنت أباها للصلاة ورسول الله صلى الله عليه وآله لم يعيِّنْه ؟ فقال : أمّا أنا فلا أقول ذلك ، ولكنّ عليًّا كان يقوله ، وتكليفي غير تكليفه ، كان حاضراً ولم أكن حاضرا ، فأنا محجوج بالأخبار التي اتّصلت بي ، وهي تتضمن تعيين النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي بكر في الصلاة ، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنّه من الحال التي كان حضرها .

قال : ثم ماتت فاطمة ، فجاء نساء رسول الله صلى الله عليه وآله كلّهنّ إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة ، فإنّها لم تأتِ ، وأظهرت مرضاً ، ونقل إلى عليّ عليه السلام عنها كلام يدلّ على السرور .

ثم بايع عليّ أباها فسرّت بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيْعة واستقرار

---

(١) الرمض : الحقد الشديد .

الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا ، واستمرّت الأمور على هذا مُدّة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلى ، والأحقاد تذيب الحجارة ، وكلّما طال الزمان على علىّ تضاعفت همومه ، وباح بما فى نفسه ، إلى أن قتل عثمان وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليبا وتحريضاً ، فقالت : أبعده الله ! لمّا سمعت قتله ، وأمّلت أن تكون الخلافة فى طلحة ، فتعود الإمرة تيميّة كما كانت أولا ، فعدل الناس عنه إلى علىّ بن أبى طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت : واعثماناه ! قتل عثمان مظلوما ، وثار ما فى الأنفس ، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده .

هذه خلاصة كلام الشيخ أبى يعقوب رحمه الله ، ولم يكن يتشيّع ، وكان شديداً فى الاعتزال ، إلا أنه فى التفضيل كان بغداديًّا .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ولو دُعِيَتْ لتنال من غيرى مثل ما أتت إلىّ ، لم تفعل » فإنما يعنى به عمر ، يقول : لو أنّ عمر ولِىَ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذى قتل عليه ، والوجه الذى أنا وليت الخلافة عليه ، ونسب إلى عمر أنه كان يؤثر قتله ، أو يحرّض عليه ، ودعِيَتْ عائشة إلى أن تخرج عليه فى عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام ، تثير فتنة وتنقض البيعة — لم تفعل ، وهذا حقّ ، لأنها لم تكن تجد على عمر ما تجده على علىّ عليه السلام ، ولا الحال الحال .

فأما قوله : « ولها — بعدُ — حُرْمتها الأولى ، والحساب على الله » ، فإنه يعنى بذلك حُرْمتَها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وآله لها ، وحبه إياها . وحسابها على الله ، لأنه غفور رحيم لا يتعاظم عفوه زلّة ، ولا يضيق عن رحمته ذنب .

فإن قلت : هذا الكلام يدلّ على توقّفه عليه السلام في أمرها ، وأنتم تقولون : إنّها من أهل الجنة ، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام ؟

قلت : يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبرُ عنده بتوبتها ؛ فإنّ أصحابنا يقولون : إنّها تابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت ، وقالت : لوددت أن لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين ؛ كلّهم ماتوا ، ولم يكن يوم الجمل . وأنّها كانت بعد قتله تُثنى عليه وتنشر مناقبه ؛ مع أنهم رووا أيضا أنها عَقِيب الجمل كانت تبكي حتى تبلّ خمارها ، وأنّها استغفرت الله وندمت ؛ ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديثُ توبتها عَقِيب الجمل بلاغا يقطع العذر ويثبت الحجة ؛ والذي شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعا مستفيضا ، إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهي على ذلك ، والتائب مغفور له ، ويجب قبول التوبة عندنا في العدل ، وقد أكّدوا وقوع التوبة ؛ منها ما روى في الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله في الآخرة كما كانت زوجته في الدنيا ، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أن نتكلّف إثبات توبتها ولو لم ينقل ، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر !

• • •

الأصْـلُ :

منه :

سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ ؛ فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا ، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ

لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى.

* * *

الشَّرْحُ:

هو الآن في ذكر الإيمان، وعنه قال: «سبيل أبلج المنهاج»، أي واضح الطريق.

ثم قال: «فبالإيمان يستدلّ على الصالحات»، يريد بالإيمان هاهنا مسمّاه اللغويّ لا الشرعيّ؛ لأنّ الإيمان في اللغة هو التصديق، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[1] أي بمصدّق، والمعنى أنّ من حصّل عنده التصديق بالوحدانية والرسالة؛ وهما كلمتا الشهادة، استدلّ بهما على وجوب الأعمال الصالحة عليه أو ندبه إليها، لأنّ المسلم يعلم من دين نبيه صلى الله عليه وآله أنّه أوجب عليه أعمالاً صالحة، وندبه إلى أعمال صالحة؛ فقد ثبت أنّ بالإيمان يستدلّ على الصالحات.

ثم قال: «وبالصالحات يستدلّ على الإيمان»، فالإيمان هاهنا مستعمل في مسمّاه الشرعيّ لا في مسمّاه اللغويّ، ومسمّاه الشرعيّ هو العقد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح، فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستكمل فعل كلّ واجب، ويجتنب كلّ قبيح؛ ولا شبهة أنّا متى علمنا أو ظننّا من مكلّف أنّه يفعل الأعمال الصالحة، ويجتنب الأعمال القبيحة؛ استدللنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه، وبهذا التفسير الذي فسّرناه نسلم من إشكال الدّور، لأنّ لقائل أن يقول: من شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول؛ فلو كان كلّ واحد من الإيمان والصالحات يستدلّ به على الآخر، لزم تقدّم العلم بكلّ واحد منهما على العلم بكلّ واحد منهما، فيؤدّي إلى الدّور؛ ولا شبهة أن هذا الدّور غير لازم على التفسير الذي فسّرناه نحن.

---

(١) سورة يوسف ١٧.

ثم قال عليه السلام : « وبالإيمان يعمر العلم » ؛ وذلك لأنّ العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما علم ، بل مستضرّ به غاية الضرر؛ فكأنّ علمه خراب غير معمور؛ وإنّما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنّب القبيح على مذهبنا، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرنا أو القول اللسانيّ على قول آخرين؛ ومذهبنا أرجح، لأنّ عمارة العلم إنّما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح ؛ وبدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان .

ثم قال : « وبالعلم يُرهب الموت » ، هذا من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] .

ثم قال : « وبالموت تختم الدنيا » ؛ وهذا حق لأنه انقطاع التكليف .

ثم قال : « وبالدنيا تحرز الآخرة » ؛ هذا كقول بعض الحكماء . الدنيا متجر والآخرة ربح ، ونفسك رأس المال .

ثم قال : « وبالقيامة تزلف الجنّة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين » ، هذا من القرآن العزيز[2] . وتزلف لهم : تقدّم لهم وتقرّب إليهم .

ولا مقصر لي عن كذا : لا محبس ولا غاية لي دونه . وأرقل : أسرع . والمضمار : حيث تستبق الخيل .

● ● ●

الأمثال :

منها :

قَدْ تَخَصَّوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الأَجْدَاثِ ، وَصَارُوا إِلَى مَصَايِرِ الْغَايَاتِ ؛ لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا ؛

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) من قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ .
سورة الشعراء ٩٠ ، ٩١ .

لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا، وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ.

وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ ؛ لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ.

• • •

الشرح :

شخَصُوا من بلد كذا : خرجوا . ومستقر الأجداث : مكان استقرارهم بالقبور ؛ وهي جمع جَدَث .

ومصائر الغايات : جمع مَصير ، والغايات : جمع غاية وهي ماينتهى إليه ، قال الكميت :

فالآن صرت إلى أُميّـــــة والأمور إلى مصايِرْ

ثم ذكر أن أهل الثواب والعقاب ؛ كلّ من الفريقين يقيم بدار لا يتحوّل منها ؛ وهذا كما ورد في الخبر : « إنه ينادي منادٍ : ياأهل الجنّة سعادة لافناء لها ، وياأهل النار ؛ شقاوة لافناء لها » .

ثم ذكر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خُلقان من خُلُق الله سبحانه ؛ وذلك لأنه تعالى ماأمر إلّا بمعروف، ومانهى إلا عن منكر ؛ ويبقى الفرق بينه وبينه أنّا يجب علينا النهي عن المنكر بالمنع منه ، وهو ـ سبحانه ـ لايجب عليه ذلك ؛ لأنه لو منع من إتيان المنكر لبطل التكليف .

ثم قال : « إنّهما لايقرّبان من أجلٍ ، ولا ينقصان من رزق » ، وإنما قال عليه السلام

ذلك ، لأنّ كثيرا من الناس يكفّ عن نهى الظلمة عن المناكير ؛ توهّما منه أنّهم إمّا أن يبطشوا به فيقتلوه ، أو يقطعوا رزقه ويحرموه ، فقال عليه السلام : إنّ ذلك ليس ممّا يقرّب من الأجل ، ولا يقطع الرزق . وينبغى أن يحمل كلامُه عليه السلام على حال السلامة وغلبة الظنّ بعدم تطرّق الضرر الموفى على مصلحة النهى عن المنكر .

ثم أمر باتباع الكتاب العزيز ، ووصفه بما وصفه به .

وماء ناقع ، ينقع الغلة ، أى يقطعها ويُروى منها . ولا يزيغ فيُقام : لا يميل فيُستعتب : يطلب منه العتبى هى الرضا ؛ كما يطلب من الظالم يميل فيسترضى .

قال : ولا يخلقه كثرة الردّ وولوج السمع ، هذا من خصائص القرآن المجيد شرّفه الله تعالى ، وذلك أنّ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردّد ولوجُه الأسماع ملّ وسُمِج واستُهجن ؛ إلا القرآن فإنه لا يزال غضاً طرياً محبوباً غير مملول .

(١٥٧)

الأصـل

وقام إليه عليه السلام رجل ، فقال : أخبرنا عن الفتنة ، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال عليه السلام :

إنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ، مَاهَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا ؟ فَقَالَ : يَاعَلِيُّ ؛ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي .

فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي : « أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ » ؟ فَقَالَ لِي : « إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً » ؟ فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ؛ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ؛ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ ، وَقَالَ : يَاعَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ .

قُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ ؟ فَقَالَ : بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ .

•••

الشَّـرح :

قدكان عليه السلام يتكلم فى الفتنة ؛ ولذلك ذكر الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ولذلك قال : « فعليكم بكتاب الله » ، أى إذا وقع الأمر واختلط الناس ، فعليكم بكتاب الله ؛ فلذلك قام إليه مَنْ سأله عن الفتنة . وهذا الخبر مروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قد رواه كثير من المحدّثين عن علىّ عليه السلام ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب علىّ جهاد المشركين » ، قال : فقلت : يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التى كُتب علىّ فيها الجهاد ؟ قال : قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّى رسول الله ، وهم مخالفون السنّة . فقلت : يا رسول الله ، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد ؟ قال : على الإحداث فى الدّين ، ومخالفة الأمر ؛ فقلت : يارسول الله ، إنك كنت وعدتنى الشهادة ، فاسأل الله أن يعجّلها لى بين يديك ، قال : فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ؟ أما إنّى وعدتك الشهادة وستُستشهد ؛ تُضرب على هذه فتخضب هذه ، فكيف صبرك إذاً ؟ قلت : يارسول الله ليس ذا بموطن صبر ، هذا موطن شكر ، قال : أجلْ ، أصبت ، فأعدّ للخصومة فإنك مخاصَم ، فقلت : يا رسول الله ، لو بينت لى قليلا ! فقال : إن أمتى ستُفتَن من بعدى ؛ فتأوّل القرآن وتعمل بالرأى ؛ وتستحلّ الخمر بالنبيذ ، والسحت بالهديّة ، والربا بالبيع ، وتحرّف الكتاب عن مواضعه ، وتغلب كلمة الضلال ، فكن جليسَ بيتك حتى تقلّدها ، فإذا قُلِّدتَها جاشت عليك الصدور ، وقلبت لك الأمور ؛ تقاتل حينئذ على تأويل القرآن ، كما قاتلتَ على تنزيله ؛ فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى . فقلت : يارسولَ الله ، فبأىّ المنازل أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك ؟ أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة ؟ فقال : بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل . فقلت : يا رسولَ الله ، أيدركهم العدل منّا أم من غيرنا ؟ قال : بل منّا ، بنا فتح وبنا يختَم ، وبنا ألّف الله بين القلوب

بعد الشرك ، وبنا يؤلّف بين القلوب بعد الفتنة . فقلت : الحمد لله عَلَى ما وَهب لنا من فضله .

***

واعلم أنّ لفظه عليه السلام المروىّ فى " نهج البلاغة " يدلّ عَلَى أن الآية المذكورة وهى قوله عليه السلام : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ أنزلت بعد أُحُد ؛ وهذا خلاف قول أرباب التفسير ، لأنّ هذه الآية هى أول سورة العنكبوت وهى عندهم بالاتفاق مكيّة ، ويوم أُحُد كان بالمدينة ؛ وينبغى أن يقال فى هذا : إنّ هذه الآية خاصّة أنزلت بالمدينة ، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة ؛ وغلب عليها نسب المكىّ لأنّ الأكثر كان بمكة ، وفى القرآن مثل هذا كثير ، كسورة النحل ، فإنها مكيّة بالإجماع ، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أحد ، وهى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ • وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ • إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

فإن قلت : فلِمَ قال : « علمت أنّ الفتنة لا تنزلُ بنا وَرَسُولُ الله بين أظهرنا » ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (٢) .

وقوله : « حيزت عَنّى الشّهادَةُ » ، أى منعت .

قوله : « ليس هَذَا من مواطن الصبر » كلامٌ عالٍ جدًا يدلّ على يقين عظيم ، وعرفانٍ تام ، ونحوه قوله ــ وقد ضربه ابن ملجم ــ : فزتُ وربِّ الكعبة .

---

(١) سورة النحل ١٢٦ ــ ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ٣٣ .

قوله : « سيُفتنون بعدى بأموالهم » من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (١) .

قوله : « ويمنّون بدينهم على ربّهم » ، من قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (٢) .

قوله : « ويتمنّون رحمته » من قوله : « أحمق الحمقى من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله » .

قوله : « وَيأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ » من قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) .

والأهواء الساهية : الغافلة . والسُّحْت : الحرام ، ويجوز ضم الحاء ، وقد أسحت الرجل فى تجارته ، إذا اكتسب السُّحت .

وفى قوله : « بل منزلة فتنة » تصديق لمذهبنا فى أهل البغى ، وأنهم لم يدخلوا فى الكفر بالكليّة ، بل هم فسّاق ، والفاسق عندنا فى منزلة بين المنزلتين ، خرج من الإيمان ، ولم يدخل فى الكفر .

---

(١) سورة الأنفال ٢٨ .
(٢) سورة الحجرات ١٧ .
(٣) سورة الأعراف ٩٩ .

(١٥٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَلِيلاً عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ .

عِبَادَ اللهِ ؛ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ . آخِرُ فَعَالِهِ [١] كَأَوَّلِهِ ، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ . فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ ؛ فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ ؛ وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ . فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ .

اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ ؛ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ ؛ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ . أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى .

عِبَادَ اللهِ ؛ اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ : فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ . فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ ، لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ . قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ . أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ

---

(١) د : « أفعاله » .

خُلِقَ لِلآخِرَةِ؟ وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!
عِبَادَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

اعْلَمُوا - عِبَادَ اللهِ - أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ، وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ؛ يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَاحِقاً بِهِ؛ فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ!

وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ؛ قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا؛ فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

• • •

الشرح :

جعل الحمد مفتاحا للذكر؛ لأن أول الكتاب العزيز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1]،

---

(١) سورة الحجر ٩.

وسببا للمزيد ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [1] ، والحمد ها هنا هو الشكر ، ومعنى جعله الحمدَ دليلا على عظمته وآلائه أنّه إذا كان سببا للمزيد ، فقد دلّ ذلك على عظمة الصانع وآلائه ؛ أمّا دلالته عَلَى عظمته ، فلأنّه دالٌّ عَلَى أنّ قدرته لاتتناهى أبداً ؛ بل كلّما ازداد الشكر ازدادت النعمة . وأمّا دلالته عَلَى آلائه ، فلأنّه لا جودَ أعظمُ من جود مَنْ يعطى مَنْ يحمده ، لا حمداً متطوّعا ، بل حمْدا واجبا عليه .

قوله : « يجرى بالباقين كجريه بالماضين » ، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم ماقظموه فى هذا المعنى ، قال بعضهم :

مات مَنْ مات والثريّا الثريّا والسّماك السّماك والنّسْرُ نَسْرُ
ونجـــوم السّماء تضحك منّا كيفَ تَبْقَى مِنْ بعدِنا وتَمُرُّ !

وقال آخر :

فما الدّهرُ إلّا كالزّمانِ الّذى مَضَى ولا نحن إلّا كالقرون الأوائلِ

قوله : « لا يعود ما قد ولّى منه » ، كقول الشاعر :

مَا أَحْسَنَ الأيّام إلّا أنّها يا صاحبىّ إذا مَضَتْ لم ترجعِ [2]

قوله : « ولا يبقى سرمداً ما فيه » ؛ كلام مطروق المعنى ، قال عدىّ :

ليس شىءٌ عَلَى المَنون بباقٍ غير وجـــــه المهيمن الخلّاقِ

قوله : « آخر أفعاله كأوّله » ، يروى : « كأوّلها » ، ومن رواه : « كأوّله » أعاد الضّمير إلى الدهر ، أى آخر أفعال الدهر كأوّل الدهر ، فحذف المضاف .

متشابهة أموره ؛ لأنّه ـ كما كان من قبل ـ يرفع ويضع ، ويغنى ويفقر ، ويوجد

---

(١) سورة إبراهيم ٧ .
(٢) البحترى ، ديوانه ٢ : ١٠٠ .

ويسدم ، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة . وروى : « متسابقة » أى شىء منها قبل شىء ، كأنها خيلٌ تتسابق فى مِضْمار .

متظاهرة أعلامه ، أى دَلالاته على سجيّته التى عامَل النّاس بها قديما وحديثا . متظاهرة : يقوى بعضها بعضا . وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام قَلّى عادة العرب فى ذكر الدّهر ؛ وإنما الفاعل على الحقيقة ربُّ الدهر .

والشّوْل : النّوق التى خَفّ لبنها وارتفع ضَرْعها ، وأتى عليها من نَتاجها سبعة أشهر أو ثمانية ، الواحدة شائلة ، وهى جَمْعٌ قَلّى غير القياس . وشوّلت الناقة ، أى صارت شائلة ، فأما الشائلة بغيرها ، فهى الناقة تَشُول بذَنبها للّقاح ولا لبنَ لها أصلا ، والجمع شُوّل ، مثل راكع ورُكّع ، قال أبو النجم :

* كأنّ فى أذنابهنّ الشّوّلِ[1] *

والزاجر : الذى يزجر الإبل بسوقها ، ويقال : حدوتُ إبلى وحدوتُ بإبلى ، والحدو سَوْقها ، والغناء لها ، وكذلك الحُداء ، ويقال للشّمال : حَدْواء ، لأنها تحدو السحاب ، أى تسوقه ، قال العجاج :

* حَدْوَاء جاءتْ من بــــلاد الطورِ[2] *

ولا يقال للذكر : « أحْدَى » ، وربما قيل للحمار إذا قدم أُتُنه : حادٍ ، قال ذو الرّمّة :

* حادى ثلاثٍ من الحُقْب السّماحيجِ[3] *

والمعنى أنّ سائقَ الشّوْل يصيح بها ، ولا يبقى سَوْقها ولا يدارك كما يسوق العِشار[4] .

---

(١) اللسان (شول) .

(٢) ديوانه ٢٨ .

(٣) ديوانه ٧٨ ، وصدره :

* كأنّه حِين يَرْمِى خَلْفَهُنّ به *

(٤) العشار من الإبل : التى قد أتى عليها عشرة أشهر .

ثم قال عليه السلام : « مَنْ شغَل نفسَه بغير نفسه هلك » ، وذلك أنّ من لا يوفّي النظرَ حقَّه ، ويميل إلى الأهواء ونُصرة الأسلاف . والحجاج عمّا رُبّيَ عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعوا في قلبه العقائد ؛ يكون قد شغل نفسه بغير نفسه ، لأنّه لم ينظر لها ، ولاقصد الحقّ من حيث هو حقّ ، وإنّما قصد نُصْرة مذهب معيّن يشقّ عليه فراقه ، ويصعب عنده الانتقال منه ؛ ويسوءه أن يردّ عليه حجةٌ تبطله ، فيُسهر عينه ، ويتعب قلبه في تهويس[1] تلك الحجة والقدح فيها بالغثّ والسمين ، لا لأنه يقصد الحقّ ، بل يقصد نصرة المذهب المعين ، وتشييد دليله ، لا جرَم أنّه متحيّر في ظلمات لا نهاية لها !

والارتباك : الاختلاط ، ربكت الشيء أربكه رَبْكاً ، خلطته فارتبك ، أي اختلط ، وارتبك الرّجل في الأمر ، أي نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه .

قوله : « ومدّتْ به شياطينه في طغيانه » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[2] .

وروى : « ومدّت له شياطينه » باللام ، ومعناه الإمهال ؛ مدّ له في الغيّ ، أي طوّل له، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾[3] .

قوله : « وزينت له سيئ أعماله » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾[4] .

قوله : « التقوى دار حصن عزيز » ، معناه دار حَصَانة عزيزة ، فأقام الاسم مقام المصدر ، وكذلك في الفجور .

ويحرز مَنْ لجأ إليه : يحفظ من اعتصم به .

---

(١) تهويس الحجة : إفسادها .
(٢) سورة الأعراف ٢٠٢ .
(٣) سورة مريم ٧٥ .
(٤) سورة فاطر ٨ .

وحُمَةُ الخطايا : سمُّها ، وتقطع الحمة ، كما تقول : قطعت سَرَيان السمّ في بدن الملسوع بالبادزهرات والترياقات ؛ فكأنه جعل سمّ الخطايا ساريا في الأبدان ، والتقوى تقطع سريانه .

قوله : « وباليقين تدرك الغاية القصوى » ؛ وذلك لأنّ أقصى درجات العرفان الكشف ؛ وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين .

وانتصب « اللهَ ، اللهَ » على الإغراء . و « في » متعلقة بالفعل المقدّر؛ وتقديره: راقبوا. وأعزّ الأنفس عليهم ، أنفسهم .

قوله : « فيشقوة لازمة » ، مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ تقديره : فعابتكم ، أو فجزاؤكم ، أو فشأنكم ؛ وهذا يدل على مذهبنا في الوعيد ، لأنه قسّم الجزاء إلى قسمين ، إمّا العذاب أبدا ، أو النعيم أبدا ؛ وفي هذا بطلان قول المرجئة : إنّ ناساً يخرجون من النار فيدخلون الجنة ، لأن هذا لو صحّ لكان قسماً ثالثاً .

قوله : « فقد دُلِلْتُم على الزّاد » ، أي الطاعة .

وأُمرتم بالظَّعن ، أي أمرتم بهجْر الدنيا ، وأنْ تظعَنُوا عنها بقلوبكم . ويجوز : « الظَّعْن » بالتسكين .

وحُثِثتم على السير ؛ لأنّ الليل والنهار سائقان عنيفان .

قوله : « وإنّما أنتم كرَكْب وقوف لا يَدْرُون مَتى يؤمرون بالسير » ، السّيْر هاهنا، هو الخروج من الدنيا إلى الآخرة ؛ بالموت ؛ جعل الناس ومقامهم في الدنيا كرَكْب وقوف لا يدرون متى يقال لهم : سيروا فيسيرون ، لأنّ الناس لا يعلمون الوقت الذي يموتون فيه.

فإن قلت : كيف سمّى الموت والمفارقة سيراً ؟

قلت : لأنّ الأرواح يُعَرَّجُ بها إمّا إلى عالمها وهم الشهداء ، أو تهوى إلى أسفل

السافلين وهم الأشقياء ؛ وهذا هو السَّيْر الحقيقى ، لا حركة الرجل بالمشى ، ومَنْ أثبت الأنفس المجرّدة ، قال : سَيْرها خلوصها من عالم الحسّ ، واتّصالها المعنوىّ لا الأبدىّ ببارئها ، فهو سير فى المعنى لا فى الصورة ؛ ومَنْ لم يَقُلْ بهذا ولا بهذا قال : إنّ الأبدان بعد الموت تأخذ فى التحلّل والتزايل ، فيعود كلّ شىء منها إلى عنصره ، فذلك هو السَّيْر .

و « ما » فى « ثمّا قليل » زائدة . وتَبِعتُه : إثمُه وعقوبته .

قوله : « إنه ليس لما وعد الله من الخير مَتْرَك » ، أى ليس الثواب فيما ينبغى للمرء أن يتركه ، ولا الشرّ فيما ينبغى أن يرغب المرء فيه .

وتفحصُ فيه الأعمال : تنكشف . والزَّلزال بالفتح : اسم الحركة الشديدة والاضطراب ، والزِّلزال ؛ بالكسر المصدر ، قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾[1] .

قوله : « ويشيب فيه الأطفال » كلام جارٍ مجرى المثل ، يقال فى اليوم الشديد : إنّه ليشيب نواصى الأطفال ؛ وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾[2] ، وليس ذلك على حقيقته ، لأنّ الأمّة مجمعة على أنّ الأطفال لا تتغيّر حالهم فى الآخرة إلى الشيب ؛ والأصل فى هذا أنّ الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شاب سريعاً ، قال أبو الطيّب :

والهمُّ يخترم الجسيمَ نحـافةً ويُشيبُ ناصيةَ الصبىّ ويُهْرِمُ[3]

قوله : « إنّ عليكم رصداً من أنفسكم ، وعيوناً من جوارحكم » ، لأنّ الأعضاء تنطق فى القيامة بأعمال المكلّفين ، وتشهد عليهم .

---

(١) سورة الأحزاب ١١ .
(٢) سورة المزمل ١٧ .
(٣) ديوانه ٤ : ١٢٤ .

والرّصد جمع راصد، كالحرس جمع حارس .

قوله : « وحفّاظ صدق » ؛ يعنى الملائكة الكاتبين ؛ لا يعتصم منهم بسترة ولا ظلام ليل ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

إذا ماخلوت الدّهر يومافلا تقلْ   خَلَوْتُ ؛ وَلَكِن قُل :علىّ رقيبُ

قوله : « وإنّ غدا من اليوم قريب » ، ومنه قول القائل :

• فإنّ غَـداً لناظِرِهِ قريبُ[1] •

منه قوله :

• غَدٌ ماغدٌ ماأقربَ اليوم من غَدِ •

ومنه قول الله تعالى : ﴿ إنّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أليسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[2] .

والصيحة : نفخة الصّور

وزاحت الأباطيل : بعدت ، واضمحلت : تلاشت وذهبت .

قوله : « واستحقّت » ، أى حقّت ووقعت ، استفعل بمعنى « فعل » ، كقولك : استمرّ على باطله ، أى مرّ عليه .

وصدرت بكم الأمور مصادرها ، كلّ وارد فله صَدَر من مورده ، وصدَر الإنسان من موارد الدنيا : الموت ثم البعث .

---

(١) صدره :

• فَإنْ يَكُ صَدْرُ هَـذَا اليَوْمِ وَلّى •

(٢) سورة هود ٨١

(١٥٩)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ ؛ ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ ؛ وَلَنْ يَنْطِقَ ، وَلَـكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . . .

أَلَا إِنَّ فِيـهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ .

الشـرح :

الهجعة : النَّوْمة الخفيفة؛ وقد تستعمل في النَّوْم المستغرق أيضا والمبْرَم: الحبل المفتول.

والذى بين يديه : التوراة والإنجيل .

فإن قلت : التوراة والإنجيل قبله ، فكيف جعلهما بين يديه ؟

قلت: أحد جزأى الصلة محذوف، وهو المبتدأ ؛ والتقدير : بتصديق الذى هو بين يديه؛ وهو ضمير القرآن ، أى بتصديق الذى القرآن بين يديه ؛ وحذف أحد جزأى الصلة هاهنا، ثم حذفه في قوله تعالى : ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً ﴾[1] ، فى قراءة من جعلها اسما

(١) سورة الأنعام ١٥٤ .

مرفوعا، وأيضا فإنّ العرب تستعمل « بين يديه » بمعنى « قبل » ، قال تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [1] ، أى قبله .

• • •

الأصل :

منها :

فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً ، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ .

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ ، وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ ؛ مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ ؛ مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ ، وَدِثَارِ السَّيْفِ ؛ وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ ، وَزَوَامِلُ الْآثَامِ .

فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَتَطَعَّمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا ، مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ !

• • •

الشرح :

التَّرْحة : الحزن ، قال : فحينئذ لا يبقى لهم ، أى يحيق بهم العذاب ؛ ويبعث الله عليهم مَنْ ينتقم ، وهذا إخبارٌ عن مُلْك بنى أمية بعده ؛ وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم فى الأرض .

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظّلَمة ، ومَنْ كان يؤثر ملكهم ، فقال ، « أصفيتم بالأمر

(١) سورة سبأ ٤٦ .

غير أهله ، أصفيتُ فلانا بكذا : خصصته به ، وصفية المغنم : شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة .

وأوردتموه غير ورده : أنزلتموه عند غير مستحقه .

ثم قال : سيبدّل الله ما كلهم الذبذة الشهيّة بما كلّ صبرة علقميّة . والمقِر : المرّ . وما كلا منصوب بفعل مقدّر أى يأكلون مأكلاً ؛ والباء هاهنا للمجازاة الدالة على الصلة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ ﴾[1] وكقول أبى تمام :

فَبِمَا قدْ أَرَاهُ رَيّانَ مَكْسُوّ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وطِيبِ[2]

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾[3] .

وجعل شعار الخوف ، لأنه باطن فى القلوب ، ودثار السيف لأنه ظاهر فى البدن ؛ كما أن الشعار ما كان إلى الجسد والدثار ما كان فوقه .

ومطايا الخطيئات : حوامل الذنوب ، وزوامل الآثام : جمع زاملة ، وهى بعير يستظهر به الإنسان يحمل متاعه عليه ، قال الشاعر :

زَوَامِلُ أَشْعَارٍ وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ[4]

وتنخّمت النخامة : إذا تنخعتها ، والنخامة : النخاعة .

والجديدان : الليل والنهار ؛ وقد جاء فى الأخبار الشائعة المستفيضة فى كتب المحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر أن بنى أمية تملك الخلافة بعده ، مع ذم منه عليه

---

(١) سورة النساء ١٥٥ .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٤ .

(٣) سورة القصص ١٧ .

(٤) بعده :

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

والبيتان لمروان بن سليمان بن أبى حفصة ، يهجو قوما من رواة الشعر (اللسان — زمل) .

والسلام لهم ، نحو ماروى عنه فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾[1] فإن المفسرين قالوا : إنه رأى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله الذى فسر لهم الآية به ، فساءه ذلك ثم قال : الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة ؛ ونحو قوله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دُوَلا وعباده خَوَلاً » ونحو قوله صلى الله عليه وآله فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[2] قال : ألف شهر يملك فيها بنو أمية . وورد عنه صلى الله عليه وآله من ذمهم الكثير المشهور نحو قوله : « أبغض الأسماء إلى الله الحكم وهشام والوليد » ، وفى خبر آخر : « اسمان يُبْغضهما الله : مروان والمغيرة » ؛ ونحو قوله : « إن ربكم يحب ويبغض ؛ كما يحب أحدكم ويبغض ، وإنه يبغض بنى أمية ويحب بنى عبد المطلب » .

فإن قلت : كيف قال : « ثم لا تذوقها أبدا » وقد تملكوا بعد قيام الدولة الهاشمية بالمغرب مدة طويلة ؟

قلت : الاعتبار بملك العراق . والحجاز ؛ وما عداهما من الأقاليم لا اعتداد به .

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ .
(٢) سورة القدر ٣ .

(١٦٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ وَحَلَقِ الضَّيْمِ ؛ شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ .

• • •

الشرح :

أحطت بجُهدى من ورائكم : حفظتكم وحميتكم ، والجُهد ، بالضم : الطاقة . الرِّبَق جمع رِبقة ، وهى الحبل يُرْبَق به البهم .

وحلَق الضيم : جمع حَلْقة ، بالتسكين ، ويجوز : « حِلق » بكسر الحاء وحِلاق .

فإن قلت : كيف يجوز له أن يطرق ويغضى عن المنكر ؟

قلت : يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنه أنه إن نهاهم عنه لم يرتدعوا، وأضافوا إليه منكراً آخر ، فحينئذ يخرج الإطراق والإغضاء عن حد الجواز إلى حد الوجوب ، لأن النهى عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة .

(١٦١)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ؛ يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللهمّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي؛ وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ؛ وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ؛ حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ؛ حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ؛ حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ؛ إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ؛ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ؛ لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ.

وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ؛ وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ — أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ — رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

* * *

الشرح

يجوز أن يكون أمره هاهنا هو الأمر الفعليّ ، لا الأمر القوليّ ، كما يقال : أمر فلان مستقيم ، وما أمر كذا ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾[1]، ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[2] ، فيكون المعنى أنّ شأنه تعالى ليس إلّا أحد شيئين وهما « أن يقول » ، « وأن يفعل » ، فعبّر عن « أن يقول» بقوله : « قضاء » لأنّ القضاء الحكم ، وعبر عن « أن يفعل » بقوله : « وحكمة » لأنّ أفعاله كلّها تتبع دواعيَ الحكمة . ويجوز أن يكون « أمره » هو الأمر القولي ؛ وهو المصدر من « أمر له بكذا أمراً » فيكون المعنى أنّ أوامره إيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة ؛ وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب فى القرآن العزيز فى قوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[3] ، أى أوجب وألزم .

قوله : « ورضاه أمانٌ ورحمة » ؛ لأنّ مَنْ فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة ؛ لأنّ الرضا رحمة وزيادة .

قوله : « يقضى بعلم » ، أى يحكم بما يحكم به لأنّه عالم بحسن ذلك القضاء ، أو وجوبه فى العدل .

قوله : « ويعفو بحلمٍ » ، أى لا يعفو عن عجز وذلّ ، كما يعفو الضعيف عن القويّ ؛ بل هو قادر على الانتقام ولكنّه يحلم .

ثم حمد الله تعالى على الإعطاء والأخذ ، والعافية والبلاء ؛ لأنّ ذلك كلّه من عند الله لمصالح المكلّف ، يعلمها وما[4] يعلمها المكلّف ، والحمد على الصالح واجب .

---

(١) سورة القمر ٥٠ . (٢) سورة النحل ٧٧ .
(٣) سورة الإسراء ٢٣ . (٤) د : « ولا » .

ثم أخذ فى تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة فى وصفه، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحمد لله زنة عرشه ، الحمد لله عددَ خلقه ، الحمد لله ملء سمائه وأرضه » ، فقال عليه السلام : حمداً يكون أرضَى الحمد لك » ، أى يكون رضاك له أوفى وأعظم من رضاك بغيره ، وكذلك القول فى : « أحبّ » و « أفضل » .

قوله : « و يبْلُغ ما أردت » ، أى هو غاية ماتنتهى إليه الإرادة ؛ وهذا كقول الأعرابيّة فى صفة المطر : غثنا ماشئنا ؛ وهو من فصيح الكلام .

قوله : « لايحجب عنك » ، لأنّ الإخلاص يقارنه ، والرياء منتف عنه .

قوله : « ولا يُقْصَرُ دونك » ؛ أى لا يحبَس ؛ أى لامانع عن وصوله إليك ، وهذا من باب التوسّع ؛ ومعناه : أنه برىء من الموانع عن إثماره الثواب واقتضائه إياه ، وروى « ولا يُقْصر » من القصور ، وروى « ولا يقصَّر » من التقصير .

ثم أخذ فى بيان أنّ العقول قاصرة عن إدراك البارى سبحانه والعلم به ، وأنّا إنّما نعلم منه صفات إضافية أو سلبية ؛ كالعلم بأنه حىّ ، ومعنى ذلك أنّه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدّر ؛ وأنّه قيوم بمعنى أنّ ذاته لايجوز عليها العدَم ؛ أى يقيم الأشياء ويمسكها ؛ وكلّ شىء يقيم الأشياء كلّها ويمسكها ، فليس يحتاج إلى مَنْ يقيمه ويمسكه ؛ وإلّا لم يكن مقيما وممسكا لكلّ شىء ، وكلّ مَنْ ليس يحتاج إلى من يقيمه ويمسكه ؛ فذاته لايجوز عليها العدَم . وأنّه تعالى لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم ؛ لأنّ هذا من صفات الأجسام ؛ وما لا يجوز عليه العدَم لايكون جسماً ، ولا يوصف بخواصّ الأجسام ولوازمها ، فإنّه لا ينتهى إليه نظر ، لأن انتهاء النظر إليه يستلزم مقابلته وهو تعالى منزه عن الجهة ، وإلا لم يكن ذاته مستحيلا عليها العدم ، وأنه لا يدركه بَصَر ، لأن إبصار الأشياء بانطباع أمثالها فى الرطوبة الجليديّة كانطباع أشباح المرئيّات فى المرآة ، والبارى تعالى لا يتمثّل ، ولا يتشبّح ؛ وإلّا لم يكن

خبيراً ، وأنه يدرك الأبصار ؛ لأنه إنما عالم لذاته ، أو لأنه حيٌّ لا آفة به ، وأنه يحصى الأعمال لأنّه عالم لذاته ، فيعلم كلَّ شيء حاضراً وماضياً ومستقبلا ، وأنّه يأخذُ بالنواصى والأقدام ، لأنه قادر لذاته ، فهو متمكن من كل مقدور .

ثم خرج إلى فنٍّ آخر ؛ فقال : وما الذى تعجب لأجله من قدرتك وعظيم ملكك ، والغائب عنا من عظمتك أعظم من الحاضر ؛ مثال ذلك أن جِرْم الشمس أعظمُ من جِرْم الأرض مائة وستين مرّة ، ولا نسبة لجِرْم الشمس إلى فَلَكها المائل ، ولا نسبة لفلكها المائل إلى فلكها الممثل ؛ وفلك تدوير المريخ الذى فوقها أعظمُ من ممثل الشمس ؛ ولا نسبة لفلك تدوير المريخ إلى فلكه الممثل ؛ وفلك تدوير المشترى أعظم من ممثل المريخ ، ولا نسبة لفلك تدوير المشترى إلى فلكه الممثل ، وفلك تدوير زحل أعظم من ممثل المشترى ، ولا نسبة لفلك تدوير زحل إلى ممثل زحل ، ولا نسبة لممثل زحل إلى كرة الثوابت ، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى ؛ فانظر أىّ نسبة تكون الأرض بكليتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس ، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه ، وتنتهى دونه ، وتحول سواتُر الغيوب بينها وبينه ، كما قال عليه السلام .

ثم ذكر أنّ مَنْ أعمل فكرَه ليعلم كيف أقام سبحانه العرش ، وكيف ذَرأ الخلق ، وكيف علّق السموات بغير علاقة ولا عمد ، وكيف مدّ الأرض على الماء ، رجع طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً . وهذا كلّه حقّ ، ومن تأمل كتبنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين علّلوا هذه الأمور ، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسباباً عقلية ، وادّعوا وقوفهم على كنهها وحقائقها ، علم صحة ما ذكره عليه السلام ، من أنّ مَنْ حاول تقدير ملك الله تعالى وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله ، فقد ضل ضلالا مبينا .

وروى : « وفكره جائرا » ، بالجيم ، أي عادلا عن الصواب . والحسير : المتعب .
والبهور : المغلوب . والواله : المتحير .

* * *

الأصل :

منها :

يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو ٱللهَ ، كَذَبَ وَٱلْعَظِيمِ ! مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ !
فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ـ إِلَّا رَجَاءَ ٱللهِ ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ ـ إِلَّا خَوْفَ ٱللهِ ـ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ .

يَرْجُو ٱللهَ فِي ٱلْكَبِيرِ ، وَيَرْجُو ٱلْعِبَادَ فِي ٱلصَّغِيرِ ، فَيُعْطِي ٱلْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي ٱلرَّبَّ !
فَمَا بَالُ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ !

أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً ، أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً !
وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعِبَادِ نَقْداً ، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً .

وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ ، آثَرَهَا عَلَى ٱللهِ ، فَٱنْقَطَعَ إِلَيْهَا ، وَصَارَ عَبْداً لَهَا .

* * *

الشرح :

يجوز « بزُعمه » ، بالضم و « بزَعمه » بالفتح ، و « بزِعمه » بالكسر ، ثلاث لغات ، أي بقوله . فأما من « زعمت » ، أي كفلت ، فالمصدر « الزَّعم » بالفتح ، والزَّعامة .

ثم أقسم على كذب هذا الزاعم ، فقال : « والمظيم » ، ولم يقل : والله العظيم ، تأكيداً لعظمة البارئ سبحانه ، لأنّ الموصوف إذا أُلقيَ وتُرِك واعتمد على الصفة حتى صارت كالاسم ، كان أدلّ على تحقّق مفهوم الصفة ، كالحارث والعباس .

ثم بيّن مستند هذا التكذيب ، فقال : مابالُ هذا الزاعم ! إنه يرجو ربَّه ، ولا يظهر رجاؤه في عمله ، فإنّا نَرَى مَنْ يَرجو واحداً من البشر يلازم بابه ؛ ويواظب على خدمته ويتحبّب إليه ، ويتقرّبُ إلى قلبه بأنواع الوسائل والقُرَب ؛ ليظفرَ بمراده منه ، ويحقّق رجاؤه فيه ، وهذا الإنسان الذي يزعم أنّه يرجُو الله تعالى ، لايظهر من أعماله الدينية مايدلّ على صدق دَعْواه ، ومراده عليه السلام هاهنا ليس شخصاً بعينه ، بل كلّ إنسان هـذه صفته ، فالخطاب له والحديث معه .

ثم قال : « كلّ رجـاء إلّا رجاء الله فهو مدخول » ، أي معيب ، والدَّخْل ، بالتسكين : العيب والرِّيبة ومن كلامهم : « ترَى الفتيان كالنَّخـل ، ومايدريك ماالدَّخَل »[1] ، وجاء « الدَّخَل » بالتحريك أيضاً ، يقال : هذا الأمر فيـه دَخَل ودَغَل ، بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾[2] ؛ أي مكراً وخديعة ، وهو من هذا الباب أيضاً .

ثم قال : « وكلّ خوف محقّق إلّا خوف الله فإنه معلول » : محقّق ، أي ثابت ، أي كلّ خوف حاصل حقيقة فإنّه مع هذا الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح ؛ إلا خوف الله وحده وتقواه ، وهيبته وسطوته وسخطه ، ذلك لأنّ الأمر الذي يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال ، والأمر الذي يُخاف من البارى تعالى لاغاية له ولا انقضاء لمحذوره ، كما قيل في الحديث المرفوع : « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

---

(١) مثل ، وأول من قاله عثمة بنت مطرود البجلية ، وانظر الفاخر ١٥٦ .
(٢) سورة النحل ٩٤ .

ثم عاد إلى الرجاء ، فقال : يرجو هذا الإنسان الله فى الكثير ، أى يرجو رحمته فى الآخرة ، ولا يتعلق رجاؤه بالله تعالى إلا فى هذا الموضع ، فأمّا ماعدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضارّ والتوصّل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات ، فإنه لا يخطر له الله تعالى ببال ، بل يعتمد فى ذلك على السُّفَراء والوسطاء ، ويرجو حصول هذه المنافع ، ودفعَ هذه المضارّ من أبناء نوعه من البشر ، فقد أعطى العبادَ مِنْ رجائه ما لم يعطه الخالق سبحانه ، فهو مخطئٌ ؛ لأنّه إمّا أن يكونَ هو فى نفسه صالحاً لأن يرجوه سبحانه ، وإمّا ألا يكون البارئُ تعالى فى نفسه صالحاً لأن يُرجَى ، فإن كان الثانى فهو كُفْرٌ صُراح ، وإن كان الأول فالعبد مخطئٌ حيث لم يجعل نفسه مستعدًّا لعمل الصالحات ، لأن يصلحَ لرجاء البارئ سبحانه .

ثم انتقل عليه السلام إلى الخوف ، فقال : وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثلَه ؛ خافه أكثر من خوفه البارئَ سبحانه ؛ لأنّ كثيرا من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذة البارئ سبحانه ؛ وهذا مشاهَد ومعلوم من الناس ، فخوف بعضهم من بعض كالنقد المعجّل ، وخوفهم من خالقهم ضِمَارٌ ووعد . والضِّمار : ما لا يرجَى من الوعود والديون . قال الراعى :

حَمِدْنَ مَزَارَهُ وأَصَبْنَ مِنْهُ عَطَاءً لم يَكُنْ عِدَةً ضِمَارَا[1]

ثم قال : « وكذلك من عظمت الدنيا فى عينه ، يختارها على الله ، ويستعبده حبّها . ويقال : كَبُر ، بالضم ، يَكْبُر أى عَظُم ؛ فهو كبير وكُبَار بالتخفيف ؛ فإذا أفرط قيل :

---

(١) اللسان ٦ : ١٦٤ ، وقبله :

وأنضاءٍ أُنِخْنَ إلى سَعِيدٍ طُروقاً ثم عَجّلْنَ ابتكارَا

« كُبَّار » بالتشديد ، فأما كُبَار بالكسر ، فمعناه أسنّ ؛ والمصدر منهما كَبِراً ، بفتح الباء .

* * *

الأصل :

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا ، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا ؛ إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا ، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا ، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا ، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وَاللهِ مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ .

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ ، وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ : أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا ! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ ، وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ ؛ دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ .

* * *

الشرح :

يجوز أُسوة وإسوة ، وقرئ التنزيل بهما ، والمساوئ : العيوب ؛ ساءه كذا يسوءه سَوْءًا بالفتح ومساءة ومسائية . وسوته سوائية ومساية ، بالتخفيف ، أي ساءه ما رآه مني. وسأل سيبويه الخليل عن « سوائية » ، فقال : هي « فعالية » بمنزلة علانية ، والذين قالوا: « سواية » حذفوا الهمزة تخفيفا ؛ وهي في الأصل . قال : وسألته عن « مسائية » ، فقال: هي مقلوبة وأصلها « مساوئة » فكرهوا الواو مع الهمزة ، والذين قالوا: « مساية » حذفوا الهمزة أيضا تخفيفا ؛ ومن أمثالهم : « الخيل تجرى في مساويها » ؛ أي أنها وإن كانت بها عيوب وأوصاب ، فإن كرمها يحملها على الجري .

والمخازي : جمع مَخزاة ؛ وهي الأمر يستحيي من ذكره لقبحه .

وأكنافها : جوانبها . وزوى : قبض . وزخارف : جمع زُخرف ؛ وهو الذهب ، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « عُرضتْ عليَّ كنوز الأرض ودُفعت إليّ مفاتيح خزائنها ، فكرهتُها واخترت الدار الآخرة » ، وجاء في الأخبار الصحيحة أنه كان يجوعُ ويشدّ حجرًا على بطنه . وأنه ما شبع آل محمد من لحم قطّ ، وأنّ فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير ، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدّوها لفطورهم ، وباتوا جياعا . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ملك قطعة واسعة من الدنيا ، فلم يتدنّس منها بقليل ولا كثير ؛ ولقد كانت الإبل التي غنمها يوم حنين أكثر من عشرة آلاف بعير ؛ فلم يأخذ منها وبرة لنفسه ، وفرّقها كلّها على الناس ، وهكذا كانت شيمته وسيرته في جميع أحواله إلى أن توفي .

والصّفاق : الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن . وشفيفه : رقيقه الذي يستشفّ ما وراءه ، وبالتفسير الذي فسر عليه السلام الآية فسّرها المفسرون ، وقالوا : إنّ

خضرة البقل كانت تُرَى فى بطنه من الهزال ، وإنه ما سأل الله إلا أكلةً من الخبز . وماق (لِمَا أَنْزَلْتَ) بمعنى أىّ ، أى إنى لأى شىء ، أنزلتَ إلىّ — قليل أو كثير ، غثّ أو سمين — فقير .

فإن قلت : لِمَ عدّى « فقيرا » باللام ، وإنما يقال : « فقير إلى كذا » ؟

قلت : لأنه ضُمّن معنى « سائل » و « مطالب » . ومن فسّر الآية بغير ما ذكره عليه السلام لم يحتجْ إلى الجواب عن هذا السؤال ، فإنّ قوما قالوا : أراد : إنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلىّ من خير ، أى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ؛ فإنّ ذلك رضا بالبدل السنىّ ، وفرحاً به وشكرا له .

وتشذّب اللحم : تفرّقه .

والمزامير : جمع مزمار ؛ وهو الآلة التى يزمر فيها ، ويقال : زَمَر يزمِر ويزمُر ، بالضم والكسر ؛ فهو زمّار ، ولا يكاد يقال : زامر ؛ ويقال للمرأة : زامرة ، ولا يقال زمّارة ، فأما الحديث أنه نَهى عن كَسْب الزمّارة ، فقالوا : إنها الزانية هاهنا . ويقال : إنّ داود أعطِىَ من طيب النغم ولذة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو فى محرابه ، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته . وقال النبىّ صلى الله عليه وآله لأبى موسى ، وقد سمعه يقرأ : « لقد أوتيتَ مزمارا من مزامير داود » ، وكان أبو موسى شجىّ الصوت إذا قرأ . وورد فى الخبر : « داود قارئ أهل الجنة » .

وسفائف الخوص : جمع سفيفة ، وهى النسيجة منه ، سففْت الخوصَ وأسففته بمعنى .

وهذا الذى ذكره عليه السلام عن داود يجب أن يحمل على أنه شرح حاله قبل أن يملك فإنه كان فقيرا ، فأمّا حيث ملَكَ فإن المعلوم من سيرته غير ذلك .

فأما عيسى فحاله كما ذكرها عليه السلام ، لاريب فى ذلك ، على أنه أكل اللحم وشرب

الحمر، وركب الحمار وحده، التلامذة؛ ولكن الأعاجيب من حاله هي الأمور التي عددها أمير المؤمنين عليه السلام .

ويقال: حزنى الشيء يحزنى بالضم؛ ويجوز: «أحزنى» بالهمز يحزنى، وقرئ بهما، وهو في كلامه عليه السلام في هذا الفصل بهما .

ويقال: لفته عن كذا، يلفته بالكسر، أي صرفه ولواه .

* * *

الأصل:

فتأسَّ بِنَبِيِّكَ الأطْيَبِ الأطْهَرِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى . وَأَحَبُّ العِبَادِ إِلَى اللهِ المُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ . قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً . أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلهِ تَعَالَى وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى! وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ العَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ العَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ! وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانَةُ -لإِحْدَى أَزْوَاجِهِ- غَيِّبِيهِ عَنِّي! فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا . فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ القَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ البَصَرِ .

وكذلك مَنْ أبغضَ شيئاً أبغضَ أنْ ينظرَ إليه ، وأنْ يُذكَرَ عندَه ؛ ولقدْ كانَ في رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما يدلُّكَ على مساوئِ الدُّنيا وعيوبِها ؛ إذ جاعَ فيها مَعَ خاصَّتِه ، وزُوِيَتْ عنهُ زخارفُها معَ عظيمِ زُلْفَتِهِ ،فلْيَنظُرْ ناظرٌ بعقلِهِ :أكرمَ اللهُ محمداً صلى اللهُ عليهِ وسلَّم بذلكَ أمْ أهانَهُ ! فإنْ قالَ : « أهانَهُ » ، فقدْ كذَبَ واللهِ العظيمِ بالإفكِ العظيمِ ، وإنْ قالَ : « أكرمَهُ » فلْيعلَمْ أنَّ اللهَ قدْ أهانَ غيرَهُ حيثُ بَسَطَ الدُّنيا لَهُ ، وزَوَاهَا عنْ أقربِ الناسِ منهُ ؛ فتأسَّى مُتأسٍّ بنبيِّهِ ، واقتصَّ أثرَهُ ، وولَجَ مَوْلِجَهُ ؛ وإلاَّ فلا يأمنِ الهَلَكَةَ ، فإنَّ اللهَ جعلَ محمداً صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَلَماً للسَّاعةِ ، ومُبشِّراً بالجنَّةِ ، ومُنذِراً بالعقوبةِ ؛ خرجَ مِنَ الدُّنيا خَمِيصاً ، ووَرَدَ الآخرةَ سليماً ، لمْ يضَعْ حجراً على حجرٍ ، حتى مَضَى لسبيلِهِ ، وأجابَ داعيَ ربِّهِ ؛ فما أعظمَ مِنَّةَ اللهِ عندَنا حِينَ أنعمَ علينا بهِ سَلَفاً نتَّبِعُهُ ، وقائداً نطأُ عقبَهُ ! واللهِ لقدْ رقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هذهِ حتى استحييتُ مِنْ راقِعِها ، ولقدْ قالَ لي قائلٌ : ألا تنبذُها عنكَ ! فقلتُ : أعزُبْ عني ؛ فعندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القومُ السُّرَى .

• • •

الشرح :

المقتص لأثره : المتبع له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [1] .

وقَضَم الدنيا : تناول منها قدْر الكفاف ، وما تدعو إليه الضرورة من خشِن المعيشة ، وقال أبو ذر رحمه الله : « يخضمون ونقضم ، والموعد الله ! » . وأصل القَضْم أكلُ الشيء اليابس بأطراف الأسنان ، والخضم : أكلٌ بكل الفم للأشياء الرطبة ، وروى : « قصم » بالصاد ، أي كسر .

---

(١) سورة القصص ١١ .

قوله : « أهضمُ أهلِ الدّنيا كشحا »الكَشْحُ : الخاصرة،ورجلٌ أهضَم: بيِّنُ الهضَم؛ إذا كان خميصاً لقلّةِ الأكل .

وروى : « وحقّر شيئا حقَره » بالتخفيف . والشّقاق : الخلاف .

والمحـادّة : المعاداة . وخَصّف النّعل : خرزها . والرياش : الزينة ، والمِدْرعـة . الدّرّاعة .

وقوله : « عند الصّباح يحمد القوم السرى » : مثل يضرب لتحمل المشقّة العاجلة[1] ، رجاء الراحة الآجلة .

* * *

[نبذ من الأخبار والآثار الواردة فى البعد عن زينة الدنيا]

جاء فى الأخبار الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : « إنّما أنا عبدٌ آكل أكلَ العبيد ،وأجلس جِلْسة العبيد » ؛ وكان يأكل على الأرض ، ويجلس جلوسَ العبيد، يضم قصبّتيْ ساقيهعلى الأرض ، ويعتمدعليهما بباطنى فخذيه ،وركوبه الحمار العارىآيةُ التواضع وهضْم النفس . وإرداف غيره خلفه آكد فى الدلالة على ذلك

وجاءفى الأخبارالصحيحة النهيُ عن التصاوير وعن نصب الستور التى فيها التصاوير، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى ستراً فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصورة .

وجاء فى الخبر : « مَنْ صَوّر صورةً كُلِّف فى القيامة أن ينفخ فيها الروح ، فإذاقال: لاأستطيع ، عُذِّب » .

---

(١) وأول من قاله خالد بن الوليد ؛ وانظر مضربه ومورده فى الفاخر ١٩٣ .

قوله : « لم يضع حَجَراً على حجر » هو عين ماجاء فى الأخبار الصحيحة ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا ولم يضع حجرا على حجر .

وجاء فى أخبار علىّ عليه السلام التى ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى كتاب فضائله ، وهو رواية عن قريش بن السبيع بن المهنا العلوىّ ، عن نقيب الطالبيين أبى عبد الله أحمد بن على بن المعمر ، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيرفىّ المعروف بابن الطيورىّ ، عن محمد بن علىّ بن محمد بن يوسف العلاف المزنىّ ، عن أبى بكر أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك القطيعىّ ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه أبى عبد الله أحمد رحمه الله ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، لم ترقع قميصك ؟ قال . ليخشع القلب ، ويقتدى بى المؤمنون .

وروى أحمد رحمه الله أن عليا كان يطوف الأسواق مؤتزراً بإزار ، مرتديا برداء ، ومعه الدرة كأنه أعرابى بدوى ، فطاف مرة حتى بلغ سوق الكرابيس ، فقال لواحد : ياشيخ ، بعنى قميصاً تكون قيمته ثلاثة دراهم ، فلما عرفه الشيخ لم يشتر منه شيئاً ، ثم أتى آخر ، فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً ، فأتى غلاماً حدثاً ، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، فلما جاء أبو الغلام ، أخبره ، فأخذ درهماً ، ثم جاء إلى علىّ عليه السلام ليدفعه إليه ، فقال له : ماهذا ؟ أو قال ماشأن هذا ، فقال : يامولاى ، إن القميص الذى باعك ابنى كان يساوى درهمين ، فلم يأخذ الدرهم ، وقال : باعنى رضاى وأخذ رضاه .

وروى أحمد رحمه الله عن أبى النوار بائع الخام بالكوفة ، قال : جاءنى علىّ بن أبى طالب إلى السوق ، ومعه غلام له وهو خليفة ، فاشترى منّى قميصين ، وقال لغلامه : اختر أيهما شئت ، فأخذ أحدهما ، وأخذ علىّ الآخر ، ثم لبسه ومدّ يده ، فوجد كمّه فاضلة ، فقال : اقطع الفاضل . فقطعته ، ثم كفّه وذهب .

وروى أحمد رحمه الله عن الصمال بن عمير ، قال: رأيتُ قميص علىّ عليه السلام الذى أصيب فيه ، وهو كرابيس سيبلانى[١] ، ورأيت دمّه قد سال عليه كالدّردى[٢].

وروى أحمد رحمه الله قال : لما أرسل عثمان إلى علىّ عليه السلام ، وجده مؤتزرا بعباءة ، محتجزاً بعقال ، وهو يَهْنَأ بعيرا له .

والأخبار فى هذا المعنى كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية



(١) الكرابيس : ثياب فارسية من القطن ؛ وسيبلانى : نسبة منسوبة إلى سيبلة ، موضع .
(٢) الدردى : ما رسب من الزيت فى أسفل الإناء .

(١٦٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي ، وَالْكِتَابِ الْهَادِي . أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ ؛ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ . أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ . فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ ؛ وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ .

* * *

الشرح :

بالنور المضيء ، أي بالدين ، أو بالقرآن . وأسرته : أهله . أغصانها معتدلة ، كناية عن عدم الاختلاف بينهم في الأمور الدينية . وثمارها متهدلة ؛ أي متدلية ، كناية عن سهولة اجتناء العلم منها .

وطَيْبة اسم المدينة ، كان اسمها يثرب ، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله طَيْبة ،

ومما أكفر النّاس به يزيدَ بن معاوية أنّه سماها « خبيثة » مراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله .

علا سها ذكره ، لأنه صلّى الله عليه وآله إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة .

« ودعوة متلافية » أى تتلافى مافسد فى الجاهلية من أديان البشر .

قوله : « ويبيّن به الأحكام المفصولة » ليس يعنى أنها كانت مفصولة قبل أن يبيّنها، بل المراد : يبيّن به الأحكام التى هى الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا ؛ لأجل بيانه لها .

والكبوة : مصدر كبا الجواد ، إذا عثر فوقع إلى الأرض .

والمآب : المرجع . والعذاب الوبيل : ذو الوبال وهو الهلاك .

والإنابة : الرجوع . والسبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث . والقاصدة : ضدّ الجائرة.

فإن قلت لم عدّى القاصدة بـ « إلى » ؟

قلت : لأنها لما كانت قاصدة ، تضمنت معنى الإفضاء إلى المقصد ، فعدّاها بـ « إلى » باعتبار المعنى .

* * *

الأصل :

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَإِنَّهَا ٱلنَّجَاةُ غَداً ، وَٱلْمَنْجَاةُ أَبَداً ؛ رَهَّبَ فَأَبْلَغَ ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ ، وَوَصَفَ لَكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱنْقِطَاعَهَا،وَزَوَالَهَا وَٱنْتِقَالَهَا ؛ فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا . أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ ٱللهِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ ٱللهِ .

نَقَصُوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا ؛ فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ .

وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ ؛ قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا ، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا ، لَا يَتَفَاخَرُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ وَلَا يَتَحَاوَرُونَ .

فَاحْذَرُوا ـ عِبَادَ اللَّهِ ـ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ .



الشَّرْحُ :

المنجاة : مصدر نجا ينجُو نجاةً ومنجاة . والنَّجاة : الناقة يُنجَى عليها ، فاستعارها هاهنا للطاعة والتقوى ، كأنها كالمطيّة المركوبة يخلص بها الإنسان من الهلَكة .

قوله : « رهّب فأبلغ » : الضمير يرجع إلى الله سبحانه ؛ أي خوّف المكلّفين فأبلغ في التخويف ، ورغّبهم فأتمّ الترغيب وأسبغه .

ثم أمر بالإعراض عما يسرّ ويروق من أمر الدنيا ؛ لقلة ما يصحب الناس من ذلك .

ثم قال : إنّها أقربُ دار من سخط الله ، وهذا نحو قول النبي صلى الله عليه وآله : « حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة » .

قوله : « فَغُضّوا عنكم عباد الله غرومها » ، أى كُفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها والاشتغال بها ، يقال: غضضت فلانا عن كذا أى كففته، قال تعالى : ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[1] .

قوله : « فاحذروها حَذَر الشفيق الناصح » ، أى فاحذروها على أنفسكم لأنفسكم كما يحذر الشفيق الناصح على صاحبه ، وكما يحذر المجدّ الكادح ؛ أى الساعى من جهة سعيه .

والأوصال : الأعضاء . والمحاورة : المخاطبة والمناجاة ، وروى : « ولا يتجاورون » بالجيم .

والعَلَم : مايستدلّ به فى المفازة .

وطريق جَدَد ، أى سهل واضح . والسبيل قَصْد ، أى مستقيم .



(١) سورة لقمان ١٩

(١٦٣)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه ، وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟ فقال عليه السلام :

يا أخا بني أسدٍ ؛ إنّكَ لَقَلِقُ الوَضِينِ ؛ تُرْسِلُ في غيرِ سَدَدٍ ؛ ولكَ بعدُ ذِمامةُ الصِّهْرِ وحقُّ المسألةِ ؛ وقد استَعْلَمْتَ فاعْلَمْ .

أمّا الاستبدادُ علينا بهذا المقامِ ، ونحنُ الأعلَوْنَ نَسَباً ، والأشدُّونَ بالرسولِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ نَوْطاً ، فإنّها كانتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عليها نفوسُ قومٍ ، وسَخَتْ عنها نفوسُ آخرينَ ؛ والحَكَمُ اللهُ ، والمَعْوَدُ[1] إليهِ يومُ القيامةِ .

وَدَعْ عنكَ نَهْباً صِيحَ في حَجَرَاتِهِ ... ولكنْ حديثاً ما حديثُ الرَّواحِلِ

وهَلُمَّ الخَطْبَ في ابنِ أبي سفيانَ ، فلقدْ أضحكَني الدهرُ بعدَ إبكائِهِ ؛ ولا غَرْوَ واللهِ ؛ فيالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ العَجَبَ ، ويُكثِرُ الأَوَدَ !

حاولَ القومُ إطفاءَ نورِ اللهِ مِنْ مِصباحِهِ ، وسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ ؛ وجَدَحُوا بيني وبينَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً ، فإنْ تَرْتَفِعْ عنّا وعنهُمْ مِحَنُ البَلْوَى ، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الحقِّ على مَحْضِهِ ، وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى ؛ ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[2]

---

(١) المعود ، بسكون العين وفتح الواو ؛ كما ضبطت في اللسان . وفي النهاية لابن الأثير : هكذا جاء « المعود » على الأصل ؛ وهو « مفعل » من عاد يعود ، ومن حق أمثاله أن تقلب واوه ألفاً ، كالمقام والمراح ؛ ولكنه استعمله على الأصل .

(٢) سورة فاطر ٨ .

الشـرح :

الوضين : بِطان القَتَب[1] ، وحزام السرج ؛ ويقال للرجل المضطرب فى أموره : إنّه لَقَلِقُ الوضين ؛ وذلك أنّ الوضين إذا قلق ، اضطرب القتبُ أو الهودجُ ، أو السَّرْج ومَنْ عليه .

ويرسل فى غير سَدَد ، أى يتكلم فى غير قصد وفى غير صواب ، والسَّدَد والاستداد : الاستقامة والصواب ، والسديد : الذى يصيب السَّدَد ، وكذلك المُسِدّ . واستدّ الشىء ، أى استقام .

وذِمامة الصِّهر ، بالكسر ؛ أى حرمته ، هو الذِّمام ، قال ذو الرُّمة :

تَكُنْ عَوْجَةٌ يجزيكما اللهُ عِندَهُ بها الأجرَ أو تُقْضَى ذِمَامَةُ صاحِبِ[2]

ويروى : « ماتَّة الصِّهر » ، أى حرمته ووسيلته ، متّ إليه بكذا ، وإنما قال عليه السلام له : « ولك بعد ذِمامة الصِّهر » ؛ لأنّ زينب بنت جحش زوْج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسَدِيَّة ؛ وهى زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة ابن مرة بن كثير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة . وأمها أمية بنت عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، فهى بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمصاهرة المشار إليها ، هى هذه .

ولم يفهم القطب الراوندىّ ذلك ، فقال فى الشرح : « كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج فى بنى أسد » ، ولم يصبْ ، فإنّ عليا عليه السلام لم يتزوج فى بنى أسد البتّة . ونحن نذكر أولاده : أمّا الحسَنُ والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى ، فأمهم فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله[3] . وأما محمد فأمه خَوْلة بنت إياس[4] ابن جعفر ، من بنى حَنِيفة ، وأما أبو بكر وعبد الله ، فأمهما ليلى بنت مسعود النَّهْشليّة ،

---

(١) البطان : حزام القتب ؛ وهو الذى يجعل تحت بطن الدابة ، والقتب : رحل صغير على قدر السنام .

(٢) ديوانه ٥٤ .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « ويذكر أنه كان لها منه ابن آخر يسمى محسناً ، توفى صغيراً » .

(٤) فى نسب قريش : « خولة بنت جعفر بن قيس » .

من تميم وأما عمر ورقية فأمهما سَبِيَّةٌ من بنى تَغْلِب ، يقال لها : الصَّهْباء ، سُبِيت فى خلافة أبى بكر وإمارة خالد بن الوليد بعَيْن التمر . وأما يحيى وعون فأمهما أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية[1] . وأما جعفر والعباس وعبد الله وعبد الرحمن[2] فأمهم أم البنين بنت حزام ابن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بنى كلاب . وأما رملة وأم الحسن فأمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى ، وأما أم كلثوم الصغرى وزينب الصغرى وجُمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأم الكرام ونفيسة وأم سلمة وأم أبيها[3] وأمامة بنت علىّ عليه السلام فهنّ لأمهات أولاد شتى ؛ فهؤلاء أولاده ، وليس فيهم أحدٌ من أسدية ، ولا بلغنا أنه تزوج فى بنى أسد ، ولم يولد له ، ولكنّ الراوندىّ يقول ما يخطر له ولا يحقق .

وأما حق المسألة ، فلأن للسائل على المسئول حقا حيث أهله لأن يستفيد منه .

والاستبداد بالشىء : التفرد به . والنَّوط : الالتصاق . وكانت أُثْرة ، أى استئثاراً بالأمر واستبدادا به ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله للأنصار : « ستلقون بعدى أُثْرة » .

وشحّت : بخلت . وسخت : جادت ؛ ويعنى بالنفوس التى سخت نفسه ، وبالنفوس التى شحت ؛ أما على قولنا فإنه يعنى نفوس أهل الشورى بعد مقتل عُمَر ، وأما على قول الإمامية ، فنفوس أهل السَّقيفة . وليس فى الخبر ما يقتضى صَرْف ذلك إليهم ، فالأولى أن يحمَل على ما ظهر عنه من تألمه من عبد الرحمن بن عوف وميله إلى عثمان .

ثم قال : إنّ الحكَم هو الله ، وإنّ الوقت الذى يعود الناس كلهم إليه هو يوم القيامة . وروى : « يومَ » بالنصب على أنه ظرف والعامل فيه « المَعْوِد » ، على أن يكون مصدرا .

وأما البيتُ فهو لامرئ القيس بن حُجْر الكندى ، وروى أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يستشهد إلا بصدره فقط وأتمه الرواة .

(١) فى إحدى روايات الطبرى أنه أعقب منها يحيى ومحمد الأصغر .
(٢) فى الطبرى ونسب قريش : « وعثمان » .
(٣) كذا فى الأصول ، ولم تذكر فى الطبرى ، وزاد : « أم هانئ ورملة الصغرى » .

[حديث عن امرئ القيس]

وكان من قصة هذا الشعر أنَّ امرأ القيس ، لما تنقَّل فى أحياء العرب بعد قتل أبيه ، نزل على رَجُلٍ من جَدِيلة طَيِّئ ، يقال له طريف[1] بن ملٍّ ، فأجاره وأكرمه ، وأحسن إليه ، فمدحه وأقام عنده . ثم إنه لم يولِه نصيباً فى الجبلين : أجأ وسَلْمَى ، فخاف ألاّ يكون له مَنَعة ، فتحوّل ونزل على خالد بن سَدُوس بن أصمع النَّبْهانىّ ، فأغارتْ بنو جَدِيلة على امرئ القيس وهو فى جوار خالد بن سَدُوس ، فذهبوا بإبله ، وكان الذى أغار عليه منهم باعث بن حُوَيص ، فلما أتى امرأَ القيس الخبر ، ذكر ذلك لجاره ، فقال له : أعطنى رواحلك ألحق عليها القوم ، فأردّ عليك إبلك ، ففعل . فركب خالد فى إثر القوم حتى أدركهم ، فقال : يا بنى جَدِيلة ، أغرتُمْ على إبل جارى ! فقالوا : ما هو لك بجار ، قال : بلَى والله وهذه رواحله ، قالوا : كذلك ! قال : نعم ، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ ، وذهبوا بهنّ وبالإبل . وقيل : بل انطوَى خالدٌ على الإبل فذهب بها ، فقال امرؤ القيس :

دَعْ عنك نهباً صِيحَ فى حَجَرَاتِهِ ... ولكن حديثاً ما حديثُ الرَّواحلِ[2]
كأنَّ دِثاراً حَلَّقَتْ بِلَبُونِهِ ... عُقابُ تَنُوفَى لا عُقابُ القواعلِ[3]
تَلَعَّبَ باعثٌ بِذِمَّــــةِ خالدٍ ... وأَوْدَى دِثارٌ فى الخطوب الأوائلِ[4]
وأعجبنـــــى مَشْىُ الحُزُقَّةِ خالدٍ ... كمَشْىِ أتانٍ حُلِّئَتْ بالمناهلِ
أبتْ أجَأٌ أن تُسْلِمَ العامَ جارَهَا ... فمن شاء فلينهَضْ لها من مقاتلِ
تبيتُ لَبُونى بالقُرَيَّةِ أُمَّنًا ... وأسْرَحُها غِبًّا بأكنافِ حائلِ

---

(١) فى الديوان ١٤٧ : « طريف بن مالك » .

(٢) الشعر والخبر فى الديوان ٩٤ – ٩٦ . والحجرات : النواحى .

(٣) اللبون : التى لها ألبان .

(٤) باعث : رجل من طيئ ، وهو ممن أغار عليه .

بنو نُمَل جيرانُها وحُمَاتُهَا ... وتُمنَعُ من رُمَاةِ سعدٍ ونائل

تُلاعِبُ أولادَ الوُعولِ رِباعُهَا ... دُوَيْنَ السَّماء فى رُءوسِ المجادل

مكلَّلَةً حمرَاء ذاتَ أسِرَّةٍ ... لهَا حُبُكٌ كأنَّها من وَصائلِ

دِثار : اسم راعٍ كان لامرئ القيس . ونَتُوفٌ والقواعل جبال . والحزُقّة : القصير الضخم البطن ، واللبون : الإبل ذوات الألبان . والقُرَيّة : موضع معروف بين الجبلين . وحائل اسم موضع أيضا . وسعد ونائل حيّان من طيِّئ . والرِّباع : جمع رُبَع ، وهو ما ينتج فى الربيع . والمجادل : القصور . ومكلَّلة ، يرجع إلى المجادل مكلّلة بالصخر . والأسِرّة : الطرائق وكذلك الحُبُك . والوصائل : جمع وَصِيلة ، وهو ثوب أحمر[1] الغزل ، فيه خطوط . والنَّهب : الغنيمة ، والجمع النِّهاب ، والانتهاب مصدر انتهبتُ المال ، إذا أبحته يأخذه من شاء ، والنُّهبَى : اسم ما أُنهِب . وحَجَراته : نواحيه ، الواحدة حَجْرة ، مثل جَمَرات وجَمْرة . وصيح فى حَجَراته صياح الغارة . والرَّواحل : جمع راحلة ، وهى الناقة التى تصلح أن تُرْحَل ، أى يُشدّ الرَّحْل على ظهورها ، ويقال للبعير : راحلة . وانتصب « حديثا » بإضمار فعل ، أى هات حديثاً أو حدِّثنى حديثا . ويروى : « ولكن حديثٌ » ، أى ولكن مرادى أو غرضى حديث فحذف المبتدأ ، وما ههنا ، يحتمل أن تكون إبهامية ؛ وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة زادته إبهاماً وشياعا ، كقولك : أعطنى كتابا ما ، تريد أىّ كتاب كان ، ويحتمل أن تكون صلة مؤكدة كالتى فى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾[2] . فأمّا « حديث » الثانى فقد ينصب وقد يرفع ، فمن نصب أبدله من « حديث » الأوّل ، ومَنْ رفع جاز أن يجعل « ما » موصولة بمعنى « الذى » ، وصلتها الجملة ، أى الذى هو حديث الرواحل ، ثمّ حذف صدر الجملة كما حذف فى ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾[3] ويجوز أن نجعل « ما » استفهامية بمعنى « أىّ » .

(١) المرة : لون يضرب إلى الحمرة .
(٢) سورة النساء ١٥٥ .
(٣) سورة الأنعام ١٥٤ .

ثم قال : « وهلمّ الخطب » ، هذا يقوّي رواية مَنْ روى عنه أنه عليه السلام لم يستشهد إلّا بصدر البيت ، كأنّه قال : دع عنك ما مضى وهلمّ ما نحن الآن فيه من أمر معاوية ، فجعل « هلمّ » ما نحن فيه من أمر معاوية قائمًا مقام قول امرئ القيس .

« ولكنْ حديثًا ما حديثُ الرّواحِلِ »

وهلمّ ، لفظ يستعمل لازمًا ومتعديًا ، فاللازم بمعنى « تعالَ » ، قال الخليل : أصلُه « لمّ » من قولهم : لمّ الله شعثه ، أي جمعه ، كأنه أراد « لُمّ نفسك إلينا » أي اجمعها واقرُبْ منّا ، وجاءت « ها » للتنبيه قبلها ، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال ، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة ؛ يستوي فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكّر في لغة أهل الحجاز، قال سبحانه : ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾[1] ، وأهل نجد يصرّفونها فيقولون للاثنين : « هلمّا » وللجمع : « هلمّوا » وعلى ذلك . وقد يوصل إذا كان لازمًا باللام، فيقال: هلمّ لك ، وهلمّ لكما ، كما قالوا : هَيْتَ لك ، وإذا قيل لك : هلمّ إلى كذا أي تعال إليه، قلت : لا أهَلُمّ مفتوحة الألف والهاء مضمومة الميم ، فأما المتعدية فهي بمعنى « هات » ، تقول : هلمّ كذا وكذا ، قال الله تعالى : ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾[2] ، وتقول لمن قال لك ذلك : لا أهلمّه ، أي لا أعطيكه ، يأتي بالهاء ضمير المفعول ليتميّز من الأولى .

يقول عليه السلام : ولكن هات ذكر الخطب ، فحذف المضاف . والخطْب : الحادث الجليل ؛ يعني الأحوال التي أدّت إلى أن صار معاوية منازعًا في الرياسة ، قائمًا عند كثير من النّاس مقامه ، صالحًا لأنْ يقع في مقابلته ، وأن يكون ندًّا له .

ثم قال : « فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه » ، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدّم مَنْ سلف عليه ؛ فلم يقنع الدّهر له بذلك ، حتى جعل معاوية نظيرًا له ؛ فضحكت عليه

(١) سورة الأحزاب ١٨ .
(٢) سورة الأنعام ١٥٠ .

السلام بما تحكّم به الأوقات ، وبمقتضى تصرف الدّهر وتقلّبه ؛ وذلك مَحلّ تعجُّب واعتبار .

ثم قال : « ولا غَرْوَ والله » ، أى ولا عَجَبَ والله .

ثم فسَّر ذلك فقال : يأله خطبا يستفرغُ العجب ! أى يستنفده ويفنيه ، يقول: قد صار العجبُ لا عجبَ لأنّ هذا الخَطْب استغرق التعجّبَ ؛ فلم يبق منه مايطلَق عليه لفظ التعجّب ؛ وهذا من باب الإغراق والمبالغة فى المبالغة ، كما قال أبو الطيب :

أَسَفِى على أسفِى الّذى دَلّهتنى عن علمه فَبِهِ علىَّ خفــــاء[1]

وشَكِيَّتى فَقْدُ السقام لأنّه قد كانَ لمّا كانَ لى أعضــــاء

وقال ابن هانئ المغربىّ :

قَدْ سِرْتُ فى الميدان يوم طِرادِهِمْ فعجبتُ حتى كِدْتُ ألاَّ أعْجبَا[2]

والأوَد : العوَج .

ثم ذكر تمالؤ قريش عليه ، فقال : حاول القومُ إطفاء نور الله من مصباحه ، يعنى ماتقدم من منابذة طَلْحة والزبير وأصحابهما له ، وما شفع ذلك من معاوية وعمرو وشيعتهما .

وفوّار اليَنْبوع : ثقب البئر .

قوله : « وجدحوا بينى وبينهم شِرْبا[3] » ، أى خلطوه ومزجوه وأفسدوه .

والوبىء : ذو الوباء والمرض ؛ وهذا استعارة كأنّه جعل الحال التى كانت بينه وبينهم قد أفسدها القوم ، وجعلوها مَظِنّة الوباء والسَّقَم ، كالشرب الذى يخلط بالسمّ أو بالصَّبِر فيفسد ويوبِئ .

---

(١) ديوانه ١ : ١٤ .
(٢) ديوانه ٨١ (طبعة المعارف) .
(٣) الشرب : النصيب من الماء .

ثم قال : فإن كشف الله تعالى هذه المحنَ التى يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين، وحصل لى التمكّن من الأمر ، حملتُهم على الحقّ المحض الذى لا يمازجُه باطل ، كاللبن المحْض الذى لا يخالطه شىء من الماء ، وإن تكن الأخرى ، أى وإنْ لم يكشف الله تعالى هذه المحنة ومتّ أو قتلت ـ والأمور على ماهى عليه من الفتنة ودولة الضلال ـ فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات ؛ والآية من القرآن العزيز [(١)] .

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلوىّ نقيب البصرة ، وقت قراءتى عليه ، عن هذا الكلام ، وكان رحمه الله على مايذهب إليه من مذهب العَلَويّة منصفا وافر العقل ، فقلت له : مَنْ يعنى عليه السلام بقوله : « كانت أثرة شحّت عليها نفوس قوم ، وسخَت عنها نفوس آخرين ؟ » ومَن القومُ الذين عناهم الأسدىّ بقوله : « كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به » ؟ هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة ، فقلت : إنّ نفسى لا تسامحنى أن أنسُب إلى الصحابة عصيان رسول الله صلى الله عليه وآله ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحنى أيضا نفسى أن أنسب الرسول صلى الله عليه وآله إلى إهمال أمر الإمامة ، وأنْ يترك النّاس فوضى سُدًى مهمَلين ؛ وقد كان لا يغيبُ عن المدينة إلا ويؤمّر عليها أميرا وهو حىّ ليس بالبعيد عنها ، فكيف لا يؤمّر وهو ميّت لا يقدر على استدراك ما يحدُث !

ثم قال : ليس يشكّ أحدٌ من الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عاقلا كامل العقل ، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم ؛ وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة ، سديد الرأى ، أقام ملّةً ، وشرَع شريعة ، فاستجدّ ملكا عظيما بعقله وتدبيره ؛ وهذا الرّجل العاقل الكامل يعرفُ طباع العرب وغرائزهم وطلبَهم بالثّارات والذُّحول ؛ ولو بعد الأزمان المتطاولة . ويقتُل الرجل من القبيلة رجلا من بيت آخر ،

(١) سورة فاطر ٨ .

فلا يزال أهلُ ذلك المقتول وأقاربه يطلبون القاتل ليقتلوه ؛ حتى يدركوا ثأرهم منه ؛ فإن لم يظفروا به قتلُوا بعضَ أقاربه وأهله ، فإن لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدنين . والإسلام لم يُحِلْ طباعهم . ولا غيّر هذه السجيّة المركوزة في أخلاقهم ، والغرائز بحالها ، فكيف يتوهم لبيب أنّ هذا العاقل الكامل وَتَرَ العرب ، وعلى الخصوص قريشاً ، وساعدهُ على سَفْك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضغائن ابنُ عمّه الأدنى وصهرُه ، وهو يعلم أنه سيموت كما يموت الناس ، ويتركه بعده وعنده ابنته ، وله منها ابنان يجريان عنده مجرى ابنين من ظَهْره حُنوّاً عليهما ، ومحبّةً لهما ، ويعدل عنه في الأمر بعده ، ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه ، فيحقنُ دمه ودم بنيه وأهله باستخلافه ! ألا يعلمُ هذا العاقل الكامل ؛ أنّه إذا تركه وترك بنيه وأهلَه سُوقةً ورعيّة ؛ فقد عرّض دماءهم للإراقة بعده ؛ بل يكونُ هو عليه السلام هو الذي قتله ، وأشاط[1] بدمائهم ، لأنهم لا يعتصمون بعده بأمرٍ يحميهم ؛ وإنّما يكونون مضغةً للآكل ، وفريسةً للمفترس ، يتخطّفهم الناس ، وتبلغ فيهم الأغراض ! فأمّا إذا جعَل السلطان فيهم ، والأمر إليهم ؛ فإنّه يكون قد عَصَمَهم وحَقَن دماءهم بالرّياسة التي يَصُولون بها ، ويرتدع الناس عنهم لأجلها . ومثل هذا معلوم بالتجربة . ألا ترى أنّ ملك بغداد أو غيرها من البلاد لو قتَل الناس ووتَرَهم ، وأبقى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه ، ثم أهمل أمر ولده وذريته من بعده ، وفسَح للناس أن يقيموا مَلِكاً من عُرْضهم ، وواحداً منهم ، وجعل بنيه سوقةً كبعض العامّة ، لكان بنوه بعده قليلاً بقاؤهم ، سريعاً هلاكهم ، ولَوثَب عليهم الناس ذوو الأحقاد والتِّرات من كلّ جهة ، يقتلونهم ويشرّدونهم كلّ مشرّد . ولو أنّه عيّن ولداً من أولاده للملك ، وقام خواصّه وخدمه وخَوَلُه بأمره بعده ، لحُقنت دماء أهل

---

(١) أشاط بدمائهم : أهدرها أو عمل على هلاكها .

بيته ، ولم تطل يد أحد من الناس إليهم لناموس الملك ، وأبّهة السلطنة ، وقوة الرياسة ، وحرمة الإمارة !

أفترى ذهب عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المعنى ؟ أم أحبّ أن يُستأصل أهله وذرّيته من بعده ! وأين موضعُ الشّفَقة على فاطمة العزيزة عنده ، الحبيبة إلى قلبه !

أتقول : إنه أحبّ أن يجعلها كواحدةٍ من فقراء المدينة ، تتكفّفُ الناس ، وأن يجعل عليًّا ، المكرّم المعظّم عنده ، الذى كانت حاله معه معلومةً ، كأبى هريرة الدَّوْسِىّ وأنس ابن مالك الأنصارىّ ، يحكّم الأمراء فى دمه وعِرْضه ونفسه وولده ، فلا يستطيع الامتناع، وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول ؛ تتلظّى أكباد أصحابها عليه ، ويودّون أن يشربُوا دمه بأفواههم ، ويأكلوا لحمه بأسنانهم ؛ قد قتل أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامهم ، والعهدُ لم يطُلْ ، والقروح لم تتقرّف[1] ، والجروح لم تندمل !

فقلت له : لقد أحسنتَ فيما قلت ، إلّا أن لفظه عليه السلام يدلّ على أنه لم يكن نصّ عليه ، ألا تراه يقول : « ونحنُ الأعلون نسبًا ، والأشدّون بالرسول نَوْطًا » ، فجعل الاحتجاج بالنَّسب وشدّة القرْب ؛ فلو كان عليه نصّ ، لقال عِوَض ذلك : « وأنا المنصوص علىّ ، المخطوب باسمى » .

فقال رحمه الله : إنما أتاه من حيثُ يعلم ، لا من حيث يجهل ؛ ألا ترى أنه سأله ، فقال : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام ، وأنتم أحقّ به ؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه وهم أحقّ به من جهة اللُّحمة والعِتْرة ؟ ولم يكن الأسدىّ يتصوّر النّصّ ولا يعتقده ، ولا يخطر بباله ، لأنه لو كان هذا فى نفسه ، لقال له : لم دفعك النّاس عن هذا المقام، وقد نصّ عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ولم يَقُل له هذا ، وإنما قال كلاما عامًّا لبنى هاشم كافّة :

(١) تقرف الجرح : علت فوقه قشرة ، أى شارف البرء .

كيف دفعكم قومُكم عن هذا وأنتم أحقّ به ؟ أى باعتبار الهاشمية والقربى . فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذى تعلّق به الأسدىّ بعينه ؛ تمهيداً للجواب ، فقال : إنّما فعلوا ذلك مع أنّا أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرنا لأنّهم استأثروا علينا ، ولو قال له : أنا المنصوص علىّ ، والمخطوب باسمي فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما كان قد أجابه ؛ لأنّه ما سأله : هل أنت منصوص عليك أم لا ؟ ولا هل نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالخلافة على أحد أم لا ؟ وإنّما قال : لِمَ دَفَعَكم قومُكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم ؟ فأجابه جواباً يطابق السؤال ويلائمه أيضاً ، فلو أخذ يصرّح له بالنصّ ، ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لنفر عنه ، واتّهمه ولم يقبل قوله ، ولم ينجذب إلى تصديقه ؛ فكان أولى الأمور فى حكم السياسة وتدبير الناس ؛ أن يجيب بما لا نفرة منه ، ولا مطعن عليه فيه .

(١٦٤)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام :

الحمدُ لِلّهِ خالقِ العِبادِ ، وساطِحِ المِهادِ ، ومُسيلِ الوِهادِ ، ومُخصِبِ النِّجادِ ؛ ليسَ لأوَّليَّتِهِ ابتداءٌ ، ولا لأزليَّتِهِ انقضاءٌ ؛ هُوَ الأوَّلُ ولَمْ يَزَلْ ، والباقي بلا أجَلٍ . خرَّتْ لهُ الجِباهُ ، ووحَّدتْهُ الشِّفاهُ . حدَّ الأشياءَ عِندَ خلقِهِ لها إبانةً لهُ مِنْ شَبَهِها ، لا تُقدِّرُهُ الأوهامُ بالحدودِ والحركاتِ ، ولا بالجوارحِ والأدواتِ ؛ لا يُقالُ لهُ : «مَتى ؟» ولا يُضرَبُ لهُ أمَدٌ : «بِحتّى» ؛ الظاهرُ لا يُقالُ : «مِمَّ ؟» والباطِنُ لا يُقالُ : «فِيمَ ؟»

لا شَبَحٌ فيُتَقَصّى ، ولا مَحجوبٌ فيُحوى . لَمْ يَقرُبْ مِنَ الأشياءِ بالتصاقٍ ، ولَمْ يَبعُدْ عنها بافتراقٍ ، ولا يَخفى عليهِ مِن عبادِهِ شُخوصُ لحظةٍ ، ولا كُرورُ لفظةٍ ، ولا ازدلافُ رَبوةٍ ، ولا انبساطُ خُطوةٍ في ليلٍ داجٍ ، ولا غَسَقٍ ساجٍ ، يَتفيَّأُ عليهِ القمرُ المنيرُ ، وتَعقُبُهُ الشمسُ ذاتُ النورِ في الأفولِ والكُرورِ ، وتقليبِ الأزمنةِ والدُّهورِ ، مِنْ إقبالِ ليلٍ مُقبِلٍ ، وإدبارِ نهارٍ مُدبِرٍ .

قبلَ كُلِّ غايةٍ ومُدَّةٍ ، وكُلِّ إحصاءٍ وعِدَّةٍ ، تَعالى عمّا يَنحَلُهُ المُحدِّدونَ مِن صِفاتِ الأقدارِ ، ونِهاياتِ الأقطارِ ، وتأثُّلِ المساكنِ ، وتمكُّنِ الأماكنِ . فالحدُّ لِخلقِهِ مَضروبٌ ، وإلى غيرِهِ منسوبٌ .

لَمْ يَخلُقِ الأشياءَ مِنْ أصولٍ أزليَّةٍ ، ولا مِنْ أوائلَ أبديَّةٍ ، بَلْ خَلَقَ ما خَلَقَ فأقامَ

حَدَّهُ ، وَصَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ .

لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ ؛ عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى .

* * *

الشَّرْحُ :

المهاد هنا : هو الأرض ؛ وأصله الفراش : وساطحه باسطه ؛ ومنه تسطيح القبور خلاف تسنيمها ؛ ومنه أيضا المِسْطَح ، للموضع الذى يبسط فيه التمر ليجفّف .

والوهاد : جمع وَهْدة ؛ وهى المكان المطمئن ، ومسيلها : مجرى السَّيل فيها . والنِّجاد : جمع نَجْد ، وهو ما ارتفع من الأرض ، ومخصبها : موجدها وجاعلها ذوات خِصْب .

* * *

[مباحث كلامية]

واعلم أنه عليه السلام أوردَ فى هذه الخطبة ضروباً من علم التوحيد ، وكلها مبنيّة على ثلاثة أصول :

الأصل الأول : أنه تعالى واجب الوجود لذاته ، ويتفرّع على هذا الأصل فروع :

أولها : أنه ليس لأوّليته ابتداء ، لأنه لو كان لأوّليته ابتداء لكان محدَثا ، ولاشىء من المحدَث بواجب الوجود ، لأن معنى واجب الوجود ، أنّ ذاته لا تقبل العدَم ، ويستحيل الجمع بين قولنا : هذه الذات محدَثة ، أى كانت معدومة من قبل ، وهى فى حقيقتها لا تقبل العدَم .

وثانيها : أنّه ليس لأزليّته انقضاء ، لأنه لو صحّ عليه العدَم لـكان لعدَمه سبب ، فـكان وجوده موقوفاً على انتفاء سبب عدمه ، والتوقّف على غيره ، يكون ممكنَ الذات ، فلا يكون واجبَ الوجود . وقوله عليه السلام : « هو الأوّل لم يزَلْ ، والباقى بلا أجَل » تكرار لهذين المعنيين السابقيْن على سبيل التأكيد ، ويدخل فيه أيضا قوله : « لا يقال له متى ، ولا يضرب له أمد بحتّى » ؛ لأن « متى » للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان ، و « حتى » للغاية وواجب الوجود لا غاية له . ويدخل أيضا فيه قوله : « قبل كلّ غاية ومدّة ، وكلّ احصاء وعدّة » .

وثالثها : أنّه لايشبهُ الأشياء البتّة ، لأنّ ما عداه إمّا جسم أو عَرَض أو مجرّد ، فلو أشبهَ الجسْم أو العرض لـكان إما جسما أو عرضا ؛ ضرورة تساوى المتشابهين المتماثلين فى حقائقهما ، ولو شابهَ غيرَه من المجرّدات لزم ان كل مجرد غير مُمْكِن ـ لـكان ممكناً ، وليس واجب الوجود بممكن ، فيدخل فى هذا المعنى قوله عليه السلام : « حَدّ الأشياء عند خلْقه لها ، إبانةٌ له من شبهها » ، أى جعل المخلوقات ذوات حدود ليتميّز هو سبحانه عنها ، إذ لا حدّ له ، فبطل أنْ يشبهه شيء منها . ويدخل فيه قوله عليه السلام : « لا تقدِّره الأوهام بالحدود والحركات ، ولا بالجوارح » . والأدوات : جمع أداة وهى مايعتمَد به ، ويدخل فيه قوله : « الظاهر فلا يقال : مِمّ ؟ » أى لايقال : من أىّ شيء ظَهر ، « والباطن فلا يقال : فيم » ، أى لا يقال فيما ذا بطن ؟ ويدخل فيه قوله : « لا شَبحٌ فيتقضّى » والشّبح : الشخص ويتقضّى يطلب أنقضاء . ويدخل فيه قوله : « ولامحجوب فيحوَى » وقوله : « لم يقرب من الأشياء بالتصاق ، ولم يبعد عنها بافتراق » ؛ لأنّ هذه الأمور كلّها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولاعوارضها . ويدخل فيه قوله عليه السلام : « تعالى عما ينحَلُه المحدّدون من صفات الأقدار » ؛ أى عما ينسبه إليه المشبهة والمجسّمة من صفات المقادير ، وذوات المقادير .

ونهايات الأقطار ، أي الجوانب . وتأثّل الساكن ، مجدّ مؤثّل ، أي أصيل ، وبيت مؤثّل ، أي معمور ؛ وكأنّ أصل الكلمة أن تبنى الدار بالأثل ، وهو شجر معروف . وتمكّن الأماكن : تبوئها واستقرارها . وقوله : « فالحدّ لخلقه مضروب ، وإلى غيره منسوب » ، وقوله : « ولاله بطاعة شيء انتفاع » ، لأنه إنّما ينتفع الجسم الذى يصحّ عليه الشهوة والنفرة ؛ كلُّ هذا داخل تحت هذا الوجه .

* * *

الأصل الثانى : أنّه تعالى عالم لذاته ، فيعلم كلّ معلوم ، ويدخل تحت هذا الأصل قوله عليه السلام : « لا تخفى عليه من عباده شخوص لحظة » ؛ أن تسكن العين فلا تتحرك . « ولا كرور لفظة » ، أي رجوعها ، « ولا ازدلاف ربوة » ، صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض ، وهى الموضع المرتفع « ولا انبساط خطوة . فى ليل داج » أى مظلم . « ولا غسق ساج » ، أى ساكن .

ثم قال : « يتفيّأ عليه القمر المنير » ، هذا من صفات الغسق ، ومن تتمّة نعته ؛ ومعنى : « يتفيّأ عليه » يتقلّب ذاهباً وجائياً فى حالتيْ أخذه فى الضوء إلى التبدّر، وأخذه فى النقص إلى المحاق .

وقوله : « وتعقبه » ، أى وتتعقّبه ، فحذف إحدى التاءين ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾[1] ؛ أى « تتوفاهم » ، والهاء فى « وتعقّبه » ترجع إلى القمر ، أى وتسير الشمس عقبه فى كروره . وأفوله ، أى غيبوبته ، وفى تقليب الأزمنة والدهور ، من إقبال ليل وإدبار نهار .

---

(١) سورة النساء ٩٧ .

فإن قلت : إذا كان قوله : « يتفيّأ عليه القمر المنير » في موضع جرّ ، لأنه صفة « غسق » ، فكيف تعقّب الشمس القمر مع وجود الغسق ؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق ؟

قلت : لا يلزم من تعقّب الشمس القمر ثبوتُ الغسق ؛ بل قد يصدق تعقّبها له ويكون الغسق معدوما ، كأنه عليه السلام قال : « لا يخفى على الله حركةٌ في نهار ولا ليل ، يتفيّأ عليه القمر ، وتعقبه الشمس » ، أي تظهر عقيبه ، فيزول الغسق بظهورها .

وهذا التفسير الذي فسرناه يقتضي أن يكون حرف الجر وهو « في » التي في قوله : « في الكرور » متعلقا بمحذوف ، ويكون موضعه نصبا على الحال ، أي وتعقبه كارًّا وآفلا . ويدخل تحته أيضا قوله عليه السلام : « علمه بالأموات الماضين ، كعلمه بالأحياء الباقين ، وعلمه بما في السموات العلا ، كعلمه بما في الأرضين السفلى » .

* * *

الأصل الثالث : أنه تعالى قادر لذاته ، فكان قادراً على كلّ الممكنات ، ويدخل تحته قوله : « لم يخلق الأشياء من أصول أزلية ، ولا من أوائل أبدية ، بل خلق ما خلق فأقام حدّه ، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته » ، والردّ هذا على أصحاب الهيولى والطينة التي يزعمون قدمها . ويدخل تحته قوله : « ليس لشيء امتناع » ، لأنه متى أراد إعادة شيء أوجده ، ويدخل تحته قوله : « خرّت له الجباه » ، أي سجدت . و « وحّدته الشفاه » ، أي الأفواه ، فعبر بالجزء عن الكلّ مجازا ؛ وذلك لأنّ القادر لذاته هو المستحق للعبادة لخلقه أصول النعم ، كالحياة والقدرة والشهوة .

* * *

واعلم أنّ هذا الفنّ هو الذي بان به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب في زمانه قاطبة

واستحق به التقدم والفضل عليهم أجمعين ؛ وذلك لأن الخاصة التي يتميز بها الإنسان عن البهائم هي العقل والعلم؛ ألا ترى أنه يشارك غيره من الحيوانات في الحسية والدموية والقوة والقدرة، والحركة السكانية على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الامتياز إلا بالقوة الناطقة، أي العاقلة العالمة ؛ فكلما كان الإنسان أكثر حظاً منها، كانت إنسانيته أتم؛ ومعلوم أن هذا الرجل انفرد بهذا الفن، وهو أشرف العلوم، لأن معلومه أشرف المعلومات، ولم ينقل عن أحد من العرب غيره في هذا الفن حرف واحد، ولا كانت أذهانهم تصل إلى هذا، ولا يفهمونه بهذا الفن، فهو[1] منفرد فيه، وبغيره من الفنون — وهي العلوم الشرعية — مشارك لهم، وراجح[2] عليهم ؛ فكان أكمل منهم، لأنا قد بينا أن الأعلم أدخل في صورة الإنسانية ؛ وهذا هو معنى الأفضلية.



الأصل :

منها :

أيها المخلوق السوي، والمنشأ المرعي ؛ في ظلمات الأرحام، ومضاعفات الأستار. بدئت من سلالة من طين، ووضعت في قرار مكين ؛ إلى قدر معلوم، وأجل مقسوم ؛ تمور في بطن أمك جنيناً لا تحير دعاء، ولا تسمع نداء. ثم أخرجت من مقرك إلى دار لم تشهدها ؛ ولم تعرف سبل منافعها ؛ فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك !

هيهات ! إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات ؛ فهو عن صفات خالقه أعجز، ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد.

* * *

(١) ساقطة من ب.

(٢) ا، ب: « وأرجح »، وما أثبته من ج، د.

الشَّرْحُ

السَّوِيُّ : المستوى الخلقة غير ناقص ، قال سبحانه : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[1] .

والمُنْشَأ ، مفعول من « أنشأ » أى خُلِق وأوجِد . والمرعىّ : المحوط المحفوظ .

وظلمات الأرحام ، ومضاعفات الأستار : مستقرّ النُّطَف ، والرَّحِم موضوعة فيما بين المثانة والمِعَى المستقيم ؛ وهى مربوطة برباطات على هيئة السّلسلة ، وجسمها عصبىّ ؛ ليمكن امتدادها واتّساعها وقتَ الحاجة إلى ذلك عند الولادة ، وتنضمّ وتتقلّص إذا استُغْنِي عن ذلك ؛ ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحد ، وزائدتان يسمّيان قرنَيِ الرحم ؛ وخَلْف هاتين الزائدتين بيضتا المرأة ؛ وهما أصغر من بيضتَيِ الرّجل ، وأشدّ تفرطحًا ، ومنهما ينصب مَنِيُّ المرأة إلى تجويف الرَّحِم ؛ وللرَّحِم رقبةٌ منتهية إلى فَرْج المرأة ، وتلك الرقبة من المرأة بمنزلة الذَّكر من الرجل ؛ فإذا امتزج منىّ الرجل بمنىّ المرأة فى تجويف الرَّحم كان العلوق ، ثم ينمى ويربو من دم الطَّمْث ، ويتصل بالجنين عروق تأتى إلى الرَّحِم فتغذوه ، حتى يتمّ ويكمل ، فإذا تمّ لم يكتفِ بما تحمله من تلك العروق فيتحرك حركاتٍ قويّة ، طلبًا للغذاء ، فتنهتك أربطة الرَّحِم التى قلنا إنّها على هيئة السلسلة ؛ وتكونُ منها الولادة .

قوله : « بُدِئْتَ من سُلَالَة من طين » ، أى كان ابتداء خلقك من سُلالة ؛ وهى خلاصة الطين ، لأنّها سُلَّت من بين الكَدَر ، و« فُعالة » بناء للقلّة ، كالقُلامة والقُمامة . وقال الحسن : هى مابين ظَهْرانَيِ الطّين .

ثم قال : « ووضِعتَ فى قرار مكين » ، الكلام الأوّل لآدم الذى هو أصلُ البشر ، والثانى لذرّيته ، والقرار المكين : الرَّحِم متمكّنة فى موضعها برباطاتها ، لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العُلُوق .

---

(١) سورة مريم ١٩

ثم قال : « إلى قَدَرٍ معلوم ، وأجَلٍ مقسوم » ، إلى : متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : « منهيا إلى قَدَرٍ معلوم » ، أى مقدَّراً طوله وشكله إلى أجل مقسوم مدة حياته .

ثم قال : « تمور فى بطنِ أمك » ، أى تتحرك . لا تُحير ، أى لا ترجع جوابا ، أحار يُحير .

إلى دار لم تشهدها ؛ يعنى الدنيا ؛ ويقال : أشبه شىء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التى بعد الموت ؛ انتقالُ الجنين من ظلمة الرَّحِم إلى فضاء الدنيا ؛ فلو كان الجنين يعقل ويتصوَّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلا الدّار التى هو فيها ، ولا يشعر بما وراءها ، ولا يحسّ بنفسه إلا وقد حَصَل فى دار لم يعرفْها ، ولا تخطر بباله ، فبقىَ هو كالحائر المبهوت ؛ وهكذا حالنا فى الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت .

ولقد أحسن ابن الرومىّ فى صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيا بِهِ مِنْ صُروفها ... يكونُ بكاء الطِّفْلِ ساعَةَ يولَدُ[1]

وإلّا فما يُبْكيه منهـا وإنّها ... لأوْسَعُ مِمّا كانَ فيـه وأرْغَدُ !

إذا أبْصَرَ الدنيـا استهلّ كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدَّدُ

قال : « فَمَنْ هداك إلى اجترارِ الغِذَاء من ثَدْيِ أمك ؟ » ، اجترار : امتصاص اللبن من الثَّدْى ؛ وذلك بالإلهام الإلهىّ .

قال : « وعرَّفك عند الحاجـة » ، أى أعلمك بموضع الحَلَمَة عنـد طلبك الرّضاع فالتقمتَها بفيك .

---

(١) ديوانه الورقة ٦٥ (مخطوطة دار الكتب المصرية ــ ١٣٩ أدب) .

ثم قال : « هيهات » ، أى بَعُد أن يحيط علما بالخالق مَنْ عجز عن معرفة المخلوق !

قال الشاعر :

رَأَيْتُ ٱلْوَرَى يَدْعُونَ ٱلْهُدَى … وَكَمْ يَدَّعِى الحقّ خَلْقٌ كَثِيرْ

وما فى البرايا امرُؤٌ عنـــدَهُ … من العـلم بالحقّ إلا اليسِيرْ

خَفِىٌّ فمــــا نالَه ناظرٌ … وما إن أشار إليــهِ مشيرْ

ولا شىء أظهرُ من ذاته … وكيف يرى الشَّمْسَ أعمَى ضريرْ !



(١٦٥)

الأصـلُ :

ومن كلام له عليه السلام لعثمان بن عفان ، قالوا : لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وشكوا إليه مانقموه على عثمان ، وسألوه مخاطبته واستعتابه لهم ، فدخل عليه السلام على عثمان ، فقال :

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ؛ وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ !

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ ؛ مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ ؛ وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا ، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا صَحِبْنَا . وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْخَيْرِ[1] مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا ؛ فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ وَاللهِ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى ، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ ؛ وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ .

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ ؛ هُدِيَ وَهَدَى ، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً ، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً ؛ وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ؛ وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ ؛ فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً ، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً ؛ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ؛ ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا .

(١) د : « الحق » .

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً . فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ، وَتَقَضِّي الْعُمُرِ .

فقال له عثمان رضي الله عنه :

كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ .

فقال عليه السلام :

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ .

الشرح :

نقمت على زيد، بالفتح، أنقم فأنا ناقم، إذا عتبت عليه . وقال الكسائي : نقمت بالكسر أيضاً، أنقم لغة ؛ وهذه اللفظة تجيء لازمة ومتعدية، قالوا : نقمت الأمر أي كرهته

واستعتبت فلانا ؛ طلبت منه العتبى وهي الرضا ، واستعتابهم عثمان : طلبهم منه ما يرضيهم عنه .

واستفسروني : جعلوني سفيراً ووسيطا بينك وبينهم .

ثم قال له وأقسم على ذلك : إنه لا يعلم ماذا يقول له لأنه لا يعرف أمرا يجهله ، أي من هذه الأحداث خاصة . وهذا حق ، لأن عليا عليه السلام لم يكن يعلم منها ما يجهله

عثمان ، بل كان أحداث الصبيان فضلاً عن العقلاء المميزين ، يعلمون وجهَ الصواب والخطأ فيها .

ثم شرع معه فى مسلك الملاطفة والقول اللين ، فقال : ماسبقنا إلى الصحْبة ، ولا انفردنا بالرَّسُول دونك ، وأنت مثلنا ونحن مثلك .

ثم خرج إلى ذكر الشيخَين ، فقال قولا معناه أنهما ليسا خيراً منك،فإنك مخصوص دونهما بقُرْب النسب ،يعنى المنافية،وبالصهر ؛ وهذا كلام هو موضع المثل : « يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغاء » ، ومراده تفضيل نفسه عليه السلام عليهما ، لأن المعنى التى باعتبارها فضل عثمان عليهما محققة فيه وزيادة ؛ لأنّ له مع المنافية الهاشمية ، فهو أقرب .

والوشيجة : عروقُ الشّجرة . ثم حذّره جانب الله تعالى ونبهه على أن الطريق واضحة، وأعلام الهدى قائمة ، وأنّ الإمام العادل أفضلُ الناس عند الله ،وأنّ الإمام الجائر شرّ الناس عند الله .

ثم روى له الخبر المذكور ، وروى : « ثم يرتبك فى غمرها » ، أى ينشَب .

وحوّمه أن يكون الإمامَ المقتول الذى يفتح الفِتن بقتله ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال كلاما هو هذا ، أو يشبه هذا .

ومَرَج الدين ، أى فسد . والسَّيِّقة : ما استاقه العدوّ من الدواب ، مثل الوسيقة ، قال الشاعر :

فما أنا إلّا مثلُ سَيِّقَة العِدَا إن استقدَمَتْ نحرٌ وإن جَبَأتْ عَقْرُ[1]

والجَلال ، بالضم : الجليل ، كالطُّوال والطويل ؛ أى بعد السن الجليل ؛ أى العمر الطويل .

---

(١) اللسان ١٢ : ٣٣ من غير نسبة .

وقوله : « ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه ؛ وما غاب فأجلُه وصول أمرك إليه » ، كلامٌ شريف فصيح ، لأنّ الحاضر أى معنى لتأجيله ! والغائب فلا عذر بعد وصول الأمر فى تأخيره ، لأنّ السلطان لا يؤخَر أمره .

وقد ذكرنا من الأحداث التى نُقِمت على عثمان فيما تقدّم مافيه كفاية ، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ رحمه الله فى " التاريخ الكبير "[1] هذا الكلام ، فقال : إنّ نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا ، فكتب بعضُهم إلى بعض : أن اقدموا ، فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالروم ؛ واستطال الناس على عثمان ، ونالوا منه ؛ وذلك فى سنة أربع وثلاثين ؛ ولم يكن أحدٌ من الصحابة يذبّ عنه ولا ينهى ؛ إلّا نفرٌ ، منهم زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدىّ ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ؛ فاجتمع الناس ، فكلّموا علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وسألوه أن يكلّم عثمان ، فدخل عليه ، وقال له إنّ الناس ... وروَى الكلام إلى آخره بألفاظه ، فقال عثمان : وقد[2] علمت أنك تقولون [2] ماقلت ! أما والله لو كنتَ مكانى ماعنفتُك ، ولأعتبت عليك[3] . ولم آت منكراً ، إنّما وصلتُ رحماً ، وسددتُ خَلّة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولّيه ؛ أنشدك الله ياعلىّ ، ألا تعلم[4] أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك ! قال : بلى ، قال : أفلا تعلم أنّ عمر ولّاه ! قال : بلى ، قال : فلم تلومنى أنْ ولّيت ابنَ عامر فى رحمه وقرابته ! فقال علىّ عليه السلام : إنّ عمرَ كان يطأ على صماخ مَنْ يولّيه ، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة ، وأنت فلا تفعل ؛ ضعفت ورفقت على أقربائك .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣٧ ، وما بعدها .
(٢–٢) الطبرى : « قد والله علمت ليقولن الذى قلت » .
(٣) الطبرى : « ما عنفتك ولا أسلمتك » .
(٤) الطبرى : « هل تعلم » .

[قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً ، فقال علىّ : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ؛ ولكنّ الفضل فى غيرهم] [1] .

فقال عثمان : أفلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية ؟ فقد ولّيته . قال علىّ : أنشدُك الله ألا تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يَرْفأ غلامه له ؟ قال : بلى ، قال : فإنّ معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس : هذا بأمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه !

ثم قام علىّ ، فخرج عثمان على أثره ، فجلس على المنبر ، فخطب الناس ، وقال : أما بعد ؛ فإنّ لكلّ شىء آفة ، ولكلّ أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمّة ، وعاهة هذه النعمة عيّابون طعّانون يُرُونكم ما تحبّون ، ويُسِرّون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ؛ أمثال النعام يتبعُ أوّلَ ناعق ، أحبّ مواردها إليها البعيد ، لا يشربون إلا نَغَصاً ، ولا يردون إلا عَكَراً . أما والله لقد عِبْتم علىّ ما أقررتُم لابن الخطاب بمثله ؛ ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ؛ فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولِنْتُ لكم ، وأوطأتكم كَتِفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم ، فاجترأتم علىّ . أما والله لأنا أقربُ ناصرا ، وأعزّ نفراً ، وأكثر عدداً ؛ وأحرى إن قلت : هلمّ أن يُجاب صوتى . ولقد أعددت لكم أقراناً ؛ وكشرت لكم عن نابى ؛ وأخرجتم منى خُلُقاً لم أكنْ أحسنه ؛ ومنطقاً لم أكن أنطق به . فكفّوا عنى ألسنتكم وطعنكم وعَيْبكم علىّ ولاتكم ؛ فما الذى تفقدون من حقّكم ! والله ما قصّرت عن بلوغ مَنْ كان قبلى [يبلغ] [1] ؛ وما وجدتكم تختلفون عليه ؛ فما بالكم !

فقام مروان بن الحكم ، فقال : وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السيف .

فقال عثمان : اسكت لا سكتّ ! دعنى وأصحابى ، ما منطقك فى هذا ! ألم أتقدّم [2] إليك ألّا تنطق !

فسكت مروان ، ونزل عثمان .

---

(١) من الطبرى . (٢) تقدم إليه : أمره .

(١٦٦)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس:

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَساكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، وَأَقامَ مِنْ شَواهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَما ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ.

كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ، فِي عَجائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً؛ وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً؛ وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ؛ فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

* * *

الشرح:

الموات، بالفتح: ما لا حياة فيه وأرضٌ موات، أي قفر، والساكن هاهنا كالأرض والجبال. وذو الحركات: كالنار والماء الجاري والحيوان.

وتمّت فى أسماعنا دلائله ، أى صاحت دلائله ؛ لظهورها كالأصوات المسموعة التى نعلّم بعثنا .

وأحاديد الأرض : شقوقها ، جمع أخدود . وفجاجها : جمع فجّ ؛ وهو الطريق بين الجبلين . ورواسى أعلامها : أثقال جبالها

مصرّفة فى زمام التسخير ، أى هى مسخّرة تحت القدرة الإلهية .

وحِقاق المفاصل : جمع حُقّ ؛ وهو مجمع المفصلين من الأعضاء كالركبة ؛ وجعلها محتجبة لأنها مستورة بالجلد واللحم .

وعَبالة الحيوان : كثافة جسده . والخفوف : سرعة الحركة . والدفيف للطائر : طيرانه فُوَيق الأرض ؛ يقال : عُقاب دَفوف قال امرؤ القيس يصف فرسه ويشبهها بالعُقاب :

كأنى بفَتخاء الجناحين لَقْــــوةٍ دفوف من العقبان طأطأت شِمْلالى[1]

ونسقها : رتبها . والأصابيغ : جمع أصباغ ، وأصباغ جمع صِبْغ .

والمغموس الأول : هو ذو اللون الواحد كالأسود والأحمر . والمغموس الثانى : ذو اللونين ، نحو أن يكون أحمر وعنقه خضراء .

وروى : « قد طورق لون » أى لون على لون ، كما تقول : طارقت بين الثوبين .

فإن قلت : ماهذه الطيور التى يسكن بعضها الأحاديد وبعضها الفجاج ، وبعضها رءوس الجبال ؟

قلت : أما الأول فـكالقطا والصدا[2] ، والثانى كالقبَج[3] والطَّيهوج[4] ، والثالث كالصقر والعُقاب .

* * *

(١) ديوانه ٣٨ . الفتخاء : اللينة الجناحين . واللقوة : السريعة من العقبان . وطأطأت : دانيت وخفضت . والشملال : الخفيفة السريعة .

(٢) الصدا : ذكر البوم .

(٣) القبج ، واحده القبجة ؛ وهى أنثى الحجل .

(٤) الطيهوج : طائر شبيه بالحجل الصغير ، غير أن عنقه أحمر ومنقاره ورجلاه حمر .

الأصل :

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُسُ ؛ الَّذِى أَقَامَهُ فِى أَحْسَنِ تَعْدِيلٍ ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِى أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ ! إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وَسَمَا بِهِ مُطِلاًّ عَلَى رَأْسِهِ ؛ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِىٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ . يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ . يُفْضِى كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ ، وَيَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الفُحُولِ المُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ . أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ . وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ ، فَتَقِفُ فِى ضَفَّتَىْ جُفُونِهِ ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ المُنْبَجِسِ ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الغُرَابِ !

الشرح :

الطاوس: فاعول ، كالناموس ، والساكوس ، وتُرخيمه «طُوَيس» ؛ ونضد : رتَّب .

قوله : « أشرج قصبه » ؛ القصب هاهنا : عروق الجناح ، وعضاريفه: عظامه الصغار ، وأشرجها : ركَّب بعضها فى بعض كما تُشرَج العيبة ، أى بداخِلُ بين أشراجها وهى عُراها واحدها : شَرَج ، بالتحريك .

ثم ذكر ذَنَب الطاوس ، وأنّه طويل المسحَب ، وأنّ الطاوس إذا دَرَج إلى الأنثى للسِّفاد نَشَر ذَنَبه من طَيِّه ، وعَلاَ به مرتفعا على رأسه . والقِلْع : شِراع السفينة ، وجمعه قِلاع . والدّاريّ : جالب العطر فى البحر من دَارِين ؛ وهى فُرْضة بالبحرين ، فيها سُوقٌ يحمل إليها المسك من الهند ، وفى الحديث: « الجليس الصالح كالدّاريّ،إن لم يُحْذِك من عطره علقَك من ريحه »[1] . قال الشاعر :

(١) نهاية ابن الأثير ١ : ٢١١ ، لم يحذك : لم يعطك .

إذا التّاجر الدّاريُّ جاء بفأْرَةٍ من المسك رَاحتْ في مفارقهم تجْرِى

والنُّوتِىّ : الملّاح ؛ وجمعه نواتىُّ

وعنجه : عطّفه ، وعنجْتُ خِطام البعير ، رددته على رجليه ، أعنُجُه بالضمّ ، والاسم العَنَج ؛ بالتحريك ؛ وفي المثل « عَوْدٌ يُعلَّمُ العَنَجَ[1] » يضرب مثلا لتعليم الحاذق .

ويختال ، من الخُيَلاء ، وهى العُجْب . ويميس : يتبختر .

وزّيفانه : تبخثره ، زافَ يَزِيف ، ومنه ناقة زيّافة ، أى مُختالة ، قال عنترة :

« زَيَّافَةٍ مثل الفنيق المكدَّم[2] »

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جرّ القُنابى ، ودفع مقدّمه بمؤخره واستدار عليها .

ويقضى : يسفد ، والدِّبَكة جمع ديك ، كالقِرَطة والجِحَرة جمع قُرْط وجُحْر .

ويؤز : يسفد ؛ والأز : الجماع ، ورجل أزّ كثير الجماع ، ومَلاقحه : أدوات اللقاح وأعضاؤه ؛ وهى آلات التناسل .

قوله : « أزّ الفُحول » ، أى أزًّا مثل أزّ الفحول ذات الغُلمة والشّبَق .

ثم ذكر أنه لم يقل ذلك من إسناد قد يضعف ويتداخله الطعن ، بل قال ذلك عن عيان ومشاهدة .

---

(١) العود : البعير المسن ، وانظر مجمع الأمثال ١ : ١٢ .

(٢) من المعلقة ـ بشرح التبريزى ، وصدره :

« ينْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ »

ينباع : ينفعل من باع يبوع ؛ إذا مرّ مرًّا لينا . والذفريان : الحيدان الناتئان بين الأذن ومنتهى الشعر . والجسرة : الضخمة . والزيافة : المسرعة . والفنيق : الفحل ، والمكدم ، من الكدم وهو العض . (من شرح التبريزى) .

فإن قلت : من أين للمدينة طواويس ؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أحيلك من ذلك على معاينة » ؛ لا سيما وهو يعني السِّفاد ورؤية ذلك لمن تكثُرُ الطواويس في داره ويطول مكثُها عنده نادرة !

قلت : لم يشاهد أميرُ المؤمنين عليه السلام الطواويسَ بالمدينة بل بالكوفة ، وكانت يومئذ تُجبَى إليها ثمرات كلِّ شيء ، وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق ، ورؤية المسافدة مع وجود الذَّكر والأنثى غير مستبعَدة .

* * *

واعلم أنّ قوماً زعموا أنّ الذَّكر تدمع عينه ، فتقف الدمعة بين أجفانه ، فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقَح من تلك الدمعة ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يُحِلْ ذلك ، ولكنه قال : ليس بأعجب من مطاعمة الغراب ، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد ؛ ومن أمثالهم : « أخفى من سِفاد الغراب » ؛ فيزعمون أنّ اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى منهما وانتقال جزء من الماء الذي في قانصته إليها من منقاره . وأما الحكماء فقلّ أن يصدقوا بذلك ؛ على أنهم قد قالوا في كتبهم مايقرب من هذا ، قالوا في السمك البياض : إنّ سفاده خفيٌّ جداً ، وإنه لم يظهر ظهوراً يعتدّ به ويحكم بسببه .

هذا لفظ ابن سينا في كتاب « الشفاء » ، ثم قال : والناس يقولون : إن الإناث تأخذ زرع الذكور في أفواهها إلى بطونها ، ثم قال : وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة للزرع ، وأما عند الولادة فإنّ الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضها .

قال ابن سينا : والقَبَجة تحبلها ريح تَهبّ من ناحية الحَجَل الذكر ؛ ومن سماع صوته . قال : والنوع المسمّى مالاقيا ، تتلاصق بأفواهها ، ثم تتشابك ، فذلك سِفادها ؛ وسمعت

أنّ الغراب يفقد وأنه قد شوهد سِفاده ؛ ويقول الناس : إنّ من شاهد سِفاد الغراب يُثرِى ولا يموت إلّا وهو كثير المال موسر .

والصَّفَقتان ، بفتح الصاد : الجانبان، وهما صفقتا النهر ، وقد جاء ذلك بالكسر أيضا، والفتح أفصح .

والمنبجس : المنفجر. وبفتحها : بصبها. وروى : « تنشجها مدامعه » ؛ من النَّشيج، وهو صوت الماء وغليانه من زِق أو حُبّ أو قِدْر .

الأصلُ

تخالُ قَصَبَه مَدَارِيَ مِن فِضَّةٍ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِن عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ . فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ : جَنًى جُنِيَ مِن زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ ، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ . وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ .

يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ ؛ فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ ؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ ؛ لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ .

• • •

الشرح :

قَصَبُه : عظام أجنحته ، والمَدَارِى جمع مِدْرَى ؛ وهو فى الأصل القَرْن ؛ قال النّابغة يصف الثّور والكلاب :

شَكَّ الفَرِيصَــةَ بالمِدْرَى فأنفذَها شكَّ المبيطر إذ يشفى من العَضَدِ[1]

---

(١) ديوانه ٢٠ . شك : أنفذ . الفريصة : مضغة فى مرجع الكتف إلى الخاصرة . والمبيطر : البيطار والعضد : داء يأخذ فى العضد .

وكذلك المِذْرَاة ؛ ويقال المِدْرَى لشيء كالمِسَلَّة تصلح بها الماشطة شُعُور النساء ؛ قال الشاعر :

تَهْلِكُ المِدْرَاةُ فى أَكْنافِهِ   وَإِذا ما أَرْسَلَتْهُ يَعْتَفِرْ[1]

وتمدّرت المرأة ، أى سرّحت شَعْرَها . شبّه عظام أجنحة الطاوس بمدارى من فضة لبياضها ؛ وشبّه ما أنبت الله عليها من تلك الدّارات والشموس الّتى فى الرّيش بمخالص العِقْيان ؛ وهو الذّهب .

وَفِلَق الزّبرجَد : جمع فِلْذَة ، وهى القطعة . والزَّبَرْجد : هذا الجوهر الذى تسمّيه الناس الباخش .

ثم قال : إن شبّهته بنبات الأرض قلت : إنه قد جُنِيَ من زهرة كلّ ربيع فى الأرض ، لاختلاف ألوانه وأصباغه .

وإنْ ضاهيته بالملابس ، المضاهاة : المشاكلة ، يُهمز ولا يُهمز ، وقرئ : ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] ، ﴿وَيُضَاهِئُونَ﴾ ؛ وهذا ضَهِيّ هذا ، على « فَعِيل » ، أى شبيهه .

وموشّيّ الحُلَل : ما دُبّج بالوشى ؛ وهو الأرفع اللون . والعَصْب : بُرود اليمن . والحُلِيّ : جمع حَلْى ؛ وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضة ، مثل ثَدْى وثُدِيّ ، ووزنه « فُعول » ، وقد تُكسر الحاء لمكان الياء ، مثل « عِصِيّ » . وقرئ : ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾[3] بالضمّ والكسر .

ونطقت باللُّجين ؛ جعلت الفضة كالنِّطاق لها . والمكلّل : ذو الإكليل .

---

(١) اللسان ١٨ : ٢٨٠ (من غير نسبة) .
(٢) سورة التوبة ٣٠ .
(٣) سورة الأعراف ١٤٨ .

وزَقَا : صَوّت ، يزقو زَقْواً وزقياً وزُقاء ، وكلُّ صائح زاقٍ . والزَّقْية : الصَّيحة ؛ وهو أثقلُ من الزَّواق ؛ أى الدِّيكة ، لأنهم كانوا يسمُرون ؛ فإذا صاحت الدِّيكة تفرّقوا .

ومُعوِلاً : صارخا ، أعولت الفرس صوّتت ، ومنه العَويل والعَوْلة .

وقوائمه حُمْش : دِقاق ؛ وهو أحمش السّاقَين وحَمْش الساقين بالتّسكين ؛ وقد حمشت قوائمه ، أى دقّت . وتقول العرب للغلام إذا كانت أمّه بيضاء وأبوه عربيا : آدم، فجاء لونه بين لونيهما .

خِلاسيّ ، بالكسر والأنثى خِلاسيّة وقال الليث : الدِّيكة الخِلاسيّة هى المتولّدة من الدجاج الهنديّ والفارسيّ .

يقول عليه السلام : إنّ الطاوس يزْهَى بنفسه ويُعجبه إذا نظر فى أعطافه ورأى ألوانه المختلفة ؛ فإذا نظر إلى ساقيه وجَم لذلك وانكسر نشاطه وزهوه ، فصاح صياح العويل لحزنه ؛ وذلك لدِقّة ساقيه ونُتُوء عُرقوبَيْه .

* * *

الأصْلُ :

وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ ، وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ ، وَمَغْرِزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأُقْحُوَانِ ، أَبْيَضُ يَقَقٌ ؛ فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ

ماهُنالِكَ يأتَلِقُ ، وقَلَّ صِبْغٌ إلاّ وقد أخذتْهُ بِقِسْطٍ ؛ وعلاهُ بِكَثرةِ صِقالِهِ وبَريقِهِ، وبَصِيصِ دِيباجِهِ ورَوْنَقِهِ ، فهوَ كالأزاهيرِ المَبْثُوثَةِ ، لَمْ تُرَبِّها أمطارُ رَبيعٍ ، ولا شُمُوسُ قَيْظٍ.

• • •

الشرح :

نجمت : ظهرت . والظنبوب : حرف الساق ؛ وهو هذا العظم اليابس .

والصِّيصِيَة فى الأصل : شوكة الحائك التى يسوى بها السَّداةَ واللحمة ، ومنه قوله [1] :

• كوَقْعِ الصَّيَاصِى فى النَّسِيجِ المُمَدَّدِ •

ونقل إلى صيصيَة الديك لهذه الهيئة التى فى رجله .

والعُرْف : الشعر المرتفع من عُنقه على رأسه ، والقُنْزُعة ، واحدة القنازع؛وهى الشَّعر حوال الرأس ، وفى الحديث : « غَطِّى عنا قنازعَك يا أم أيمن » [2] .

وموشَّاة : ذات وشى .

والوِسِمة ، بكسر السين : العِظْلِم الذى يُخْضَب به ؛ ويجوز تسكين السِّين .

والأسحم : الأسود . والمتلفّع : الملتحف ، ويروى : «مقنّع بمعْجَر»؛ وهو ماتشدُّه المرأة على رأسها كالرِّداء .

والأقحوان : البابونج الأبيض ؛ وجمعه أقاح .

---

(١) لدريد بن الصمة ، وصدره :

• نجَنْتُ إليْهِ والرِّماحُ تَنُوشُهُ •

من كلمة له فى ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٤ ــ ٣٠٩ بشرح التبريزى .

(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٧٩ ؛ ولفظه هناك : « أنه قال لأم سلم : خضلى قنازعك » .

وأبيض يَقَق : خالص البياض ، وجاء « يقق » بالكسر . ويأتلق : يلمع .

والبصيص : البريق ، وبصّ الشيء : لمَع .

وتربُّها الأمطار : تربّيها وتجمعها .

يقول عليه السلام : كأنّ هذا الطائرَ ملتحفٌ بملحفة سوداء ، إلّا أنها لكثرة رونقها يتوهّم أنه قد امتزج بها خضرة ناضرة ، وقلّ أن يكون لون إلّا وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب ، فهو كأزاهير الربيع ، إلّا أنّ الأزهار تربّيها الأمطار والشموس؛ وهذا مستغنٍ من ذلك .

* * *

الأصْـلُ :

وَقَدْ يَتَحَسَّرُ مِنْ رِيشِهِ ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى ، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً ؛ فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأَغْصَانِ ، ثُمَّ يَتَلاحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ . لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ ؛ وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ ، أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً ، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً ، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً ؛ فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ ؛ وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ ؛ وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ !

فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ ؛ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً ، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً ، وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ !

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ !

ورأى على تَمْشِيهِ الاضطرابَ شَبَحٌ بما أوْلَجَ فيه الرُّوحَ ؛ إلا وَجَعَلَ الحِمامَ مَوْعِدَهُ، وَالفَناءَ غايَتَهُ .

• • •

الشرح :

يتحسر من ريشه : ينكشف فيسقط ، ويروى : « ينحسر » .

تَتْرَى ، أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾[1]؛ لأنه لم يرسلهم على تراسل ، بل بعد فترات ؛ وهذا مما يغلط فيه قومٌ ، فيعتقدون أنّ « تَتْرَى » للمواصلة والالتصاق . وأصلها الواو من « الوَتْر» وهو الفرد وفيها لغتان ، تنوّن ولا تنوّن ، فمن ترك صَرْفها للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث ، ومَنْ نوّنها جعل ألفها للإلحاق .

قال عليه السلام : « وينْبُت تباعاً » أي لا فترات بينهما ، وكذلك حال الريش الساقط ، يسقط شيئاً بعد شيء ، وينبت جميعاً .

وينحتُّ : يتساقط ، وانحاتَّ الورق : تناثرها . وناميا : زائداً . يقول عليه السلام : إذا عاد ريشه عادَ مكان كلّ ريشة ريشةٌ ملوّنة بلون الريشة الأولى ، فلا يتخالف الأوائل والأواخر .

والخضرة الزَّبَرْجدِيَّةُ : منسوبة إلى الزُّمُرُّذ[2] ، ولفظة « الزَّبرجد » تارة تستعمل، وتارة لهذا الحجر الأحمر المسمّى « بلخش » . والعسجد : الذهب . وعِقْيان الفِطَن :

---

(١) سورة المؤمنين ٤٤ .

(٢) في اللسان : « الزبرجد والزبردج : الزمرذ » .

البعدة القَمْر . والقريحة : الخاطر والذهن . وبَهَرَ : غَلَبَ ، وجلّاه : أظهره ؛ ويروى بالتخفيف . وأدمج القوائم : أحكمها ؛ كالحبل المدمّج الشديد الفَتْل .

والذّرّة : النملة الصغيرة . والهَمَجَة ، واحدة الهمَج ؛ وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمر وأعينها .

ووأى : وعد ، والوأى : الوعد .

* * *

واعلم أنّ الحكماء ذكروا في الطاوس أموراً، قالوا: إنّه يعيش خمساً وعشرين سنة[1]، وهي أقصى عمره ، ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما يكتمل لونه ، ويتمّ ريشه . ويبيض في السنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام ، ويحضنها ثلاثين يوما ، فيفرخ ويلقي ريشَه مع سقوط ورق الشجر ، ويَنْبته مع ابتداء نبات الورق .

والدجاج قد يحضن بيض الطاوس ؛ وإنّما يختار الدجاج لحضانته ؛ وإن وُجدت الطاوسة ، لأنّ الطاوس الذّكر يعبث بالأنثى ، ويشغلها عن الحضانة ، وربّما انتقص البيض من تحتها ؛ ولهذه العلّة بعينها كثير من الإناث حاضنها عن ذُكرانها ، ولا تقوى الدجاجة على أكثر من بيضتيْ طاوس . وينبغي أن يتعهّد الدجاجة حينئذ بتقريب العلف منها .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله في كتاب " الحيوان " : إن الطاوسة قد تبيض من الريح ؛ بأن يكون في سُفالة الريح وفوقها طاوس ذكر ، فيحمل ريحه فتبيض منه ، وكذلك القَبْجة .

قال : وبيض الريح قلّ أن يُفْرِخ .

* * *

(١) ساقط من ب .

الأصل :

منها فى صفة الجنة :

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَايُوصَفُ لَكَ مِنْهَا ؛ لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَافِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا ، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا ، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ .

قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ ؛ فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ ؛ لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا ، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا ؛ جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

تفسير بعض ما فى هذه الخطبة من الغريب

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ » الْأَرُّ : كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ ؛ يُقَالُ : أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يَؤُرُّهَا ، إِذَا نَكَحَهَا .

وَقَوْلُهُ عليه السلامُ : « كَأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ » ؛ الْقَلْعُ : شِرَاعُ السفينةِ . وَدَارِيٌّ : منسوب إِلَى دَارِينَ ؛ وهى بلدةٌ عَلَى البحر يُجْلَبُ منها الطِّيبُ . وَعَنَجَهُ ، أى عَطَفَهُ ؛ يقال : عَنَجْتُ الناقةَ ، أَعْنُجُهَا عَنْجًا إذا عَطَفْتَهَا . وَالنُّوتِيُّ : الْمَلَّاحُ .

وقوله عليه السلام : « صَفَّقَيْ جُفُونِهِ » ، أراد جانِبَيْ جُفُونِهِ ، وَالصَّفْقَانِ : الْجَانِبَانِ .

وَقوله : « وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ » ، الْفِلَذُ : جمع فِلْذَةٍ وَهِيَ الْقِطْعَةُ .

وقوله عليه السلام : « كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ » الْكِبَاسَةُ : الْعِذْقُ . وَالْعَسَالِيجُ : الْغُصون ، وَاحِدهَا عُسْلُوجٌ .

* * *

الشرح :

رميتَ ببصرِ قلبك ، أى افكَرْت وتأملت وعَزَفَتْ نفسُك : كرهتْ وزهدت . والزخارف : جمع زُخْرف ؛ وهو الذهب وكلّ مموَّه .

واصطفاق الأشجار : انتظامها صفًّا ، ويُروى : « فى اصطفاق أغصان » أى اضطرابها .

ويأتى على مُنْيَة مجتنيها : لا يترك له مُنْيَة أصلا ، لأنه يكون قد بلغ نهاية الأمانى .

والعسل المصفّق : المصفَّى تحويلا من إناء إلى إناء . والمونقة : المعجبة . وزهقت نفسه : ماتت .

* * *

واعلم أنّه لا مزيد فى التشويق إلى الجنّة على ماذكره الله تعالى فى كتابه ؛ فكلّ الصَّيْدِ فى جانب الفرا[1] .

---

(١) الفرأ : حمار الوحش ؛ وأصل المثل : « كل الصيد فى جوف الفراء » ، وفى القاموس بغير همز لأنه مثل ؛ والأمثال موضوعة على الوقف » .

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك أخبار صحيحة ، فروى أسامة بن زيد ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر الجنة فقال : « ألا مشمر لها ؟ هي وربّ الكعبة ريحانة تهتز ، ونور يتلألأ ، ونهر يطّرد ، وزوجة لا تموت ؛ مع حبور ونعيم ، ومقام الأبد » .

وروى أبو سعيد الخدريّ عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله سبحانه لما حوّط حائط الجنّة ؛ لبنة من ذهب ولبنة من فضّة ، وغرس غرسها ، قال لها : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : طوبى لك منزل الملوك ! » .

وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام : « إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة ، قال لهم ربّهم تعالى : أتحبّون أن أزيدكم ؟ فيقولون : وهل خيرٌ مما أعطيتنا ؟ فيقول : نعم ، رضواني أكبر » .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « إنّ أحدكم ليعطَى قوة مائة رجل في الأكل والشرب » ، فقيل له : فهل يكون منهم حدَث ـ أو قال خَبَث ؟ قال : « عَرَقٌ يفيض من أعراضهم كريح المسك يضمُر منه البطن » .

وروى الزمخشريّ في " ربيع الأبرار " ـ ومذهبه في الاعتزال ونصرة أصحابه معلوم ؛ وكذلك في انحرافه عن الشّيعة وتسخيفه لمقالاتهم ـ أنّ رسول الله محمدا صلى الله عليه وآله ، قال : « لما أُسريَ بي ، أخذني جبرئيل ، فأقعدني على دُرْنوك من درانيك الجنّة ، ثم ناولني سفرجلة ، فبينا أنا أقلّبها انفلقتْ ، فخرجت منها جارية لم أرَ أحسنَ منها ، فسلّمت ، فقلت : مَنْ أنتِ ، قالت : أنا الراضية المرضيّة ، خلقني الجبّار من ثلاثة أصناف : أعلاي من عنبر ،

وأوسطى من كافور ، وأسفلى من مسك . ثم عجننى بماء الحيوان ، وقال لى : كونى كذا ، فكنت . خلقنى لأخيك وابن عمك على بن أبى طالب » .

قلت : الدُّرنوك : ضرب من البُسط ذو خَمْل ، ويشبّه به فَرْوة البعير ، قال الراجز :

* جعد الدَّرانيك رِفَلُّ الأَجْلادْ[1] *



(١) اللسان ١٢ : ٣٠٦ ، ونسبه إلى رؤبة ، وبعده :

* كأنه مُخْتَضِبٌ فى أجساد *

(١٦٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ؛ وَلَا عَنِ اللّهِ يَعْقِلُونَ ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ ، يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً ، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرًّا .



الشَّرْحُ

أمرهم عليه السلام أن يتأسى الصغير منهم بالكبير فى أخلاقه وآدابه ؛ فإنّ الكبير لكثرة التجربة أحزم وأكيس ، وأن يرأف الكبير بالصغير . والرأفة: الرحمة؛ لأنّ الصغير مظنّة الضعف والرقة .

ثم نهاهم عن خُلُق الجاهلية فى الجفاء والقسوة ، وقال : إنهم لا يتفقّهون فى دين ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به ؛ وهذا من قول الله سبحانه : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] . وروى : « تتفقهون » بتاء الخطاب .

ثم شبّههم ببيض الأفاعى فى الأعشاش ، يظنّ بيض القطا فلا يحلّ لمن رآه أن يكسره لأنه يظنّه بيض القطا ، وحضانه يُخرج شرًّا ؛ لأنه يفقص عن أفعى .

---

(١) سورة البقرة ١٧١ .

واستعار لفظة «الأداحي» للأعشاش مجازًا؛ لأن الأداحي لا تكون إلّا للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها ، ودَحْوُها : توسيعها ، من دَحَوْت الأرض .

والقَيْض : الكسر والفلق ، قِضْتُ القارورة والبيضة ، وانقاضت هي ، وانقاض الجدار انقياضا ، أي تصدّع من غير أن يسقط ؛ فإن سقط قيل : تقيّض تقيُّضا ، وتقوّض تقوّضا ؛ وقوّضته أنا . وتقول للبيضة إذا تكسرت فلقًا : تقيّضت تقيّضا ، فإنْ تصدّعت ولم تنفلق ، قلت : انقاضت ، فهي منقاضة ، والقارورة مثله .

* * *

الأصْـلُ :

منْها :

افترَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهمْ ، وتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ ؛ فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ ؛ أيْنَما مالَ مالَ مَعَهُ ؛ على أَنَّ اللهَ تَعالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ ؛ كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الخَرِيفِ ، يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَامًا كَرُكَامِ السَّحابِ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوابًا . يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الجَنَّتَيْنِ ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ ، وَلا حِدابُ أرْضٍ ؛ يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ في بُطُونِ أوْدِيَتِهِ ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الأرْضِ ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ .

وَايْمُ اللهِ لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ العُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ ، كَمَا تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ .

أَيُّها النَّاسُ ، لَوْ لَمْ تَتَخاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الحَقِّ ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ البَاطِلِ ، لَمْ

بِطْمَعُ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ ، وَلَمْ تَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ ، لَكِنَّكُمْ تُهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً ؛ بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى ، وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ ، وَكُفِيتُمْ مَئُونَةَ الِاعْتِسَافِ ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الأَعْنَاقِ .

* * *

الشرح :

هو عليه السلام : يذكر حال أصحابه وشيعته بعده ، فيقول : افترقوا بعد ألفتهم : أى بعد اجتماعهم .

وتشتتوا عن أصلهم ، أى عنى بعد مفارقتى ؛ فمنهم آخذ بغصن ؛ أى يكون منهم مَن يتمسك بمن أخلفه بعدى من ذرية الرسول، أينما سلكوا سلكوا معهم ؛ وتقدير الكلام : ومنهم مَن لا يكون هذه حاله لكنّه لم يذكره عليه السلام ، اكتفاء بذكر القسم الأول لأنه دالّ على القسم الثانى .

ثم قال : على أن هؤلاء القوم : من ثبت منهم على عقيدته فينا ومن لم يثبت ؛ لابدّ أن يجمعهم الله تعالى لشرّ يوم لبنى[1] أمية ، وكذا كان ، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بنى مَرْوان ؛ مَنْ كان منهم ثابتاً على ولاء على بن أبى طالب عليه السلام ، ومَنْ حادَ منهم عن ذلك ؛ وذلك فى أواخر أيام مَرْوان الحمار ، عند ظهور الدّعوة الهاشمية .

وقَزَع الخريف : جمع قَزَعة ، وهى سُحُب صغار تجتمع فتصيرُ رُكاما ، وهو ما كُثُف

(١) ج : « بنى » .

من السّحاب . وركمت الشيء أركمه ، إذا جمعته وألقيت بعضه على بعض .

ومستثارهم : موضع ثورتهم .

والجنّتان : هما اللتان قال الله تعالى فيهما : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [١] . وسلّط الله عليهما السّيل ، قال الله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [٢] . فشبّه عليه السلام سيلان الجيوش إلى بنى أميّة بالسيل المسلّط على تينك الجنّتين.

فإنه لم تسلم عليه قارة ؛ وهى الجبيل الصغير . ولم تثبت له أكمة ، وهى القائمة من الأرض .

ولم يردّ سننه ، أى طريقه . طود مرصوص ، أى جبل شديد التصاق الأجزاء بعضها ببعض . ولا حدّاب أرض . جمع حدبة [٣] وهى الروابى والنّجاد .

ثم قال : « يذعذعهم الله » ! الذّعذعة بالذال المعجمة مرتين : التفريق ، وذعذعة الشرّ : إذاعته .

ثم يسلكهم ينابيع فى الأرض ، من ألفاظ القرآن [٤] ، والمراد أنه كما أن الله تعالى ينزّل من السّماء ماء فيسكنّ فى أعماق الأرض ، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها ، كذلك هؤلاء القوم ، يفرّقهم الله تعالى فى بطون الأودية وغوامض الأغوار ، ثم

---

(١) سورة سبأ ١٥ .

(٢) سورة سبأ ١٦ .

(٣) فى اللسان : الحدبة ، بفتحتين : ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع . ولا تكون الحدبة إلا فى قف أو غلظ من الأرض .

(٤) وهو قوله تعالى فى سورة الزمر ٢١ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

يظهرُهم بعد الاختفاء فيأخــذ بهم من قومٍ حقوقَ آخرين ، ويمكِّن منهم قوماً من ملاك قوم وديارهم .

ثم أقسم ليذُوبَنَّ مافى أيدى بنى أمية بعد علوّهم وتمكنهم ، كما تذوب الأليَــة على النار ؛ وهمزة « الألْيَة » مفتوحة ، وجمعها ألَيات ، بالتحريك ؛ والتثنية أليان بغــير تاء ؛ قال الراجز :

* ترتجّ أليَاهُ ارتجاجَ الوَطْبِ [1] *

وجمع الأَليْ ألا، على « فَعال » وكبش آلَى على « أفْعَل » ونعجة « ألياء » والجمع أُلْيٌ على « فُعْل » ، ويقال أيضاً : كبش أليان بالتحريك ، وكباش أليانات ، ورجل أليا ، أى عظيم الألية ، وامرأة عجزاء ولا يقل : « ألياء» وقد قاله بعضهم . وقد ألِيَ الرجُل بالكسر يألَى : عَظُمتْ أليتُه .

ثم قال : لولا تخاذلكم لم يطمع فيكم من هو دونكم .

وتهِنُوا ، مضارع وَهَن ، أى ضعف ، وهو من ألفاظ القرآن [2] أيضاً .

وتِهتُم مَتَاه بنى إسرائيل : حِرْتُم وضللتم الطريق ؛ وقد جاء فى المسانيد الصحيحة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « لترْكَبنّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم حذوَ النعل بالنعل ، والقُذّة بالقُذّة ؛ حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه » ، فقيل : يارسولَ الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذاً ! ومن الأخبار الصحيحة أيضاً : « أمتهوِّكون أنتم كما تهوَّكت اليهودُ والنَّصارى ! » [3].

وفى صحيحى البخارىّ ومسلم رحمهما الله أنه سيجاء يوم القيامة بأناسٍ من أمّتى ،

(١) الصحاح (ألى) من غير نسبة .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة آل عمران ١٣٩ : «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ».

(٣) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٥٨ ؛ قال : « التهوك كالتهور ؛ وهو الوقوع فى الأمر بغير روية . أو الذى يقع فى كل أمر ؛ وقيل : هو التحير » .

فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فإذا رأيتهم اختلجوا دونى ، قلت : أى ربّ ، أصحابى ! فيقال لى : إنك لا تدرى ما عملوا بعدك ! فأقول ما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد ﴾ : الإسناد فى هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه .

وفى الصحيحين أيضاً ، عن زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من نومه محمرًّا وجهه ؛ وهو يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرّ قد اقترب ! » ، فقلت : يارسول الله ، أنهلك ، وفينا الصالحون ! فقال : « نعم ، إذا كثر الخبث » .

وفى الصحيحين أيضاً : « يُهلك أُمتى هذا الحيُّ من قريش » ، قالوا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : « لو أنّ الناس اعتزلوهم » ، رواه أبو هريرة عنه صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام : « أيضعُفنّ لكم التّيه من بعدى » . يعنى الضلال ، يضعفه لكم الشيطان وأنفسكم بما خلّفتم الحق وراء ظهوركم ، أى لأجل تركـكم الحق . وقطعكم الأدنى — يعنى نفسه . ووصلكم الأبعد ، يعنى معاوية . ويروى : « إن اتبعتم الراعى لكم » ، بالراء .

والاعتساف : سلوك غير الطريق . والفادح : الثقل ، فدحه الدين : أثقله .

(١٦٨)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام فى أول خلافته :

إِنَّ اللهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا ، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا .

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ ! أَدُّوهَا إِلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنَّ اللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا ، وَشَدَّ بِالإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ .

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ .

تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ؛ فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ :

اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَلَا تَعْصُوهُ ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ .

* * *

الشرح

واصدفوا عن تمت الشر ، أى أعرضوا عن طريقه . تقصِّدوا ، أى تعدلوا ، والقصد : العدل .

ثم أمر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها ؛ كالصّلاة والزّكاة ؛ وانتصب ذلك على الإغراء .

ثم ذكر أنّ الحرام غير مجهول للمكلّف بل معلوم ، والحلال غير مدخول ، أى لاعيب ولا نقص فيه ؛ وأنّ حرمة المسلم أفضلُ من جميع الحرُمات . وهذا لفظ الخبر النبوىّ : « حُرْمة المسلم فوق كلّ حُرْمة ، دمه وعرضه وماله » .

قال عليه السلام : « وشد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين فى معاقدها » ؛ لأنّ الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم .

قال : « فالمسلم مَنْ سلِم الناس » ؛ هذا لفظ الخبر النبوىّ بعينه .

قوله : « ولا يحلّ أذى المسلم إلا بما يجب » ، أى إلا بحقّ ؛ وهو الكلام الأوّل ، وإنما أعاده تأكيداً .

ثم أمر بمبادرة الموت ، وسماه الواقعة العامة ، لأنه يعمّ الحيوان كلّه ، ثم سمّاه خاصّة أحدكم ؛ لأنه وإن كان عامّاً إلا أنه مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم .

قوله : « فإنّ الناس أمامكم » ؛ أى قد سبقوكم . والساعة تسوقكم من خلفكم .

ثم أمر بالتخفّف[1] ؛ وهو القناعة من الدنيا باليسير ، وترك الحرص عليها ، فإنّ المسافر الخفيف أحرى بالنجاة ولحاق أصحابه وبلوغ المنزل ، من الثقيل .

---

(١) ا ، ب « بالتخفيف » ، وما أثبته من د .

وقوله : « فإنما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم » ؛ أي إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضا ، فيبعث الكلّ جميعا في وقت واحد .

ثم ذكر أنهم مسؤولون عن كلّ شيء حتى عن البقاع : لم استوطنتم هذه ، وزهدتم في هذه ؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار ؟ وحتى عن البهائم : لم ضربتموها ؟ لم أجعتموها ؟

وروى : « فإن البأس [1] أمامكم » بمعنى الفتنة ، والرواية الأولى أظهر . وقد ورد في الأخبار النبوية « ليقتصّنّ للجمّاء من القرناء » ، وجاء في الخبر الصحيح : « إنّ الله تعالى عذّب إنسانا بهرّ ، حبسه في بيت وأجاعه حتى هلك » .



(١) ب : « الناس » تحريف ؛ وما أثبته من باقي الأصول .

(١٦٩)

ومن كلام له عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة ، وقد قال له قوم من الصحابة : لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ! فقال عليه السلام :

يَاإِخْوَتَاهُ ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ؛ وَلَـٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ؛ وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَاشَاءُوا ؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ !

إِنَّ هَـٰذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ ؛ وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً . إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَـٰذَا الْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ : فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَالَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ لَاتَرَى هَذَا وَلَا هَذَا . فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً .

فَاهْدَءُوا عَنِّي وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي؛ وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً ، وَتُسْقِطُ مُنَّةً ، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً . وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ ؛ وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً ؛ فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ .

* * *

الشرح :

أجلب عليه : أعان عليه ، وأجلبه : أعانه . والألف فى «ياإخوتاه» بدل من ياء الإضافة، والهاء للسكت .

وعلى حدّ شوكتهم . شدّتهم ؛ أى لم تنكسر سورتُهم .

والعِبْدان جمع عَبْد ، بالكسر : مثل جَحْش وجِحشان ، وجاء عُبدان بالضم ، مثل تَمْر وتُمران ، وجاء عبيد ، مثل كَلْب وكَليب ؛ وهو جمع عزيز ، وجاء أَعْبُد وعِباد وعِبدّان ، مشددة الدال ، وعَبِدّاء بالمد ، وعِبُدَّى بالقصر ، ومعبوداء بالمدّ ، وعُبُد بالضم ، مثل سقف وسُقُف ، وأنشدوا :

أنسُبِ العبــــــدَ إلى آبائه   أسوَدَ الجلدة من قوم عُبُدْ[1]

ومنه قرأ بعضهم : ﴿ وَعُبُدَ الطَّاغوت ﴾[2] وأضافه .

قوله : « والتفّتْ إليهم أعرابكم » : انضمت واختلطتْ بهم .

وهم حلالكم ، أى يسُنكم يسومونكم ماشاءوا : يكلفونكم ، قال تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[3] .

ونؤخذ الحقوق مُسمَحة ، من أسمح ؛ أى ذلّ وانقاد .

فاهدءوا عنى ، أى فاسكتوا[4] . هدَأَ الرجل هدْءا وهدوءا ، أى سكن ، وأهدأه غيره .

ونضعضع قوّة : نضعف وتهدّ : ضعضعتُ البناء : هدمته . والمنّة : القوة . والوَهن : الضعف . وآخر الدواء الكيّ ، مثل مشهور ؛ ويقال : « آخر الطب » ويغلط فيه العامة فتقول : « آخر الداء » ، والكيّ ليس من الداء ليكون آخره .

* * *

---

(١) اللسان ٤ : ٢٦٠ .

(٢) سورة المائدة ٦٠ ؛ وهى قراءة عن ابن عباس ، وانظر تفسير القرطبى ٦ : ٢٣٥ .

(٣) سورة البقرة ٤٩ .

(٤) فى الأصول : « فاسكتنا » .

[موقف علىٍّ من قتلة عثمان]

واعلم أنَّ هذا الكلام يدلُّ على أنه عليه السلام كان فى نفسه عِقابُ الذين حَصَرُوا عثمان والاقتصاص ممّن قتلَه ، إن كان بقِىَ ممن باشَر قتله أحد ؛ ولهذا قال : إنّى لستُ أجهل ما تعلمون ؛ فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك ، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغى ؛ وصدق عليه السلام ؛ فإنّ أكثر أهل المدينة أجلبُوا عليه ، وكان مِنْ أهل مِصْر ومن الكوفة عالَمٌ عظيم حضروا من بلادهم ، وطووا المسالك البعيدة لذلك ، وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية ، وكان الأمرُ أمراً جاهلية ، كما قال عليه السلام ، ولو حرّك ساكناً لا ختلف الناس واضطربوا ، فقومٌ يقولون : أصابَ ، وقوم يقولون : أخطأ ، وقوم لا يحكمون بصواب ولاخطأ ، بل يتوقفون ، ولايأمن - لو شرع فى عقوبة الناس والقبض عليهم - مِنْ تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم ؛ فكان الأصوبُ فى التدبير ، والذى يوجبه الشرع والعقل الإمساكُ إلى حين سكون الفتنة ، وتفرّق تلك الشعوب وعَوْد كلّ قوم إلى بلادهم ؛ وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعه معاوية وغيرُه ، وأن يحضُرَ بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم ، ويعيّنون قوماً بأعيانهم ، بعضهم للقتل وبعضهم للحصار ، وبعضهم للتسوّر ، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضى ؛ فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى ؛ فلم يقع الأمر بموجب ذلك ، وعَصَى معاوية وأهلُ الشام ، والتجأ ورثة عثمان إليه ، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيّاً ، وإنما طلبوه مغالبة ، وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية ، ولم يأتِ أحدٌ منهم الأمر من بابه ؛ وقبل ذلك ما كان من أمر طلحة والزبير ، ونقضهما البيعة ، ونهبهما أموالَ المسلمين بالبصرة وقتلهما الصالحين من أهلها ؛ وجرت أمور كلّها تمنع الإمام عن التصدّى للقصاص ، واعتماد ما يجب اعتماده ؛ لو كان الأمر وَقَع على القاعدة

الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة ، وقد قال هو عليه السلام لمعاوية : « فأمّا طلبُك قتَلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ، وحاكم القوم إلىّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنّة رسوله » .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : وهذا عَيْن الحقّ ، ومحضُ الصواب ، لأنه يجب دخول الناس فى طاعة الإمام ، ثم تقع المحاكمة إليه ، فإن حَكَم بالحق استديمت إمامته ، وإن حَكَم بالجوْر انتقض أمره ، وتعين خلعُه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « وسأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكىّ » .

قلت : ليس معناه : وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكنَ الصبر ، فإذا لم أجد بدًّا عاقبتهم ، ولكنه كلام قاله أول مسير طلحة والزبير إلى البَصْرة ، فإنه حينئذ أشارَ عليه قوم بمعاقبة المجلبين ، فاعتذر بما قد ذكر ، ثم قال : « وسأمسك الأمر ما استمسك » ؛ أى أمسك نفسى عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكننى ، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم ، وأجتهد فى ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب ، فإذا لم أجد بدًّا من الحرب ، فآخر الدواء الكىّ ، أى الحرب ، لأنها الغاية التى ينتهى أمر العصاة إليها .